وجدانيات أبي الطيب المتنبي

دلالاتها وسماتها الفنية

الدكتور
أحمد عبد الغفار عبيد

رقم الإيداع : ٤٩٤٢ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N
977 - 6003 - 01- X

الدار المصرية للنشر والتوزيع
٣ش الإمام أحمد بن حنبل - فيكتوريا - الإسكندرية
ت : ٥٠٣٤١٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت

إهداء

إلى كل عاشق للحرية ، توَّاق
لمعالي الخصال ، مترفع عن
الدنيَّات ، غيور علي الحرمات ،
صدَّاع بكلمة الحق ، لا يخشى
في سبيل إرسالها لومة لائم
... أهْدي هذا الكتاب !!

المؤلف

مُقَدِّمة

لقي أبو الطيب المتنبي وشعره من عناية الشراح والنقاد والباحثين قديما وحديثا الشيء الكثير ، وشغل نتاجه ووقائع حياته اهتمام عديد من صفوة العلماء والنقاد والذواقين للشعر على امتداد العصور منذ عاش في القرن الرابع الهجري حتى وقتنا الحاضر ، ومع تلك العناية وذلك الاهتمام لا تزال هناك جوانب مهمة في شعر أبي الطيب تستأهل أن تدرس وتلقى عليها الأضواء ، ويماط عن أبعادها وبواعثها اللثام ، ومن أهم تلك الجوانب في تقديري ــ وجدانياته ، وهي تلك الأشعار التي عني فيها بالتعبير عن ذاته ، وخواطره وتصوير دخيلة نفسه في مناسبات شتى ، فجاءت تلك الأشعار الوجدانية نمطاً فريداً في شعرنا العربي ، يجمل بالباحثين المحدثين أن يقفوا عنده ، ويتفرسوا دلالاته . بحسبانه لونا شعريا بديعا ، جديراً بأن تلقى عليه الأضواء ، ويبرز للدارسين والذواقين ، بحسبانه من أعجب وأمتع ما عرفه الشعر العربي على امتداد تاريخه الحافل .

وإذا كان القدماء قد أفردوا ألوانا من شعر أبي الطيب بالدرس والتمحيص ، كالسيفيات ، والكافوريات ، والشاميات ، والعراقيات ... ، تبعا لمراحل حياة الشاعر والبقاع التي قصدها وأبدع فيها أشعاره ــ فإن وجدانياته أهم وأولى بأن تفرد بالدرس والتنويه والتقويم ، وستؤكد هذه الدراسة أن تلك الوجدانيات تضم كثيرا من فرائده وإبداعاته التي كانت موضع تقدير النقاد قديما وحديثا ؛ إذ تنبع من دخيلة نفسه ، وتعبر عن طوايا ذاته ، وحنايا وجدانه !! .

ولقد حفزني لهذه الدراسة ما لمسته من قصور فيما كتب عن الشعر الوجداني عند المتنبي ، وهو يمثل قدرا لا يستهان به من شعره إذ عبر فيه عن ذاته ، وصوَّر فيه نزوعاته ، ما يحب وما يكره ، ما يأمل ويرجو ، وما يصيبه بالإحباط والضيق مما عاناه من أهل زمانه ، وما نقمه على كثيرين ممن عايشهم واختلط بهم .... ، كل تلك المشاعر والإحساسات صورها أبو الطيب في شعره أدق تصوير وعبَّر عنها تعبيرا ممزوجا بمشاعره وإحساساته ، مقرونا بالعبرة والحكمة والرؤية الناقدة ، والدعوة الجريئة إلى الثورة على تلك النقائص ، والتنديد بمن يتصفون بها ويصدرون عنها ، على الرغم من كونهم أهل الرياسة والوجاهة ، وعلو الشأن ، ورفعة القَدْر في مجتمعاتهم وأزمانهم ، وكان الأجدر بهؤلاء في رأي أبي الطيب - وفي رأي كل ذي عقل رشيد ـ أن يُنبَذوا ويُبعدوا ، وأن تُسقطهم الشعوب من حسابها ؛ لأنهم وصمة عار في جبين الإنسانية ، وسبة في تاريخ الأمة الإسلامية ، ونكتة سوداء في غُرَّة دولة الخلافة التي صارت بأمثال هؤلاء ألعوبة في أيدي أعدائها .

لقد حمل شعر أبي الطيب في جانب التعبير عن شخصيته ووجدانه أقوى إدانة لعصره ، ولكل عصر يسود فيه أهل الوضاعة ، ويتصدر فيه من لا يستحق أن توكل إليه مصائر الأحرار ، وتُعلَّق على رؤيته وتقديره مصائر العباد والبلاد !! .

* * *

إن الشعر الوجدانيَّ عند أبي الطيب جدير بأن يفرد بالبحث ، وأن تستشف دلالاته ومراميه ؛ لأنه يرسم صورة نادرة المثال لتلك الشخصية الفذة التي لم يَجُد الزمان بمثلها ، وتلك المقدرة البيانية التي استطاع عن طريقها ذلك الشاعر العظيم أن ينقش اسمه في سجل النابهين ، والتي صور من خلالها أدق المشاعر الإنسانية ، وأرق الخواطر التي جاشت بها روحه وداعبت وجدانه ، والآمال الكبار التي امتلأت بها نفسه ، وتطلع لتحقيقها ، وأنفق في سبيلها عمره وفنه وإبداعه فلم يظفر من ذلك بشيء ، وكان كمن يجري وراء السراب !! .

لقد هالني وأنا أقرأ شعر المتنبي كثرة ما يوجد في ثنايا ذلك الشعر من تعبير عن شخصية الشاعر وآماله وطموحاته وآرائه في كثيرين ممن أحاطوا به ، أو اتصل بهم واضطربت به وبهم سبل الرزق وأسباب المنافسة ؛ ففي خِضَمِّ التجارب الشعرية الرائعة ، والمواقف الإبداعية التي كان على أبي الطيب أن يزاحم بها الشعراء ويطاول بها المادحين ، ويأمل أن يستحوذ بوساطتها على إعجاب الممدوحين ، وينتزع إعجاب النقاد والذواقين ، ويكبت الحساد والشانئين ... ـــ في خضمِّ ذلك كله لم يكن المتنبي يدع فرصة للتعبير عن ذاته ، والإدلال بشاعريته وأخلاقه ، والإشادة بشخصه ، والتدليل على علوّ همته ، وسموّ نفسه ، وترفعه عن الدنايا ... ، بل لقد بلغ به الأمر أنه كان كثيرا ما ينسى أنه شاعر مادح ، يعيش على عطايا من يتصل بهم ويمدحهم فنراه يقرن شخصه بهم ، بل يطاول بعضهم حينا ويتعالى على آخرين أحيانا .

إنني بعد أن تفرست هذه النوعية من شعر أبي الطيب وأدمت النظر فيها ، وعايشت تجارب الشاعر وطبيعة شاعريته ـ أجدني أختلف مع بعض الباحثين الذين أغفلوا مثل هذا اللون في شعر المتنبي ومن ثَمَّ غمطوا الرجل حقه ، وحكموا عليه أحكاما ظالمة ، فاتهموه بالغرور ، وسوء المسلك ، ومجانبة ما يليق بمن يخدم الملوك وينادم الفضلاء ... ، ونحو ذلك من الاتهامات الظالمة ، والاستنتاجات الفجة ، ولو أنصفوا وترووا ما أرسلوا أقوالهم جُزافا ، ولكان منهم تقدير للشاعر وإشادة بصنيعه ، فليس من مهام الشاعر أن يمالىء كل ذي سلطة ، أو يلفق النعوت لكل حاكم ، أيًّا كان مسلكه ، ومهما بلغ خموله وضعة شأنه ، وعدم جدارته بأن يقود ويحكم ، أو يسود ويُطاع !! .

لقد كان المتنبي صاحب رؤية خاصة فيمن يلي أمور الناس ، وتناط به مصائر البلاد والعباد ، وكان توّاقا إلى أن يرى بلاد الإسلام وأمصاره في بقاعه الممتدة وأرجائه الفسيحة موكولة إلى من يحفظ لها هيبتها ، ويدفع عنها الطامعين من أعدائها ، والمتربصين من خصومها ، بَيْدَ أنه قد قُدِّر له أن يعيش في زمن تكالبت فيه على دولة الخلافة الإسلامية العوادي ، فتبددت قوتها ، وتمزقت أوصالها ، وغدا المسيطرون على مقاليد الأمور في أكثر بقاعها رعاعا طامعين ، وثبوا على السلطة بالمكائد والدسائس ، وحولوا الخلافة إلى مسخ مشوه ، لم يبق من حقيقته شيء ، وإنما حرص من وأدوا الخلافة على أن تبقى مظهرا لا حقيقة له ، ورسما لا روح فيه ، وألقابا جوفاء ، لا تجدي على الأمة الإسلامية شيئا عندما ينزل بها ما يتطلب الحماية والذود عن المقدسات والحرمات ، لقد غدا حال الخلافة

على نحو ما وصف شاعر آخر واقعا مشابها حدث في الأندلس بعد حين :

ألقاب مملكة في غير موضعها

كـالـهرّ يحكي انتفاخا صولة الأسد !!

لقد آلمت هذه الأحوال المؤسفة ، والأوضاع المتردية للدولة الإسلامية وجدان أبـي الطيـب ، وأقضت مضجعه ، وكـان غيـورا ذا حميـة وأنفـة ، وإباءٍ وعِزّة ، وطموح وجـرأة ... ، فلم يجد بُدًّا من أن يجعل من تلك القضية شغله الشاغل ، وهمه الدائم ، وحلمه الذي لا يفارق مخيلته ، فكانت تلك الثورة على الأدعياء ، وأهـل النفج الفـارغ ، ومـن ينتحلون مـا ليس عندهم ، ويروّجون لدى شعوبهم والمحيطين بهم الأكاذيب !! .

ألا ما أعظم تلك القضية التي شغل أبو الطيب بها نفسه ، ونذر لها فنه وحمل روحه على كفه من أجلها ! ومما يؤسف لـه أن بعض من درسوا شعره ظلموه ، وهونوا من شأن فنه ، ولو أنصفوا لرفعوه إلى أعلـى مكـان لا من جهة اقتداره التعبيري ومهارته البيانية الفذة فحسـب ، بل من أجل سمو الغاية ، ونُبْل المقصد اللذين كانا باعث شعره ومحور إبداعه .

* * *

ومما يجدر أن أؤكده وأنا أقدم لهذه الدراسة أنني لن أتحدث عن الشعر الوجداني عند أبي الطيب من منظور تجريديّ جدلـيّ بل سـأجعل إبداعـات الشاعر ، وما اكتنف تجاربه من أحداث ومواقف هـي عُـدّتي فـي التحليل والاستنتاج ، وسيتأكد للقاريء من ثنايا ذلك أن الـرجل لم يُغيّر من طبعه ، ولم يماليء أحدا ، ولم يتزلف أو يداجِ من أجل مأرب عاجل ... ، لم يفعـل

المتنبي شيئا من ذلك ولو فعل لما لفت صنيعه نظر أحد ولكان شأنه شأن السواد الأعظم من شعراء عصره ، ولكنه اجتهد أن يقول ما يعتقد ، وأن يصرّح بما هو مقتنع به ، وقد جرّت عليه صراحته تلك أهوالا جساما واقتضته تضحيات جُلّى ، وفي اجتهادي أنه لم يكن بمقدوره أن يسلك غير الذي سلك ، ولا أن يصنع خلاف ما جرت به سجيته ، وفرضته عليه شخصيته ، ومثالياته ، وما ألزم به نفسه من خلق وسلوك !! .

وأستطيع أن أؤكد أن هذا اللون من الدراسة لوجدانيات أبي الطيب قمين أن يطلع القُرّاء والدارسين على قيم فكرية وأخلاقية وفنية على جانب كبير من الأهمية ؛ لأن الدراسة ستسلط الأضواء على جوانب وضيئة في شخصية المتنبي ، وهذا من شأنه أن يجعل القراء والباحثين يعيدون تقويمهم لطبيعة التكوين الشخصي لذلك الشاعر العظيم ، ويُنزِلون هذا اللون من شعره المنزلة اللائقة به ، فيصير باعث إعجاب وإكبار بدلا من عدّه مظهر عقد نفسية ، واضطراب في تكوينه الشخصي أو الاجتماعي كما يحلو لبعض الباحثين أن يزعم ويدّعي .

وتحسن الإشارة في هذا السياق إلى أن تلك الظاهرة ــ ظاهرة بروز الجانب الوجداني في نتاج أبي الطيب الشعري ــ لم تَمثُل في شعر شاعر عربيٍّ مثولها في شعر المتنبي ، ولم توجد لدى أحد من معاصريه أو الذين سبقوه أو لحقوه ممن يتوارد شعرهم وذكرهم ومكانتهم في أوساط الدارسين والمؤرخين للأدب العربي ، ولعل ذلك كان أحد الأسباب التي جعلت بعض الكتاب قديما وحديثا يسيئون للمتنبي ، ولا يقدرون هذا الجانب في شعره ؛ إذ رأوه نمطا متميزا فسّروه هم على أنه شذوذ عن الشائع المألوف ،

واغترار وادعاء ....، في حين كان عليهم أن يحمدوا من أجله أبا الطيب ، ويلوموا غيره من أهل عصره على إغفالهم التعبير عن ذواتهم ، وقعودهم عن تقويم معاصريهم ، وإعطاء كل منهم ما يستحق من حمد أو ذمّ .

كان أبو الطيب إذن أكثر الشعراء العرب القدامى تعبيرا عما يعتمل في قرارة نفسه ، وكان من أهم الشعراء الذين جعلوا شعرهم صورة صادقة لما يدور في خلدهم ، وكان أشجع أرباب البيان في " السباحة ضد التيار " ـ إن سوّغنا العبارة ـ على نحو فذٍّ لم يشركه فيه غيره من شعراء عصره ، بل لقد جعلنا نسترجع ذكريات الشعراء الجاهليين الذين عايشوا حياة الحرية بأوسع صورها ، ولم يكن بوسع أحد منهم أن يُخفي من مشاعره شيئا ، لقد أعاد أبو الطيب سيرة هؤلاء مصحوبة برؤية عميقة وتأمل دقيق ، وحكمة صائبة ، لا تدع مما تراه وتشعر به شيئا دون أن تسجله ، وتعبر عنه ، وتقوّمه ، مُعجَبةً به إن كان مبعث إعجاب واعتزاز ساخطة عليه ناقدة له إن كان مدعاة نفور وازدراء .

وربما يمكننا أن نقرر تأسيسا على ما سبق أن المتنبي كان ذا ميل فطري لحياة العرب الأقحاح ، وكان يستمد كثيرا من قيم حياته ، ومثاليات وحبّه للفروسة ، وإبائه للضيم ، وتعلقه بالشيم الكريمة ، والأخلاق النبيلة ـ من معايشته للعرب في البادية في طور النشأة ، عندما رحل مع أبيه إلى بادية الشام ، وهناك ترعرع عوده ، وتفتحت مواهبه ، وتطلع للمجد والشهرة ، وكان من أمره هناك ما كان . وربما كان أهم ما انطبعت عليه شخصية أبي الطيب أنه عاش حياته كلها يحمل في طوايا نفسه تلك الروح

المتوثبة التي لا تعرف سوى الصراحة طبعا ومسلكا ، مهما كلفها ذلك من تضحيات ، وما جره عليها من عداوة وخصومة ، لقد عاش المتنبي حتى آخر رمق في حياته وفي طبيعة تكوينه نزعة " طفولية " ، لا تعتد إلا بالصراحة مسلكا ونهجا ، ولا تعرف للمداراة أو المواربة موضعا ، وهي عندما تضطر للمداراة لا تجد بُدًّا من التنفيس عن الضيق بذلك النمط من الحياة ، على نحو ما عبر أبو الطيب عنه بما يدين ذلك النمط من الحياة التي تقتضي الإنسان المصانعة والمداراة ، وهو القائل :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوًّا له ما من صداقته بُدُّ

إذ يعد المداراة نكبة يبتلى بها الأحرار ، ويضطرون إليها اضطراراً .

وكثيرا ما كان أبو الطيب صريحا صراحة جارحة في بعض المواقف وأخبار تمنُّعه على كثيرين ممن طمعوا في أن يقصدهم بشعره مستفيضة مشهورة ، فهو في هذا الباب أشهر داعية تحرر وإباء بين الشعراء العرب وأبرع من انتصف للشاعر واعتد نتاجه الصادق أداة فضيلة ، وعامل تدعيم وتثبيت للخلق الطيب ، والسلوك القويم ، والإشادة بمكارم الأخلاق ، وجميل الشيم ، ومحمود الصفات ، وجميل السلوك ، ونبيل التضحيات . وكان من جانب آخر أشهر وأبرع من ندد بذوي الطبع اللئيم ، والمسلك الشائن ، والتردي المزري ، وبالأخص بين طبقة الحكام والولاة ، ومن على شاكلتهم ممن تضع الأمم في أيديهم مصائرها ومقدراتها ، وهؤلاء إن لم يكونوا على مستوى الأمانة التي تحملوها ، والمهام التي نيطت بهم —

عمت بهم البلوى ، وعظم الرزء ، وتضاعف الخطر ، ولعل ذلك يفسر لنا سر حملة أبي الطيب العنيفة على هؤلاء الأدعياء ؛ لأنهم يكونون وبالا على شعوبهم ، وأدوات فساد وإفساد في حين كان المنتظر منهم غير ما سلكوا ، ونقيض ما جلبوا على شعوبهم وأوطانهم .

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن تردي أحوال دولة الخلافة في العصر الذي عاش فيه أبو الطيب كان سببا أساسيا في هذا التمزق النفسي الذي عاناه الشاعر ، وصوره شعره تصويرا صادقا ، ومعلوم أن حياة الناس في عصر الدولة العباسية منذ عهدها الأول قد تحولت ــ وبخاصة في الحواضر والأمصار ــ واختلفت كثيرا عما كانت عليه أيام الدولة الأموية التي سبقتها ، إذ كانت حياة الناس آنذاك مستمدة من تقاليد البيئات العربية القديمة في عوائدها وأعرافها ، وتخففها من رسوم الحضارة وأثقالها ، فقد اعتاد الناس في الزمن الأول الصراحة والمكاشفة ، لا يحول بينهم وبين ذلك حاكم ولا والٍ مهما علا ذكره ، واتسع سلطانه ، ونصوص الأدب القديم كله تشهد بذلك وتؤكده ، فلما كان العصر العباسي الأول بدأ التغيير يعرف طريقه إلى بلاط الخلفاء ومن يحيطون بهم ، ويحاكونهم في وجاهتهم ، وفُرِضَتْ على من يتصل بأهل الرياسة والوجاهة قيود كثيرة لم يكن لهم بها عهد من قبل ، وكان على من يريد أن ينال عطاء المقصودين للنوال أن يراعي تلك القيود ، وإلا حرم وخاب سعيه ، ولكن أبا الطيب كان ثائرا على تلك الرسوم ، رافضا لها ، وقد ذكر المؤرخون لحياة أبي الطيب أنه اشترط أول قدومه على سيف الدولة ألا يقبل الأرض بين يديه ، وألا يكلف بالإنشاد من وقوف كما كان يلتزم الشعراء بل كان ينشده جالسا بين يديه .

ويبدو لي من خلال تأمل وتحليل ما نقم به أبو الطيب على كثيرين من حكام عصره أنه كان ساخطا عليهم لخواء نفوسهم ، وهوان شأنهم ، ولو أن أحوال ممالكم كانت على وفق ما ينبغي أن يكون لهان الخطب ، ولتحمل الشاعر وأضرابه أثقال تلك الرسوم ، وهونوا من أمرها ، أمَا وقد صارت تلك الهالات التي أحاط بها الحكام أنفسهم خالية من المضمون ، قائمة على ادعاء زائف ، وتكلُّف بغيض فلا غرو أن ينكرها أبو الطيب عليهم ، بل ويحتقرهم ، ويربأ بنفسه أن يسخر موهبته وفَنَّه لأناس لا يستحقون إلا أن يذموا بكل لسان ، وتروى مخازيهم ، وتكشف معايبهم ، ويُعرَّوْن مما أحاطوا أنفسهم به من زيف فارغ ، وألقاب جوفاء ، ونعوت لا تثبت عند التحقيق ؛ إذ كانت دولة الخلافة في عصر أبي الطيب قد اهترأت وتقطعت أوصالها ، ووثب على سدة الحكم في معظم أرجائها طغام من المماليك والخدم ، أصبحت بيدهم مقاليد الأمور ، وكان أكثر سخط أبي الطيب على أمثال هؤلاء ، وكان حبه وفرائد شعره لسيف الدولة الذي كانت أخلاقه وسجاياه مما يعشقه الشاعر ويتعلق به ، ويود أن يكون متحققا في كل أقطار دولة الخلافة وعلى امتداد أرجائها ومناحيها .

* * *

هذا . وقد آثرت أن تكون دراستي عن الشعر الوجداني عند المتنبي دراسة غير نمطية ، إذ إنني لا أريد لها أن تكون تكرارا لما كتب عن الشاعر وأسفاره وأحداث حياته ، وصلاته بمعاصريه ، ومَنْ مدحهم وأثنى عليهم ، أو من هجاهم وشهَّر بهم ، مما هو مشهور متقر في الأذهان ، بل جعلت دراستي منصبة على الشعر الوجداني ، تحليلا واستنباطا وتذوقا ،

واستجلاءً للملامح المميزة التي تفرد بها أبو الطيب وكانت علامة بارزة على شخصيته ، وميسما مميزا لفنه ، وهدفا منشودا عاش يناضل في سبيله ... ، وهي أمور عظيمة الخطر في تاريخ هذا الشاعر ، وتقويم شاعريته ، بل وتصحيح ما أشيع عنه من أفكار خاطئة ، واتهامات ظالمة ، وتسرُّع في الحكم ينبغي أن يصوب ، وتشويه لشاعرية أبي الطيب نربأ بالقراء والدارسين أن يروج عندهم أو يعتَدُّوا به .

من هذا المنطلق آثرت أن أعقب هذه المقدمة بتمهيد ألخص فيه أحوال العصر الذي عاشه أبو الطيب وأحداثه وأصداء تلك الأحداث في وجدانياته ثم عرضت بعد ذلك في فصل مستقل أبرز معالجاته الوجدانية مأخوذة من سياقات شعره ، وقد بلغت نيفا وثلاثين موضعاً أو قصيدة ، يستقل كل سياق منها بتحليل يشير إلى مناسبة النص ، والغرض الذي يعالجه ، وما ينطوي عليه من الشعر الذاتي ، تمهيداً لاستعراض دلالات هذه النوعية من شعر الرجُل ، وتأمل ملامحها الفنية ، وخواصها الأسلوبية ، وصدَّرت كل سياق منها ببيت أو بيتين من أبرز ما حواه ذلك النص ، فجاء كأنه عنوان له ، يُعرّف به ، ويلمح إلى قصته أو سياقه ، أتبعتها بفصل عن دلالات الشعر الوجداني عند المتنبي ، ثم كان الفصل الثالث مختصاً باستعراض أبرزجماليات العبير شكلا ومضموناً ، وأخيرا ختمت الدراسة بفصل عن شعر أبي الطيب وشاعريته من خلال رؤى النقاد .

وقد اجتهدت في عمل تصنيف للشعر الوجداني عند المتنبي من حيث موضوعاته أو المراحل العُمْرية التي مرَّ بها الشاعر وكان لها تأثيرها ، ولكني وجدت في نهاية المطاف أن هذا التصنيف سيكون سببا في التكرار

وإعادة الحديث عن الظاهرة الواحدة مرات عديدة تبعا لتعبير الشاعر عنها كما لاحظت في دراسة سابقة لي عن الاستعلاء في شعر المتنبي أن النزعة المتعالية موجودة في شعره منذ عهد الصبا ومتصلة حتى آخر حياته ومراعاة لذلك آثرت أن يكون تناولي لشعر المتنبي مسايرا للترتيب القديم لديوانه كما ورد في الشروح القديمة ، لدى العكبري والبرقوقي وغيرهما . وجعلت الدراسة في الفصول الأربعة الموضحة فيما تقدم منصبَّة على الشعر ذي الطابع الوجداني خاصة رغبة في الإيجاز ، وتجنبا للإطالة .

والله من وراء القصد ومنه العون والسداد .

المؤلف .

الإسكندرية ـ ذو القعدة ١٤٢٠ هـ .

فبراير ٢٠٠٠ م .

تَمْهِيد

تعد الحقبة التي عاشها أبو الطيب في النصف الأول من القرن الرابع الهجري من أشد فترات التاريخ الإسلامي حُلْكَةً ، وأكثرها بؤساً ، وأدعاها للشعور بالسخط والإحباط لدى كل غيور على مكانة دولة الخلافة الإسلامية وسمعتها ؛ إذ قدّر على شاعرنا أن يشهد " زحمات الحوادث ، وتقلب السياسة ، وتفرّق الأمصار والشعوب " (١)

لقد شهدت تلك الأعوام الأولى من مطلع القرن الرابع الهجري فتنا تدع الحليم حيران ، ولا مراء في أن أيَّ إنسان غيورٍ عايش تلك الأوضاع وسمع عما كان يحدث في عاصمة دولة الخلافة العباسية من مكائد ودسائس ، وصراعات وحروب وعصابات خارجة على سلطان الدولة ، وانتهاب لثروات الناس ومقدراتهم ، وهوان الخلفاء ، وضياع هيبتهم ، وتردي أحوال الدولة ، وتداعي الأعداء الطامعين فيها في الداخل والخارج وشيوع المظالم ، وسيادة أسلوب الغاب ، وافتقاد الأمن ، وتردّي الأمور على جهة العموم ــ أقول إن أي إنسان من أوساط الناس يعايش هذه الأحداث ، ويصطلي بنيرانها كفيلٌ بأن يستشعر أقصى درجات السخط والمرارة ، وأن ينقم على الأوضاع ، ويتطلع في لهفة للخلاص من ويلاتها فإذا كان الإنسان المعايش لتلك الأحداث على النحو الذي وصفنا شاعراً مرهف الحس ، ماجداً عظيم الهمة ، عالي النفس ، عزوفا عن الصغائر والسفاسف ــ مثل أبي الطيب المتنبي ـ ممتلكا لناصية البيان ، ذا موهبة شعرية فذّة ومقدرة تعبيرية خلاقة ... ، إذا كان هناك إنسان مثل أبي

---

(١) المتنبي . زكيُ المحاسني /٥ .

الطيب يعايش ما وصفنا ، ويكابد وقع تلك الأحداث فلا ريب أن يكون له منها موقف مذكور ، وتصرف حيالها يسجله التاريخ ، وهكذا فعل أبو الطيب ، وما كان له أن يحيد عن صُنْع ما صنع !! .

لقد جأر شاعرنا بالشكوى من أوضاع عصره ، وأحوال معاصريه ، وعانى منها أبلغ معاناة ، وسجل سخطه ومعاناته في شعره ، فجاء شعره كما ألمحت في تقديمي لهذا الكتاب أقوى إدانة لعصره ... ، وإن إطلالة سريعة على بعض ما دوّنه المؤرخون المشهورون لأحوال ذلك العصر كفيلة بأن تقنع القارىء بمبلغ ما يمكن أن تتركه تلك الوقائع والأحداث في نفسية رجل كأبي الطيب ، ومن ثم تحدث أثرها العميق في شعره عامة ، وفي وجدانياته على جهة الخصوص .

* * *

شهدت خلافة بني العباس أوج قوتها ، وعنفوان شبابها ، في عهدها الأول الذي امتدّ نحو قرن من الزمان وعرف لدى المؤرخين بالعصر العباسي الأول ، إلا أن الشيخوخة داهمتها مبكراً ، وطال عهدها بعدُ بأرذل العمر ، حتى غدت عبرة للمعتبرين !! ولقد اختلفت اجتهادات المؤرخين حول بداية النهاية بالنسبة لدولة بني العباس بيد أن المرجح أن تلك البداية أو النهاية ـ إن شئت ـ ارتبطت بتداعيات الصراع العرقي بين أجناس الدولة ، وقدرة الخليفة على الإمساك بزمام الأمور ؛ إذ لم يكن تحريك العصبيات بِدْعاً في سياسة حكام دولة الخلافة الإسلامية قبل بني العباس ؛ فلقد أفاد خلفاء بني أمية كما هو معلوم من العصبيات القبلية ، ووجهوا طاقاتها لصالح دولتهم ، ولكنهم حذقوا ذلك ووظفوه لما فيه صالح الخلافة توظيفا متقنا ، فلما جاء العباسيون أفادوا أولا من قوة العنصر الفارسي

الذي قامت خلافتهم على كواهل رجالاته ، ومن ثم كان الوزراء والقادة وولاة الأقاليم ، وكبار الكتاب ... ـ من الفرس ، ولكن نفوذ الخلفاء كان من القوة بحيث لم يكن بمقدور أيٍّ من هؤلاء أن يستأثر بالسلطان ، وواقعة نكبة البرامكة التي نفذها الرشيد أقوى دليل على ذلك ، كما كانت للعنصر العربي مساحة من التواجد على الساحة السياسية فأحدثت توازناً كان مطلوباً ومؤثراً ، فلما كان عهد المعتصم بن الرشيد وتقديمه للأتراك على حساب الفرس والعرب جميعا ، وما اتصف به هؤلاء الترك من غلظة وجفاء طبع ، وسوء سيرة ... ـ وقع في بنيان الدولة خلل خطير ، نستطيع أن نعده أول مِعْول هدم يسلط على كيان الدولة العباسية ، ثم تداعت بعد ذلك المؤثرات التي دفت بالأمور لتبلغ ما بلغت ، ومن ثم يستشري الوهن ، ويستفحل الداء ، ويفاجأ المراقب بظهور الشيخوخة المبكرة التي نوهنا بها آنفا !! .. ، حدث ذلك فيما يتصل بالنفوذ السياسي المؤثر في شئون الدولة إذ غدا ذلك النفوذ ـ كما هو مشهور متعارف ، وكما نبين لاحقا ـ بأيدي الحجاب والمماليك الأتراك المتسلطين على مقدَّرات الخلافة ، حتى صار الخليفة مغلوبا على الأمر ، مرغما على إنفاذ ما تشير به الحاشية وذوي النفوذ من سكان قصر الخلافة من النساء والجواري ومن على تلك الشاكلة.

عاش أبو الطيب كما بينا حقبة مضطربة من أكثر من جانب :

أ) مضطربة سياسيا . وقد تمثل ذلك بوضوح في كثرة عدد من تولى الخلافة في حياة أبي الطيب ، ففي نحو نصف قرن تعاقب على سدة الحكم ستة خلفاء ، وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على تردي أحوال الخلافة ، واحتدام الصراع حول كرسيها ، الذي لم يعد للقابع عليه في تلك الآونة سلطان يذكر ، ولا أمر يطاع ، ولا عزة للمسلمين يحرص عامتهم عليها ،

فالخلفاء بصفة عامة مسلوبو الإرادة ، مغلوبون على الأمر ، غارقون في الملذّات والمتع الدنيئة ، في حين كانت أحوال السواد الأعظم من الرعية في الحضيض ، وفي مثل تلك الأحوال كثيراً ما تُهْتَضم الحقوق ، وتقترف الآثام ، وتنتهك الحرمات ، ومن ثم لا يستغرب المراقب للأحداث أن تغلي النفوس بالثورة على تلك الأحوال ، ويكترب المخلصون من أبناء الأمة ، ويضيقوا ذرعاً بزمانهم بمن فيه وما فيه ، وكان من أعلى تلك الأصوات الساخطة ، وأشدها وقعا صوت شاعرنا المتنبي .

= خضعت دولة الخلافة في حاضرة الدولة وفي أقطارها الممتدة امتدادا شاسعا لسلطان الأعاجم ، وكان وثوب كثير من هؤلاء على الحكم ، وتصريفهم لشئون الولايات التي استقلوا بها قائما على صراعات ومنافسات فيما بينهم ، مع ولاء شكلي للخليفة العباسي ، وهذا الوضع أضعف كيان الدولة ، واستنفد قدرا كبيرا من قوتها ، وأطمع فيها أعداءها ، وانعكس ذلك كله على مشاعر الناس ، فاستشعروا الخطر ، وعانوا الإحباط والضياع .

= ترتب على المظهرين السابق ذكرهما شيوع الثورات الداخلية ، وكثرة الأدعياء الطامعين في تحقيق مكانة أو شهرة أوثروة في غياب سلطان قوي يضم شتات هذه الدويلات المتصارعة فيما بينها ، فكانت ثورة الزنج والقرامطة ، وظهور أصحاب الدعاوى المنحرفة من غلاة المتصوفة كالحلاج وغيره .

* * *

وُلِد أبو الطيب في خلافة المقتدر بالله جعفر بن المعتضد الذي ولي الخلافة سنة ٢٩٥ هـ ، وقد اضطربت الأمور في عصر المقتدر هذا أسوأ اضطراب ، وحسبنا أن نشير إلى بعض ملامح ذلك التردي مما رواه

المؤرخون لهذا العصر ، يذكر السيوطي في حوادث عام ستٍ وثلاثمائة ما نصه : " .. وفيها صار الأمر والنهي لحرم الخليفة ولنسائه لركاكته ، وآل الأمر إلى أن أمَرتْ أمُّ المقتدر بـ " مثل " القهرمانة أن تجلس للمظالم ، وتنظر في رقاع الناس كل جمعة ... ، وفي سنة خمس عشرة دخلت الروم دمياط ، وأخذوا ما فيها ومن فيها ، وضربوا الناقوس في جامعها !! .. ، وفي سنة ست عشرة بنى القرمطي داراً سماها " دار الهجرة " ، وكان في هذه السنين قد كثر فساده ، وأَخْذَه البلاد ، وفتكه بالمسلمين ، واشتدَّ الخطب به ، وتمكنت هيبته في القلوب ، وكثر أتباعه ، وبثَّ السرايا ، وتزلزل له الخليفة ، وهزم جيش المقتدر غير مرة ، وانقطع الحج في هذه السنين خوفا من القرامطة ، ونزح أهل مكة عنها ... " (١) ، وفي السنة ٣١٧ هـ أيضا خرج مؤنس الخادم على الخليفة ، ونهب بعض ما في قصره من أموال وأرغمه على أن يخلع نفسه ، وأشهد على ذلك وأتى بأخيه محمد بن المعتضد وبايعه بالخلافة هو ومن معه من الأمراء ، ولم يدم ذلك سوى يومين حتى أعاد الجند الخلافة للمقتدر ، وبذل لهم رواتبهم ، وضمن بذلك ولاءهم ، وفي السنة نفسها هاجم أبو طاهر القرمطي الحُجَّاج يوم التروية ، وقتل منهم عددا كبيرا في المسجد الحرام ، وطرح القتلى في بئر زمزم ، وانتزع الحجر الأسود من موضعه ، وارتحل به ، وبقي الحجر عند القرامطة أكثر من عشرين سنة ، وكان المقتدر كما يذكر السيوطي مشغولا بنزواته وشهواته ، مبذراً متلافا ، أسلم زمام نفسه لنسائه وإمائه ، وأنفق عليهم نفائس دار الخلافة وكنوزها . ثم كانت نهايته على يد

---

(١) تاريخ الخلفاء / ٣٨١ وما بعدها .

مؤنس الخادم سنة عشرين ، عندما حشد له جنده من البربر ، فأوقع به ، وتولى الخلافة من بعده أخوه محمد بن المعتضد الملقب بـ " القاهر بالله " الذي لم يكن أحسن حالا من سلفه ؛ إذ كان كما يحكي السيوطي عن بعض رواته : " .. أهوج ، سفاكاً للدماء ، قبيح السيرة ، كثير التلون والاستحالة مدمن الخمر " (١) . في سنة إحدى وعشرين ثار عليه الجند ، واتفق مؤنس وابن مقلة على خلعه ، فاحتال عليهم ، إلى أن ظفر بمؤنس وجماعة من خصومه فذبحهم ، وهرب ابن مقلة ، وظل يؤلب عليه الجند ، ويحيك له الدسائس حتى أوقع به وتم خلعه وسملت عينه في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، وهو الذي وقف يوما بعد ذلك بسنوات في المسجد الجامع يقول للناس : " تصدقوا عليَّ " ؛ ليشنع على القائمين على أمر الخلافة ، فلما عُلِم ذلك من أمره مُنِع من الخروج حتى توفي ، وأتى بعده الراضي بالله وفي السنة التى ولي فيها الخلافة وهي سنة ٣٢٢ هـ تعطل الخروج للحج من بغداد خوفا من فتك القرامطة ، وامتد ذلك حتى سنة ٣٢٧ هـ وفي سَنة ٣٢٤ هـ تغلب بن رائق أمير واسط على مقاليد الخلافة ، ولم يعد لأحد من الوزراء أو المسئولين عن الدواوين معه كلمة ، وغدت الجباية تحمل إليه ، وأصبح الخليفة الراضي مغلوبا على أمره وليس له من الخلافة إلا الاسم ... ، وفي سنة ٣٢٥ هـ اضطربت أمور الخلافة أيما اضطراب ، وفي سنة ٣٢٧ هـ تم الاتفاق مع متزعم القرامطة على أن يؤدي الحاج مكساً حتى يُؤَمَّن في رحلته ، وكان يُؤَدَّى عن كل جمل خمسة دنانير (٢) .

---

(١) تاريخ الخلفاء / ٣٨٨ .   (٢) المرجع / ٣٩٢ .

هذه إطلالة سريعة على بعض أحداث عصر أبي الطيب المتنبي ، آثرت أن أستحضرها في هذا التمهيد علّها تفسر بعض مواقفه ، وتعلل لثورته ونقمته على عصره ومعاصريه ، وتجيب على بعض التساؤلات التي تثيرها مواقفه في الأذهان ؛ لغرابتها وشذوذها . ويمكننا أن نلخص أسباب عدم تواؤم أبي الطيب مع أحداث عصره ، وأحوال أولي الأمر والنهي فيه للبواعث التالية :

١) لم يكن المتنبي ـ بحكم طبعه الذي نشأ عليه ـ سلبيا أو خاملا أو منقادا لما يلقى إليه من آراء الآخرين أو ادعاءاتهم ، بل كان صاحب رأي صائب وفكر نابه ، واعتداد بالذات لا يسمح لصاحبه أن يمالىء أو يداهن ... ، ومن ثم لم يستطع أن يغفل الأحداث التي ازدحم بها عصره ، والفواجع التي منيت بها دولة الخلافة ، واضطرته كما اضطرت غيره إلى أن يرحل تاركا موطنه ؛ لافتقاد الأمن ، وشيوع الفتن ـــ لم يكن بمقدوره أن تمر هذه الحوادث والخطوب عليه دون أن تحرك ساكنا ، أو تترك أثراً ؟! فلم يكن أبو الطيب ممن تشغلهم توافه الأمور ، أو يمكن أن يكون سلبيا " لا مباليا " ، ولو كان ذلك من طبعه وديدنه ما كان له هذا الذكر ، ولا سمع به أحد ، لم يستطع المتنبي ـ إذاً ـ أن يغفل تلك الحوادث ، ولا سوّغها وجدانه ولم يعش في أي مرحلة من مراحل حياته بعيدا عن الأحداث التي تلاطمت بها الدنيا من حوله .

٢) كان أبو الطيب ـ كما أكّدْتُ غير مرة ـــ رجلا عظيم النفس ، سامي الهمة ، غيوراً على عروبته وإسلامه ، متطلعا لتحقيق الذات ، وبلوغ الآمال الكبار .. ، فلا غرابة أن تنزل هذه الأحداث التي عايشها ، وعانى ويلاتها وآثارها على نفسه وقلبه نزول الصاعقة ، وتترك في وجدانه

جروحاً لا تندمل ، وقنوطاً لا يزول ولا يحول ، ومن ثم حددت له منزعاً سلكه في حياته ، وأسلوبا ارتضاه لنفسه ، كان من أهم ملامحه : احتقار الوضعاء ، والترفع عن الدنايا ، والتمسك بأهداب الفضيلة ، ولقد كانت الرذائل والقبائح التي غرق فيها الموسرون وأرباب السلطة في عصر أبي الطيب تتمثل في الولوع باللذائذ المادية الرخيصة ، من التهتك والشراب ، والتهافت على اقتناء الجواري والغلمان ، والإغراق في الشهوات دون رادع أو وازع ، وعدم التورع عن الظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل ...، استشرى ذلك كله وتمكن من السواد الأعظم من وجهاء ذلك الزمان ، وأولي الأمر والنهي ، في الوقت الذي كانت الأحداث المحيطة بهم تتطلب أقصى ما يمكن من الجد والتشمير ونكران الذات ، واستشعار الخطر ، وتقدير المسئولية ... ، بيد أن شيئا من ذلك لم يخطر للكثيرين منهم على بال ، ولا سمت له نفس ، ولا داعب جفون أحد !!.

٣) كان نزوع أبي الطيب في مسلك حياته العملية على النقيض مما غُرق فيه معايشوه المحيطون به ، فما عرف عنه ميل للشهوات الفارغة ، ولا توق للنساء ، ولا ولوع بالغزل ، ولا حب للشراب ... ، إنه بهذا الوصف لا بد أن يكون مختلفا تمام الاختلاف عن المحيطين به ، ولا بد أن يشعر أنه يعيش في غير زمانه ، ويخالط أقواماً ليسوا على شاكلته ، وحُقَّ له أن يهتف بمثل قوله :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرَّهم وأتيناه على الهرم [1]

أو قوله متعجبا من غرابة مسلكه بين أهل زمانه من القصيدة عينها :

سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم

---

(١) العكبري ٤/ ١٦٣ ، والبرقوقي ٤/ ٢٩٥.

كما حق له أن يسخر من مشهوري عصره بمثل قوله :

ودهر ناسه ناسٌ صغار　　وإن كانت لهم جثث ضخام

بأجسام يحر القتل فيها　　وما أعـداؤهـا إلا الطعـام

وخيل لا يخِرُّ لها طعين　　كأنَّ قَنـا فـوارسهـا ثُـمـام

ما ذا ننتظر من رجل حملت نفسه تلك الإحساسات الرقيقة ، وتطلعت لتلك الأمجاد ، واستوحت مُثُلَها من زمن غير زمنها ، وراهنت على أن " تسبح عكس التيار " ... ، لا مندوحة لمثل ذلك الرجل عن الاصطدام بكثيرين ممن قدر له أن يلقاهم أو يتقلب بين ظهرانيهم في حله وترحاله !!. وبالأخص إذا راعينا أن نتاجه الشعري ، وإبداعاته غير المسبوقة غدت وقوداً للصراع السياسي ؛ إذ فطن لنفاستها وخطرها كثير من الطامحين للمجد السياسي ، واعتدوها مقوما مهما من مقومات الشهرة وذيوع الصيت ونباهة الشأن ، وكان شاعرنا ضنينا بما عنده من تلك النفائس ، مدققا فيمن يمنحهم تلك الإبداعات ، ويخصهم بدرره الغوالي .

* * *

كان أبو الطيب موفقا كل التوفيق عندما وصل حبال ودّه بسيف الدولة الحمداني ، وتربع على عرش النبوغ الشعري في بلاطه ، وكانت تلك هي الخطوة الأولى نحو المجد الأدبي ، كما كان هذا التلاقي عاملا حاسما في نباهة شأن سيف الدولة وتخليد جهوده ، ونقش انتصاراته وبطولاته بقوة ووضوح في سجل التاريخ ، ولم يكن حرص المتنبي على توثيق تلك الصلة مرتبطا بعوامل نفعية وقتية بقدر ما صاحب ذلك من إعجاب حقيقي من الشاعر بالأمير الفارس ، وتقدير لما يتحلى به سيف الدولة من صفات وما يمثله بحسبانه رمزا للفارس النبيل الذي يجري في كيانه الدم العربي

بما يحمله من ذكريات الماضي المجيد ، وبما تعلقت عليه من آمال في نفوس المخلصين من أبناء ذلك العصر ، في وقفه لحملات الروم على الأطراف الشمالية الغربية لدولة الخلافة الإسلامية في تلك الحقبة الشديدة الحلكة ، ودوره في قمع الفتن ، والمعاونة في شد أزر الخليفة العباسي ، ثم بما اشتهر به ذلك الأمير من موهبة شعرية ، وذوق أصيل يعرف دعامات فن العرب الأول ، ويحسن تقديره ، ويعرضه على فهم صحيح ونظر ثاقب ورؤية لماحة ، لا تختلط عليها الأمور ، ولا يخفى على بصرها تقدير النوابغ ، ولا يروج عندها زائف مكذوب ... ، كل هذه البواعث جعلت أبا الطيب حريصا على توثيق عرى صداقته بسيف الدولة ثم هي من الجانب الآخر كانت تمثل قيمة لسيف الدولة حرص على الظفر بها ، وأعطاها من رعايته وتقديره الشيء الكثير ، وتغاضى في سبيل ذلك عن تعاظم الشاعر وتعاليه ، وإدلاله بنفسه وبشعره ، وإقلاله من الشعر ؛ إذ كانت تمر بعض المناسبات دون أن تجود شاعرية أبي الطيب فيها بشيء ... ، ومع ذلك كله احتمل الأمير ما كان يبدو وكأنه صلف من الشاعر وتجاوز للمألوف من أمثاله ، ثم كانت الجفوة والمغاضبة بين سيف الدولة والمتنبي ، والتي اشتط فيها أبو الطيب ، وأطلق لشاعريته العنان في الثورة والتوعد ، والعتاب اللاذع الذي لم يكن يجرؤ عليه أحد ، أو يُسْمَح بمثله لشاعر ، حتى لقد أشفق الكثيرون على أبي الطيب ، وظنوه هالكا لا محالة عندما هدد وتوعد وعاتب وعَرَّض ... ، في قصيدته التي مطلعها :

واحرَّ قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم (١)

(١) العكبري ٣ / ؟ ، والبرقوقي ٤ / ٨٣ .

ولم يشفع لأبي الطيب عند سيف الدولة إلا تقديره لشاعريته ، وحفظه لعهده بما سلفت له عنده من أيادي وإبداعات .

الكرامة أولا :

عندما حدثت الجفوة بين أبي الطيب وأميره المحبب لديه ، ولم يطق الشاعر الأبيُّ صبراً على ما داخله من شعور بالإهانة ، وإنصراف الأمير عنه ... ـ لم يكتف أبو الطيب بأن ينأى بنفسه عن الذُّلّ ، ويتخير لنفسه مكاناً لا يتعرض فيه للتنقص والتنكيد ، بل أصرّ على العناد ، وأراد أن ينتقم لكرامته لما لحقه لدى سيف الدولة من إعراض وإهمال ، وإصاخة لتخرصات الحساد والشانئين ، فرغب أن يكبت هؤلاء جميعا بأن يقصد أميراً مُلكُه أوسع ، وخيره أرجى ؛ وليؤكد للجميع أنه لن يعدم من يقدِر موهبته ، ويَحفظ له قدره ، ولا يتعرض في جواره لمثل ما تعرض له عند سيف الدولة .. ، ويتضح ذلك من مثل قوله (١) بما مدح به كافوراً بعد وفادته عليه في مصر :

وما أنا بالباغي على الحب رشوة   ضعيف هوىً يبغي عليه ثوابُ
وما شئْتُ إلا أن أدلّ عواذلي   على أن رأيي في هواك صوابُ
وأعلِم قوما خالفوني فشرّقوا   وغرّبْتُ أنّي قد ظفرتُ وخابوا

فروح التحدي ، والرغبة في التشفي كانت هي المحرك الذي حفز أبا الطيب على أن يغامر بالرحيل إلى مصر ، ومما يؤكد قصد التحدي وإضمار إغاظة الحساد والكائدين تعريضه اللاذع بقوله في سياق آخر

---

(١) البرقوقي ١/ ٣٢٦.

يعاتب فيه قلبه على تشوقه لبلاد الشام ، وتعلقه بتلك الأيام الخوالي بما حفلت به نباهة ذكر ، وعلو شأن ، وشعور بالارتياح ، واحتفال الناس به ، والتفافهم من حوله ، وهو يعتذر عن تلك الهواجس والتطلعات بما ركز في طبعه من إلف للأماكن والبقاع التي يلم بها حينا من الدهر ، بما فيها ومن فيها ... يقول : (١)

أَقِلَّ اشتياقاً أيها القلب ربما رأيتك تصفي الود من ليس جازيا
خُلِقْتُ ألوفاً لو رحلت إلى الصبا
لفارقتُ شيْبِي موجع القلب باكيا
ولكنَّ بالفسطاط بحراً أزرته حياتي ونُصحي والهوى والقوافيا
وجُرداً مددنا بين آذانها القنا فبتْن خفافا يتَّبعْن العواليا
....
قواصِدَ كافورٍ توارِكَ غيره ومَنْ قصد البحر استقَلَّ السواقيا !!

فأي تعريض آلم من هذا التعريض ؟! وأية تسلية للنفس وعزاء أبرع من هذا التسلي والعزاء ؟! .

ولكن السؤال الذي يتوارد على الخاطر في هذا السياق هو : لِمَ أخفق المتنبي في مسعاه لدى كافور ، ولم ينل لديه ما أمَّل من حظوة ، على الرغم من روعة ما مدحه به من شعر ، وما بذله له من ثناء ؟ الجواب ــ في اجتهادي ــ يكمن في اختلاف طبيعة الرجلين ، وتباين تكوين شخصية

(١) البرقوقي ٤/ ٤٢٠ .

ما ظننت أن الزمان يبلغني حتى تفعل بي أنت هذا ! وكاد يبكي ؛ فقلتُ : أنا صنيعة الأستاذ ووليُّه . فلما بلغتُ باب داره ودَّعَني ؛ فلما سرتُ التفتُّ فإذا بالجنائب والبغال كلها خلفي ، فقلت ما هذا ؟ قالوا : أمر الأستاذ أن يُحمل مركبه كله إليك ، فأدخلته داري ، وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار . وراوي هذه الحكاية مسلم بن عبيد الله المذكور من صالحي الأشراف . " (١)

ولا ريب أن رجلا مثل " كافور " بهذه الطباع ، وعلى هذا القدر من التواضع لن تتوافق ميوله مع المتنبي ، ولن يجد فيه أبو الطيب ما يرضي غروره ، ويحقق بغيته ، لقد أكرم " كافور " وفادة المتنبي وكان ذكيا إذ أدرك مبلغ انتفاعه بقربه ، وبراعة شعره ، وسموق فنه ، أما القرب الذي يحدث نتيجة توافق الطبع ، واتفاق الهوى فلم يوجد بين الرجلين منه شيء ولعله من عجائب المصادفات أن يعجب أبو الطيب في مصر برجل آخر من أرباب السلطان كان منافساً عنيداً لكافورا وهو أبو شجاع " فاتك الروميّ " الذي كان يلقب بالمجنون ، وكان كما يذكر ابن تغري بردي مملوكاً للإخشيد ، اشتراه وأعتقه وحظي عنده " وكان رفيقاً لكافور وهو الأعظم مع طيش وخفة وحبورة ، وكان كافور عاقلا سيوسا ، فكان كلما تزايد أمر كافور وعظم يزيد جنون فاتك وحسده ، فلا يلتفت كافور إليه " (٢) وكان فاتك أكبر مماليك الإخشيد ، وكان فارساً شجاعا ، ولي إمرة دمشق ، " فلما صار كافور مدبر مملكة أبناء الإخشيد وعظم أمره أنف فاتك هذا من المقام بمصر ؛ كيلا يكون كافور أعلى منه رتبة ، فانتقل إلى إقطاعه وهو بلاد الفيوم ، وكان كافور يخافه ويكرهه ، فلم يصح مزاج فاتك بالفيوم

(١) ج ٤ / ص ٣ ، ٤ . (٢) النجوم الزاهرة ٤/٥ .

كل منهما ؛ إذ كان المتنبي كما اتضح لنا متعاليا شديد الاعتداد بنفسه ، لا يكاد يعترف لأحدٍ بتميز ، أو يرى لنفسه نظيراً ، وهو القائل مصورا نفسه

ونفس لا تجيب إلى خسيس وعين لا تُدار على نظير

والقائل أيضا :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما

وكافور كان ـ كما يذكر المؤرخون ـ على النقيض من ذلك ، إذ عرف عنه شدة التواضع ، ونكران الذات . وأكتفي في هذا المقام بإيراد خبرين يؤكد كل منهما ذلك : أولّهما ورد عرضا في ثنايا حديث " آدم متز " في كتاب " تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري " ففي أحد مباحث ذلك الكتاب (١) وتحت عنوان (الأمراء) قال :

" بهذا الاسم كان يُسمَّى ولاة البلاد ــ وكذلك أبناء بيت الخلافة ــ إلا كافوراً بمصر ، فإنه امتنع من التسمي بالإمارة ، ورأى تواضعا أن يجري على رسمه في المخاطبة بالأستاذية "

وأما الخبر الآخر فقد ورد في ثنايا الحديث عن " كافور الإخشيدي " في النجوم الزاهرة ، إذ أورد حكاية عن مسلم بن طاهر النسابة قال :

" ما رأيت أكرم من كافور ! كنتُ أسايره يوما وهو في موكب خفيف يريد التنزه وبين يديه عدة جنائب (٢) بمراكب ذهبٍ وفضة وخلفه بغال المراكب فسقطت مقرعته من يده ولم يرها ركابيته ، فنزلت عن دابتي وأخذتها من الأرض ودفعتها إليه ، فقال : أيها الشريف . أعوذ بالله من بلوغ الغاية ،

---

(١) ٢٧/١ . (٢) الجنائب : الخيل تساق لتركب بديلا عن بعضها البعض .

ومرض وعاد إلى مصر ومات بها . وكان فاتك كريما جواداً ، ولما قدم المتنبي إلى مصر سمع بعظمة فاتك وتكرُّمه ، فلم يجسر أن يمدحه خوفا من كافور ، وكان فاتك يراسله بالسلام ويسأل عنه ، فاتفق اجتماعهما يوما بالصحراء ، وجرت بينهما مفاوضات ، فلما رجع فاتك إلى داره بعث إلى المتنبي هدية قيمتها ألف دينار ، ثم أتبعها بهدايا أُخَر . فاستأذن المتنبي كافوراً في مدحه فمدحه بقصيدته التي أوّلها :

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

ولما مات فاتك رثاه المتنبي أيضا " (١)

ولعلنا نستطيع أن نتصور على ضوء هذين الخبرين مبلغ ما كان بين شخصيتي كافور والمتنبي من افتراق ومن ثم مدى ما بين ميول كل منهما من التقاء وتواصل ؛ ولذا لاحظنا من ثنايا الخبر الأخير تلاقي طباع كل من المتنبي وأبي شجاع فاتك ، وهناك من المؤرخين من أشار إلى أن توجس كافور من المتنبي واضطغانه عليه كان بسبب ما ظهر منه من ميل لفاتك وتعاطف معه وإعجاب به ، تمثل فيما قاله له من شعر مدحا له في حياته ، ورثاءً وبكاءً له بعد موته !! .

وقد عقد الأستاذ عبد الله الطيب في دراسة له عنوانها " مع أبي الطيب (٢) " مبحثاً بسط فيه القول في أسباب ضيق المتنبي بمقامه في مصر مع أنه وجد بها الدعة والأمن ، ولم يكن في بلاط كافور أصحاب نبال يرسلونها في غلس الظلام كغلمان أبي العشائر ، ولا مفاتيح يشجون

(١) المرجع السابق ٣ / ٢٤٩ .   (٢) مع أبي الطيب / ٨٣ وما بعدها .

بها الرءوس في المجالس ، ولكن من مـلأ مصر أهل سياسة ودماثـة طبـاع ولطف كياسة ، وظرف ثياب ومجالس وحديث ؟! ويخلص الأسـتاذ الطيـب إلى أن حبال الكيد اتصلت بين حلـب ومصـر عن طريـق العميـدي وابـن حنزابة وزير كافور ، ويرجح أن كافوراً لـم يعـد المتنبـي ولايـة كمـا أشـيع ولكن المحيطين به هم الذين زينوا ذلك للمتنبي ، وأبلغوه هذا الوعد ، وهـم الذيـن خوفـوا كـافورا مـن تطلـع المتنبـي ، ووضعـوا عليــه المقولــة التــي يزعمون أنه اعتذر فيها عن تحقيق رغبة المتنبي في الولاية بسـبب طمـوح المتنبي ، وقوله لهم : يا قوم من ادَّعى النبـوة بعـد محمـد صلـى اللـه عليـه وسلم أما يدعي المملكة مع كافور " ؟!

وهكذا قُضِيَ على أبي الطيـب أن تجرفـه تيـارات السياسـة ، ويعـاني بسبب صلاته بوجهاء عصره ومشـاهيرهم ، وتضطـرب أحوالـه ، ويتقلـب علــى جمــر الغضــى ، باختيــاره وإرادتــه حينــا ، وبتداعيــات الأحــداث والأشخاص الذين اتصـل بهـم حينـا آخـر ، كمـا تلونـت علاقاتـه بممدوحيـه ومخالطيه فتركت بصماتها في وجدانه ، وآثارها على شعره وبيانه .

* * *

عبَّر شعر أبي الطيب المتنبي عن الحقبة التـي عاشـها شـاعرنا أبـرع تصوير ، ورسم صورة عميقة ومؤثرة لأحـوال ذلـك العصـر وتناقضاتـه ، لقد صادفتني وأنا أتتبع أخبار أبي الطيب وأتأمل دقائقها وتفصيلاتهـا عبـارة حُكيت عن ابن العميد عندما سئل عن رأيـه فـي تعليـل شـهرة أبـي الطيـب

واشتغال النـاس بشعره فقال معللا ذلك (١) : " إنّ أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس " !! . وهي عبارة أرسلها ناقد بصير ، وقد وفق فيها لتقويم شعر أبي الطيب والنفاذ إلى سر ما فيه من سحر وجاذبية ، واستيلاء على الفهوم والقلوب ، ونفاذ إلى أعماق المتلقي ، وقديما قال الشاعر :

وإن أحسن بيت أنت قائله بيتٌ يقال إذا أنشدته صدقا

ولقد كان كثير من شعر أبي الطيب في وصف أحداث عصره وأحوال معاصريه من ذلك النوع من الشعر الذي يقال لمبدعه عند إنتاجه : صدقت ! . وأجدتَ ! وأفدت ! ... ؛ وأنه لم يكن يعبر عن خواطر ذاتية محضة ، أو يعكف على عالمه الوجداني الخاص ، بل كان يتمثل ما يجول بخواطر أهل زمانه ، ومن يعايشهم من المطحونين والمظلومين ، والمتطلعين إلى أن تستعيد دولة الخلافة الإسلامية مجدها الغابر ، وعزها المستباح !! . ومن ثم كان شعر المتنبي إدانة قوية لتردي الأوضاع وارتكاس القيم ، وتفشي الظلم ، وافتقاد المثل التي قررها العقلاء ، ودعا إليها أهل الفضل ، واعتدها أهل المروءة نبراساً يلتفون من حوله ، ومعلما على طريق الحق والفضيلة ؛ لقد عايش أبو الطيب ذروة اختلال المعايير ، وسيادة شريعة الغاب ، وتوزع السلطان السياسي في دولة الخلافة بين قوى عديدة ، وسادت الفوضى ، حتى غدا كل من يستشعر من نفسه قوة أو من غريمه غفلة تحدثه نفسه بالوثوب ، وتغريه بالمغامرة ؛ لذا كثر كما رأينا الخارجون على السلطان ، والخالعون ربقة الطاعة ، كابن رائق ومؤنس

---

(١) المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين نقلا عن كتاب الجبوري (أبو الطيب في آثار الدارسين) .

الخادم ، ثم القرامطة الذين عاثوا في الأرض فساداً ، وهاجموا أمصار العراق وحواضره ، كما هاجموا حواضر الحجاز وذكر بعض من تحدثوا عن حياة المتنبي ورحلاته أنه اضطر إلى الرحيل عن الكوفة عندما دهمتها غارات القرامطة ، بل لم يسلم شاعرنا من الاتهام بالقرمطية ؛ نظراً لدعوته الثائرة ، وإلحاحه على حمل السيف وسفك الدماء إحقاقاً للحق ، وتخليصا للمجتمع من الفساد .

ولعل اشتهار المتنبي بهذا النمط من الشعر الذي يخوض غمار الواقع ويعايش أحداث العصر ، ويدلي قائله برأيه في مشكلات عديدة ، وأوضاع شتى ، في جرأة وموضوعية ، ويشخص أدواء الأمة ، ويلتمس لكل علة من عللها الدواء الناجع ، والبلسم الشافي ... ـ كل هذه المعاني التي أحاطت بشعر المتنبي وطبيعة شاعريته نتجت عنها عدة مظاهر يحسن أن نثبتها بإيجاز هنا في هذا السياق ، ومن أهمها :

أ) أن الجمهور الذي عشق شعر أبي الطيب على الرغم من الاختلاف الجوهري بينه وبين أشعار سابقيه ، نظر إلى الشاعر على أنه داعية تحرر أو ثائر مصلح ، ولعل نبزه بلقب المتنبي واشتهاره بذلك النبز كان قائما على تقدير هذه النزعة في شعره ، وغرابة ما يطالب به ، وما يخالف فيه أهل عصره ، ورموز مجتمعه .

ب) عاش المتنبي قلقا مضطهدا بسبب نزعتة التحررية وكشفه كثيراً من مظاهر الزيف والتردي في عصره وأهل عصره ، وكانت طبيعته الثائرة الرافضة للتعايش مع ما استشرى في عصره من فساد وطغيان تدفعه إلى ألا يُسَوِّغ ظلما ، أو يشارك في جريرة مما غرق فيه أهل زمانه .

ج) حاول كثيرون من وجهاء عصر أبي الطيب أن يخطبوا وده ، أو يشتروا لسانه ، أو يستحوذوا على شعره ، وألحوا عليه كي ينزل بهم مادحاً مقرظاً ؛ ليأمنوا هجاءه وتشهيره ونقده اللاذع من جانب ؛ وليكسبوا شهرة وذيوع صوت من الجانب الآخر .. ، وكان المتنبي من منطلق صدوره فيما يقول من شعر عن قناعة بما يقول ، وصدق فيما يصف ـ كان يتأبَّى على أمثال هؤلاء المزيفين ، ويربأ بنفسه عن أن ينزل بهم ، أو يعيرهم اهتماماً وقد سلط عليه هؤلاء الموتورون أبواقهم ، وشنوا على الرجل وشعره أقسى حملة عرفها تاريخ نقد الشعر عند العرب رغبة منهم في تحطيم هذا الشاعر العنيد ، والثائر الذي يؤلب عليهم الناس .

د) عاش المتنبي ثائراً لا يعرف الهدوء ولا المهادنة ؛ لذلك عانى في حياته الاضطهاد والتشرد ، بل غدا بعد ذيوع شأنه ، واشتهار أمره ــ شخصية مرموقة يُخْشَى بأسُها ، ويُتَوجَّس منها شرًّا ، ولم يكن تمسك كافور الإخشيدي به ، والحيلولة بينه وبين الرحيل عن مصر ، ثم اضطرار شاعرنا إلى الاحتيال للهروب من مصر متخفيا .. ــ لم يكن ذلك كله إلا تأكيداً بأن المتنبي قد بلغ به الأمر أن عومل بمثل ما يعامل به رجل السياسة ذو الخطر ، الذي يخشى بأسه ، وتحصى عليه أنفاسه ، ولم ينظر إليه بحسبانه شاعراً !! . ولم يعرف تاريخ الشعر العربي شاعراً زُجَّ به في لجج السياسة كما حدث لأبي الطيب ، كما لم يشهد بلاط سيف الدولة ولا بلاط كافور معاملة كهذه لشاعر غير أبي الطيب ، كما لم يعرف تاريخ الشعر العربي شاعراً خطب ودَّه الممدوحون ، واشرأبَّ لقوله ذوو السلطان والشاعر يتمنع عليهم ويتدلل ، يزجر بعضهم حينا ، ويسخر من بعضهم

حينا آخر ، ويتلطف في التنصل من الاتصال ببعضهم الآخر في كثير من الأحيان .

وهكذا يتبين لنا أن معاصري أبي الطيب فهموا طبيعة شعره ، وخطر إبداعه ، فوضعوه في موضعه الصحيح ، وخفي هذا الأمر على كثيرين ممن درسوا شعره فسلطوا عليه سهام النقد والتجريح ، ولم يعوا تلك الحقائق ، فظلموا أبا الطيب ، وألصقوا به ما هو منه براءٌ .

أصداء العصر في وجدانيات أبي الطيب :

تمثلت في شعر أبي الطيب عامة ووجدانياته خاصة أحداث عصره ، وأحوال مجتمعه ، وانعكست على صفحة إبداعاته انطباعاته عن الأحداث التي تدور من حوله ، سواء أكان راضيا عنها مشيداً بها ، أم ساخطاً عليها زاريا بها وبمن يفعلونها ، أو يتحملون تبعاتها .

لقد كان من أبرز ما عايش به أبو الطيب أحداث عصره وأحوال زمانه شكوى الزمان ، والتنديد بالعصر الذي عاش أحداثه ووقائعه ، وكانت شكواه ــ بطبيعة الحال ــ مقصوداً بها أحداثالعصر وناسه ، والتحسر على ضياع المروءة ، وغيض الوفاء ، وانزواء كل صفات النبل وعلو أرباب الأخلاق الذميمة ، والصفات المرذولة ، ولا نبالغ إذا أكّدنا أننا لا نعلم شاعراً من شعراء العربية عبر عن تلك المعانى ، وعرضها في معارض تصويرية شتى كما فعل أبو الطيب . في مثل قوله :

فُؤادٌ ما تسلّيه المُدام   وعُمْر مثل ما تهب اللئام

ودهر ناسه ناسٌ صغار   وإن كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكنْ معْدن الذّهب الرَّغام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
بأجسامٍ يَحَرُّ القتل فيها وما أعداؤها إلا الطّعام
وخيلٍ لا يَخِرُّ لها طعينٌ كأنَّ قَنا فَوارسها ثُمام

وسيأتي هذا النص في سياقه ، وهو يؤكد إدانة المتنبي للعصر الذي عاش فيه ، وعانى سلبياته ونقائصه ، إنه لا يجد في حياته مسلاة تسري عنه ، ولا أملا يداعب خياله ، ولا في عمره شيئا أمّله ورجاه قد تحقق ، أو يوجد أمل في تحققه ، بل تضيع أيامه سُدى ، وهو عصر ساد فيه الصغار ، وتصدّر المتطفلون ، وارتقى الوضعاء ، الذين لهم رواء ومظهر وليس لهم غناء عندما يختبرون ، والشاعر في أسى بالغ ، وحزن مقيم ؛ إذ يرى نفسه موجوداً بين أمثال هؤلاء ، ولكن ما حيلته في ذلك ، إنه ليعتذر عن تلك المعايشة التي لا مبرر لها بأن حاله مع أهل عصره كحال الذهب الذي يستصفى دائما من بين التراب ، وأهل هذا الدهر الذي يعنيهم أبو الطيب هم وجهاؤه وأرباب السلطان فيه وهم في تقدير شاعرنا أرانب على الحقيقة على الرغم من أنهم ينعتون بنعوت الملوك ويتزيون بأزيائهم ....، ويستطرد أبو الطيب في تصويره الساخر فيرى لهؤلاء الملوك الأرانب صراعا وحروبا مدمرة ولكنها حروب في ميدان الصغار والتفاهة ، إن أجسامهم لتتحمل العناء والصراع ، ولكنه صراع أجسامهم مع الشهوات والملذات التي يسرفون فيها فتكون معاول هدم لأجسامهم وقواهم ، ولهؤلاء الملوك خيول وفرسان يمتطون صهواتها وفي أيديهم عدد القتال ، ولكنها لا تستخدم في قتال حقيقي بل تتخذ للزينة والبهرج .

ويصور أبو الطيب مقته لأحوال عصره ، وسخطه على زمانه بمن فيه وما فيه ، وتحسره بأن قُدّر عليه أن يحيا في هذا الزمن الذي لا يرضي غروره ، ولا يشبع تطلعاته ... يقول من قصيدة مطلعها :

حتام نحن نساري النجم في الظلم وما سُراه على خف ولا قدم

وهي في رثاء " فاتك الرومي " ، وتؤكد نبرة الحزن العميق فيها أن المتنبي لم يكن عروبيا ، ولا متعصبا ضد العجم . وهو في هذه القصيدة يشكو زمانه الذي لم يعد للحياة فيه معنى بعد رحيل صديقه " فاتك " ؛ إذ لا يجد مَنْ يقصده بشعره بعده ، ولا من هو أهل لذلك ، وقد يئس شاعرنا من العثور على من يستأهل أن يمدح ، وأتعب إبله متنقلا بها بين أقوام لهم صور البشر ولكنهم كالأصنام سواء بسواء ، بل لعل الأصنام أقل منهم ضررا لأنها لا ترتكب من المقابح مثل ما يرتكبون ... ، وفي ختام القصيدة يقول موضحاً أروع ما يمكن أن يقال في شكوى الدهر ، وذم الزمان إذ يقول :

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الأمم

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرم

وكثيراً ما يستلهم أبو الطيب من ثنايا تجاربه الشعرية الحكمة والدرس المستفاد ، وهو هنا بعد أن شكا ، وبث حزنه المكبوت ، وهمه الدفين ، يؤكد أنه قد تملكه اليأس لعمره المبدد في غير طائل ، وحياته التي جاءت في زمان غير جدير بها ؛ إذ لا يناسبها ، ولا يتلاءم مع آمالها وقدراتها ، وهو يتمنى أن لو كان ذلك العمر وتلك الحياة كانت في غير تلك الأمة وذلك الزمن ، ليتها كانت في الزمن الذي مضى ، والعصر الدي سلف ،

ثم يرسل زفرة الأسى في بيته الأخير ؛ إذ قدر عليه ومن على شاكلته من أهل الفضل والنبل أن يحيوا في عصر انحدار الدهر وهرمه . فيلاقوا من مكارهه ما لاقوا ، في حين عايش غيرهم من السعداء الزمان في شبابه وريعانه ، فنالوا الحظوة والسرور !! .

وأخيراً نستعرض مقتطفات من قصيدة لأبي الطيب مدح بها القاضي الأنطاكي ، وكا ممن يُكبرهم المتنبي ويجلهم ، ومنها قوله في افتتاحيتها :

أفاضلُ الناس أغراض لـذا الزمن
يخلو من الهَمّ أخلاهم من الفِطَنِ
وإنما نحن في جيل سواسيةٍ شر على الحر من سقم على البدنِ
حولي بكل مكان منهم خلقٌ تخطي إذا جئت في استفهامها بمنِ
لا أقتري بلدا إلا على غرر ولا أمُرُّ بخَلْقٍ غيرِ مضطغنِ
ولا أعاشر من أملاكهم أحداً إلا أحَقُّ بضرب الرأس مِنْ وثَنِ

وهي ترينا نمطاً ممن مدحهم أبوالطيب ، وكانوا صنوفا شتى ، ولم يقتصر على مدح أرباب السلطة بل كان يخص من يعجب به ، وتروقه صفاته بأروع شعره ، وأبدع قصائده ، وسنلمس ذلك عندما نعرض سياقات وجدانياته . يوجه أبو الطيب مدحته هنا لقاضٍ أريب ، وحكيم مجرب ، وهو يصور في مطلعها ارتكاس أحوال زمنه ، واضطراب الأوضاع فيه ، وهوان أهل الفضل ، واهتضام حقوقهم ... ، وكأنّ الزمان جعلهم هدفا لويلاته ومآسيه ، وارتضى أن يسعد الجهال ويسودوا ، ويُحرم أهل الفضل ويقاسوا . . ، ثم يواصل شاعرنا البث والشكوى مقررا أن الجيل الذي نشأ فيه ـ ونشأ فيه الممدوح ـ جيل غلب عليه الشر . فأكثر ناسه وأرباب

السلطان فيه متساوون في الشر والنقص ، وهم أشد إيلاما على الحر الأبـيّ من نزول السقم به ، وإلمام العلل ببدنه ، وإمعانـا فـي التـأكيد يسـتطرد أبـو الطيب مؤكدا لممدوحه صدق مقولته ، وصوابية تقريـره فيذكـر أنـه عندمـا يلتفت حوله لا يرى إلا هذا الصنف من ذوي النقائص والآثام ، الذين فقدوا كل معاني الشرف ، وكل مقومات الإنسانية ، حتى ليخطيء من يستفهم عن أحدهم بـ" مَنْ " التي يسأل بها عن العـاقل ، إن أبـا الطيـب مـن أجـل هـذا الفصام الذي يعانيه من أهل زمانه ، واختلاف طبعهم عـن طبعـه ، وأنفتـه من مشاركتهم ما ألِفُوه من مقابح ، وما درجوا عليه من وضاعـة وصغـار يعيش غريبا بين ظهرانيهم ، منبوذا مضطهدا من سوادهم الأعظم ؛ لذا فهو لا يتحول من موضع إلى موضع بين هؤلاء الطغام إلا وهو على خوف من الإيقاع به ، وحذر من التعدي عليه ، ولا يمر إلا على من يضمر له الشـر وينطوي على الضغينة ، ثم يصل إلى ذروة ثورته وسخطه فيعلن في غـير مواربة بل في صراحة ووضوح أنه لا يستثني ممـن ذكـر أحـدا ، حتـى إن من يعاشر مِنْ حكام زمانه وأرباب السلطان فيه أولى بضرب الرؤوس مـن الأوثان .

هذه النماذج التي وقفت بك ـ أيها القـاريء ـ عليهـا تعـد غيضـا مـن فيض مما حمل فيه أبو الطيب على عصره وأهل عصره ، ومما دمغهم بـه من تقصير وفساد ، وسترى مـن ثنايـا عـرض وجدانياتـه مـن ذلـك الشـيء الكثير ، وهي في جملتها تؤكد حقيقة سبقت الإشارة إليهـا وهـو أن المتنبـي شُغل بما لم يشغل به شاعر ممن سبقه أو عاصره ، بل لا نغلو إن قلنـا إنـه حمل هموم عصره ومجتمعه وأمته بصورة لم يسبق إليها ولم يلحـق فيهـا ،

وهو بهذا الاشتغال والاهتمام جدير بأن يعد أبرز داعٍ إلى مجد الأمة ورفعتها ، وتشخيص أدوائها .

وكلما لخصنا فيما تقدم أبرز الظواهر التي كانت موضع انتقاد أبي الطيب لعصره ومعاصريه ـ يجمل بنا في هذا السياق أن نرصد بعض ما اختص به المتنبي تلك الظواهر من نقْد ، وما عبر عنه شعره من رؤية إصلاحية لتلك السلبيات في النقاط التالية :

١) وقف أبو الطيب من القائم على أمر الخلافة في بغداد موقف التوجس والازدراء ، ونأى بنفسه وشعره عن التعرض لمثل هؤلاء ، وعندما اضطر للخروج من موطنه الكوفة تحت ضغط حملات القرامطة المتكررة عليها لم يقصد بغداد وكانت أكثر من الكوفة أمنا ، بل قصد بلاد الشام ، ولم يسترح أبو الطيب للجو العام في بلاط الخلافة العباسية ، فظل بعيدا عنه حذرا من الاقتراب منه ، على الرغم من إلحاح المهلبي الوزير عليه عندما رجع إلى العراق بعد خروجه من مصر ، وقد تردد أبو الطيب على بغداد في تلك الآونة ، ولكنه لم يجد لنفسه ولا لشعره ببغداد من يستحق أو يقصد فيمدح ، وتسجل مواقفه وأعماله .

٢) أما الظاهرة الأخرى البارزة في عصره وهي ظاهرة كثرة الثورات والثائرين فقد عاني منها أبو الطيب أشد العناء ، واضطر تحت وطأتها للرحيل عن موطنه الكوفة ، وذاق التشرد ، وحُرم من الالتقاء بأهله وأحبته في الكوفة ، وربما كانت ثورة المتنبي وسخطه على عصره وأهل عصره مرجع كثير منها إلى افتقاد الأمن ، واستشراء الفوضى ، ولم يكن تهييجه للناس ببادية الشام إلا جزءاً من تلك الرغبة التي ألحت على وجدان أبي

الطيب وأقضت مضجعه ـ الرغبة في أن ينهض أهل الحمية والغيرة من العرب ذوي الأنفة والصلابة في المطالبة بالحق ؛ ليغيّروا هذه الأوضاع المؤسفة ، وكانت رغبته تلك ودعوته إليها فيما يرجح المحققون من المؤرخين سببا في تعقب والي حمص من قِبَل الإخشيد للمتنبي والزج به في السجن إلى حين .

٣) أما الظاهرة الثالثة وهي ظاهرة تحكم الأعاجم في مقاليد الأمور بالدولة في بلاط الخلافة ومركز السلطة ، وفي أكثر الأقاليم التي استقل بها الولاة وأبقوا على خضوع شكلي للخلافة العباسية ، ولم يكن أبو الطيب متعصبا للعروبة او عروبيا غاليا كما يصوره بعض من ناقش هذه الظاهرة في حياته وشعره ، كما لم يكن قرمطيا كما ادعى آخرون ، والأقرب إلى الصواب أن أبا الطيب نظر حوله فوجد أكثر أقطار الخلافة بأيدي الأعاجم كما وجد المحركين للأحداث في أروقة الخلافة هم من غير العرب أيضا ، وكان أكثر هؤلاء الذين عابهم أبو الطيب وحمّلهم مسؤولية تردي الأوضاع ـ انتهازيين طامعين ، لم يراعوا للخلافة الإسلامية حرمة ، ولم يحفظوا للإسلام عهدا ولا ذمة ، ولم تكن لديهم غيرة على واقع المسلمين المؤلم ، ولا عِزّهم المبدد ، بل كان كل همهم ، وجل ما يحرصون عليه أن يستأثروا بالأموال والضياع ، مهما تعرضت الرعية للعسف والظلم والإحباط . أما عامة الأعاجم ممن تحلوا بجميل الشيم ، وطيب الخصال فلم يخف أبو الطيب إعجابه بهم وثناءه عليهم ، وأصدق شاهد على ذلك قصده بعض هؤلاء في بلاد الشام قبل اتصاله بسيف الدولة ، وتعلقه بفاتك الرومي في مصر أشهر من أن نعيد فيه ونفيض ، وأخيرا وصفه وتخليده

لبطولة دلّيْر بن وشمكير الذي قمع القرامطة وأوقع بهم بعد عودة أبي الطيب الأخيرة للعراق .

وعلى الإجمال نقول : إن مدائح أبي الطيب لم تكن مقصورة على العرب ، ولم يكن هو عروبيا أو متعصبا للعروبة ، وإن بدا ذلك من بعض أشعاره ، بل كان مقدرا للطبيعة العربية ، والأخلاقيات البدوية التي اعتدها العرب مناط فخرهم وعزهم ، وكان وجود هذه الأخلاقيات أو جلها في رجل كفيلا بأن يقدّره أبو الطيب ، مهما كان انتماؤه ، ومهما كانت أصل الدماء التي تجري في عروقه ؛ لأن المحرك لشعر المتنبي كان في الأعم الأغلب قناعات ذاتية مبعثها الإعجاب بمن يمدحه ، لصفات يتحلى بها ، أو لموقف مشرف حمل الشاعر على الإعجاب به والإكبار لشأنه ، أو لمهارة وحنكة في إدارة ما كلف بالقيام عليه ، أو حسن سياسة اشتهر بها ، أو استقرار وأمن أشاعه وبسطه ، أو فتنة قمعها وعدوٌ كبته ، أو أدب عرف به ، أو علم حصّله ... ، إلى غير ذلك مما يحملنا على تقدير الناس ، وتعدادنا لمآثرهم ومكرماتهم .

الفصل الأول

وُجْدانِيَّات
أبي الطيب
من سياقات شعره

[السياق الأول] *

ولا كُلُّ من قال قولاً وَفَى

ولا كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفاً أَبَى !!

هذه القصيدة أول ما نتناوله من شعر الوجدان عند أبي الطيب ، وهو يصور فيها رحيله من مصر متخفيا بعد أن يئس من واليها كافور الإخشيديّ ، وقد بدأها بقوله :

ألا كل ماشية الخيزلَى فِدا كل ماشيةِ الهيدبَى

والخيزلى : مشية للنساء فيها استرخاء وتبختر ، والهيدبى : مشية سريعة للإبل . والشاعر هنا يلمح إلى أنه ليس ممن تيّمهم حب النساء أو الاشتغال بمفاتنهن ، وتعقب الجميلات منهن ، ولكنه يعشق البطولة ويهوي ركوب الأخطار ، ومن ثم فهو يفتدي كل امرأة حسناء ذات تدلل واعتزاز بالجمال ، واكتمال المفاتن ــ يفتديها بكل ناقة نجيبة تمشي مسرعة فتُبلغ راكبها وجهته ، وتحقق له ما يريد ، ويؤكد أنه ليس لديه ميل إلى النساء وما يفتن الرجال فيهن ، ولكن ميله وعشقه للإبل النجائب ، وهو عشق ليس مردُّه لأشكالها وأعراقها ، بقدر ما يكون لأنها تُبلغ الأبيَّ ما يريد ، ويحقق بواسطتها ما يتمنى ، فيبتعد عمن يكره ، ويقترب ممن يحب ويرجو ، وهو ما عبر عنه بقوله عن الإبل :

ولكنهن حبال الحياة وكيد العداة وميط الأذى

وما أجمل هذا التعبير " حبال الحياة " لأنها سبب لتحقيق الآمال ،

---

* شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي البقاء العكبري ٣٦/١ . والبرقوقي ١٦٠/١ .

وبلوغ المرام بالأسفار ، والانتجاع لإبعاد راكبها عما يكره ، وإنزاله منازل الكرماء ، وإبعاده عن مواطن الضيم والهوان . ثم يبين أن تلك النجائب لم تكن وحدها هي عدته لبلوغ مآربه ، بل كانت مهمتها مقصورة على البعد عن مواطن الضيم والإذلال ، ثم تأتي بعد ذلك مهمة الجياد والأفراس التي يستخدمها في الكر والفر ، ومنازلة الأعداء ... ، ثم أفاض في وصف الأماكن التي مرت بها إبله في أثناء الرحيل ، وكيف اجتازتها في سرعة وإقدام دون أن يتوقف بها راكبوها للتزود بالماء كعادة المسافرين ؛ وذلك لقوة تلك الإبل وصبر راكبيها وقوة جلدهم ، وتحملهم للعطش أوقاتا طوالا ، وحاجتهم للإسراع والتخفي حتى لا يقعوا في قبضة الأعداء الذين يلاحقونهم ، ويحرصون على الإيقاع بهم ، ثم جعل الشاعر يصف تلك المفاوز التي قطعتها إبله ، ويعدد المواضع ، دليلا على خبرته بتلك الأماكن ، ومن ثم اقتداره على اجتيازها وبلوغ ما يريده من أسفاره ورحلاته ، على الرغم مما يحيط بها من أهوال ، وما يكتنفها من ظلام دامس ، وتشابه محيِّر ، وبعد أن وصف صعوبة الرحلة ومخاطرها أشار إلى أنه ورفاقه بعد أن اجتازوا تلك الأخطار ، واطمأنوا إلى النجاة من الهلاك ، وغدت وجهتهم واضحة ، وطريقهم مأمونا عادوا إلى سيوفهم فقبَّلوها ومسحوها من دماء الأعداء ، فرحاً وابتهاجاً ، ورضا عن النفس واعتزازا . وبعد ذلك التقديم الرائع لتلك القصة الطريفة ، قصة خروج الشاعر ورفاقة في الخفاء من مصر بإحكام دقيق ، وحذر بالغ – يأتي أبو الطيب بالدلالة أو العبرة المستخلصة

من ذلك الموقف فيقول :

لتعلمَ مصرُ ومَنْ بالعراق ومَنْ بالعواصم أنّي الفتى
وأنّي وفيتُ وأنّي أبيتُ وأنّي عتَوْتُ على مَنْ عتا (١)
ولا كل من قال قولا وفى ولا كل من سيم خسفا أبى
ولا بُدَّ للقلب من آلة ورأيٍ يصدّع صُمَّ الصفا (٢)
ومن يك قلبٌ كقلبي له يشقُّ إلى العزّ قلب التّوى (٣)
وكُلُّ طريق أتاه الفتى على قدر الرجل فيه الخُطا

وهكذا نرى أن أبا الطيب بعد أن مهّد لحديث رحلته عن مصر سرًّا ، وفخر بنجاحه في إخفاء وجهته عن كافور وعيونه ، وبيّن كيف أمكنه أن ينجو من الطوق الذي صنعه له كافور ، ونجا بمن معه دون أن يدركه عدو أو يلحقه كائد ... ، بعد أن سرد قصة ذلك كله جمع في تلك الأبيات الأخيرة عُدّة فخره ، ومناط اعتزازه ، وأكّد فيها لعارفيه ، ومتتبعي أخباره ، في مصر والشام والعراق وسائر العواصم أنه الفتى حقا ، والمستأهل دون غيره أن ينعت هذا النعت ، ويُوسم ذلك الوسم ، وكأن البلاد التي ذكرها على امتدادها واتساع رقعتها تنتظر لترى ماذا سيصنع ، وها هو ذا يؤكد للجميع بتخلصه من ربقة كافور أنه الفتى الأبيُّ ، المالك لأمر نفسه ، الذي يقول ما يريد ، ويفعل ما يحب ، ويأبى الضيم ، ويحطم الأغلال !! ومن ذا

---

(١) عتوت : من عتا يعتو ، أي استكبر وجاوز الحد .
(٢) صُمُّ الصفا : الحجارة الصلبة . (٣) التوى : الهلاك ، وأصله هلاك المال .

الـذي يماثلــه فــي ذلــك أو يدانيــه ؟ إن المدعيــن للإبــاء كثيــرون ، والمعرّضُون للضيم لا يُحصَوْن عددا ، ولكـن ليـس كـل مــن قــال استطاع أن يفي بقوله ... !! ولا كل من تعرض للضيــم امتنــع علـى قاهريه !! . ثم يستخلص أبو الطيب ـ على عادته ـ العبرة ، ويرسل الحكمة ، ويبث النصيحة فيبيّن أنه ليس غريبا على مـن كـان لـه قلـب كقلبه لا يعرف الوجل ، وقوة إردة كما لديه ـ أن يحقق لنفسه العــز ، ويصون الكرامة ، ولو أحاطت به الأهوال !! .

[السياق الثاني] *

فياليتَ ما بيني وبين أحِبَّتِي
مِنَ البُعْدِ ما بيني وبين المصائب !!

وهذه ـ أيها القارئ الكريم ـ قصيدة مدحية من شعر أبي الطيب مدح بها " طاهر بن الحسين العلوي " افتتحها شاعرنا بمقدمة غزلية رقيقة تُوحي ببعاده عن أحبته ، وتشي بتعثر أمانيه ، وتبدُّدِ آماله ، وهو يطالب من يرق لحاله ، ويستطيع أن يساعده أن يردّ إليه أحبته ، ويساعده على بلوغ آماله ومراميه ، ويتمنى أن لو كان قُدِّر له أن يكون ما بينه وبين أحبته من البعد مساويا لما بينه وبين النوائب والأرزاء والمتاعب والإحباطات !! ... ويعرض أبو الطيب بعد ذلك معنى طالما تعلق به الشعراء ، وافتَنُّوا في التعبير عنه ، ولكنه صاغه بأسلوبه ، ووضع عليه " بصمته " ؛ إذ ذكر أن حبيبته تخوّفه السفر والبين ، وتشفق عليه من الرحيل ، وتخشى عليه الأخطار ، وهو يجيبها بأن ما تطالبه به من القعود وإيثار السلامة ـ هو الموت ؛ لأنه سيجر عليه الذل والصغار ، ويقتضيه الرضوخ ، ولا بد لمثله أن يخوض الأخطار ، ويقتحم الصعاب ، ويفتك بالأعداء ، ومطالبه هذه لا بد أن تراق في سبيل تحقيقها الدماء ، ويقع بسببها الصدام ، وقناعة الشاعر وفلسفته في الحياة أن حياة الإنسان لا تُقَدَّر بطول العمر ، وإيثار السلامة ، بل بتحقيق الآمال ؛ لأنّ قليل العمر مثل

* العكبري ١/١٤٩ . ، والبرقوقي ١/ ٢٧٦ .

كثيره ، ثم يشير إلى إقدامه وشجاعته ، وأنه ليس ممن إذا خشي خطرا فكَّر فيما هو أهون ضررا ، بل يخوض المخاطر غير هيَّاب ولا وَجِل .

ثم يؤكد أنه يعرف قدر نفسه ، ويدرك حال خصومه ، فيعرف هوان شأنهم ، ومن ثم لا يعبأ بتهديداتهم وتوعدهم ؛ لقناعته بأنه لن يتحقق من توعدهم شيء ، وأنهم لم يكذبوا عليه وحده ؛ لأن الكذب ديدنهم ، والنفج والادعاء شِنشنتهم ... ، ثم يُنْهِي هذه المقدمة الرائعة بتأكيد تفرده بتلك الخلال العجيبة ، والتحلي بمعالي الخصال ، وانتهاج المسالك الوعرة التي لا يقدر عليها غيره ، ولا يطيقها سواه ، وهو بذلك كله قادر على أن ينزل كل أرض ، ويحل بكل بقعة ، فيستطيب منها ما يروقه ويوافق هواه ، ويتجافى عن البقاع التي لا تريحه ، ولا يجد فيها التكريم والتقدير .

فيا ليت ما بيني وبين أحبتي من البعد ما بيني وبين المصائب

....

تخوفني دون الذي أمرت به
ولم تدر أن العار شرُّ العواقب (١)
ولا بدَّ من يوم أغرَّ محجل يطول استماعي بعده للنوادب
يهون على مثلي إذا رام حاجة
وقوع العوالي دونها والقواضب

---

(١) المعنى : تخوفني الهلاك بسبب الأسفار ، وهو أقل في نظري من العار الذي سيلحقني بملازمة موطني وخمولي وقعود همتي .

كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وباقي عمره مثل ذاهب
إليك فإني لست ممن إذا اتَّقى
عضاض الأفاعي نام فوق العقارب (١)
أتاني وعيد الأدعياء وأنهم أعدوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جدهم لحذرتهم
فهل فِيَّ وحدي قولهم غير كاذب
إليَّ لعمري قصد كل عجيبة كأني عجيب في عيون العجائب
بأيِّ بلاد لم أجُرَّ ذوائبي
وأي مكان لم تطأه ركائبي ؟! (٢)

---

(١) إليك : تفيد التحذير والتبعيد . أي ابتعدي عني . والمعنى أنه ليس ممن إذا خاف شرًا ارتكب ما يعيبه أو يصمه .

(٢) الذؤابة من كلّ شيء أعلاه ، وأطراف الشيء . وهو هنا يريد بها أطراف ثيابه ، وهو كناية عن الخُيلاء . والمعنى أنه لم يدع أرضاً إلا كانت له فيها صولات وجولات ، إما غرام وتغزل وإعجاب به ، وإما غزو وفروسة .

[السياق الثالث] *

خليليَّ إني لا أرى غير شاعِرٍ

فَلِمْ منهم الدعوى ومِنّي القصائد ؟!

وهذه رائعة أخرى من روائع أبي الطيب التي برز فيها جانب تصوير الشخصية ، والتعبير عن الذات في اعتزاز وإكبار ، وهي إحدى مدائحه سيف الدولة ، وفي افتتاحية القصيدة وبعد المدخل الغزلي الطريف ، يبث أبو الطيب شكواه من أن زمنه لم ينصفه ، وحال بينه وبين أمانيه ومطامحه ، فهوغير مبخوت ، إن أراد شيئا حالت الأحداث دونه ، وكأن الليالي تصارعه ، وتقف له بالمرصاد ، وهو في سبيل تحقيق ما يُؤمل ، يرحل ويفارق أحبته ، ويعيش بعيدا عن خلانه وأعوانه ، على الرغم من جسامة ما يطلب ، وعظيم ما يؤمّل ، وهو يستعين على تلك الشدائد والأخطار بفرسه السبوح المدربة على خوض الغمار ، وتفادي ما يسدد تجاهها من سهام ورماح ، وتجنب ما يوجه نحو راكبها من طعنات ، ثم هو شجاع مقدام اعتادت خيله وإبله أن تتلقى الضربات والطعنات في الصدور لا الأعجاز ؛ لأنها لا تعرف النكوص ، ومن يمتطون صهواتها لا يرجعون على الأعقاب مهما اشتد النزال ، وعَظُم الصّدام ، ثم إنه ركّاب أهوال ، لا يجرؤ سواه على أن يصنع مثل صنيعه ، ولا يستطيع سواه أن يصبر للجلاد والنزال مثل صبره ، وذلك كله سببه

* العكبري ١/٢٧١. ، والبرقوقي ١/ ٣٩٤ .

أنه يحمل بين جنبيه قلبا شجاعا ، يدفعه إلى الثبات والإقدام ، فتصير يده ثابتة قوية ، ليست مرتشعة أو مرتعدة ، وأساس ذلك كله ثبات القلب ، ورباطة الجأش ، ثم يتخلص إلى مدح سيف الدولة تخلصا بارعا ؛ إذ يذكر أنه لا يصادف إلا الأدعياء ، ولا يلقى إلا كل منتحل للشاعرية ، وهو لا يرى من هؤلاء شعراً يشهد لهم بدعواهم ، ويتساءل ما سبب تلك المفارقة العجيبة أن يكون من غيره الادعاء والتبجُّح ، ومنه وحده الشعر البارع والبيان الرائق !! ثم يستدرك قائلا : لا غرابة في هذا الأمر فكما أن أدعياء الشعر كثيرون وأرباب البراعة فيه نوادر - يأتي هو في مقدمتهم - فكذلك أدعياء المضاء والإقدام كثيرون ، ولكن لا يوجد منهم من يضارع الممدوح مضاء وشجاعة وحسن غناء .

أهُمُّ بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد

وحيدٌ من الخلان في كل بلدة

إذا عظم المطلوب قل المساعد

وتسعدني في غمرة بعد غمرة

سبُوحٌ لها منها عليها شواهد

تَثَنَّى على قدر الطعان كأنما

مفاصلها تحت الرماح مراود

مُحرَّمة أكفال خيلي على القنا

مُحلَّلة لبَّاتُها والقلائدُ

وأُوردُ نفسي والمهنّد في يدي

مـوارد لا يُصْـدِرْنَ مَـنْ لا يجالـد (١)

ولكن إذا لم يحمل القـلـبُ كفّه

علـى حـالـة لـم يحمل الكف ساعد

خليليَّ إني لا أرى غير شاعر

فـلِمْ مـنهم الدعوى ومني القصائد

فلا تعجبا إن السيوف كثيرة

ولـكـن سيـف الـدولة الـيـوم واحد !!

(١) المعنى : يقول : من يصنع مثل صنيعي في الحرب ولم يكن شجاعا قويّ التحمل هلك !

[السياق الرابع] *

أزلْ حَسَدَ الحُسَّاد عَنِّي بكبتهم
فأنت الذي صيَّرتهم لِيَ حُسَّدا !!

وهذه سيفية أخرى من سيفيات أبي الطيب قالها يهنيء بها الأمير بعيد الأضحى ومطلعها :

لِكُلِّ امرِيءٍ من دهره ما تَعَوَّدا
وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وفيها يُدِلُّ المتنبي بشعره وشاعريته ، ويطلب من الأمير أن يكبت حاسديه ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يكتفي بتلك المطالبة ، أو يعرضها على سبيل الرجاء بل يجعلها واجبا لازما ؛ لأن الممدوح كان سببا في تلك الخصومة ، ولولا أن أبا الطيب مدحه وأشاد به ، وسار الركبان بشعره في الأمير ما كان الحسد ، ولا نشط الحاقدون ، فلا أقل من أن يكافئه الأمير تلك المكافأة ، ويحمل عنه ذلك العبء ، وهو يؤكد للأمير أنه لا يطلب منه في هذه المدافعة سوى التأييد المعنوي والمؤازرة ، أما ما سوى ذلك من المصاولة الشعرية فهو كفيل بها قادر على كسب رهانها ، ثم يتسلل شاعرنا من ذلك إلى الإدلال بأشعاره التي يرددها الدهر وتسير بها الركبان ، ويترقى من ذلك إلى أن يطالب الأمير أن يُحَوِّل إليه الجائزة إذا أنشد شعرا أعجبه ، وأراد

---

* العكبري ٢٨٩/١ . ، والبرقوقي ١٣/٢ .

أن يُنيل قائله ، زاعما أنه أولى بالمكافـأة ، وأجـدر بالصّـلة ؛ لأن كـل شعر جيد صدى لشعره ، وكل قول صائب ترديد لقوله ، وكـل معنـى رائق مقتبس من معانيه ، ثم يؤكد في نهاية القصيدة أنه أصبح مطمئنا لدى سيف الدولة ، مرتبطا به ، سعيدا بقربه ، ولماذا يرحل عنه وهو موقن أنه لن يجد ذلك التكريم والتقدير لـدى غيره ؟ ولا ذلـك العيـش الرخيّ عند سواه ؟ إذاً لقد قيـد إحسـان الأمـير أبـا الطيـب ، وغمرتـه عطايـاه وجوائـزه ، فـأحرى بـه أن يـترك الأسـفار لغيره والارتحـال لسواه ، ممن لم يظفروا بمثل ما ظفر هو به .

أزل حسد الحساد عنّي بكبتهم فأنت الذي صيَّرتهم لي حُسَّدا
إذا شدَّ زنـدي حسن رأيك في يـدي
ضـربَـتُ بسيـف يقطـع الـهام مغمـدا
ومـا أنا إلا سـمـهريٌّ حملته فزيَّـن معروضا وراع مسددا (١)
ومـا الـدهـر إلا من رواة قـلائِـدي
إذا قُـلـتُ شـعـراً أصبح الـدهـر منشدا
فسـار بـه مَـنْ لا يسـير مشمّـرا
وغَـنَّـى بـه مَـنْ لا يُـغَـنِّي مُـغَـردا
أجزني إذا أُنشدتَ شعرا فإنما بشعري أتاك المادحون مُرَدَّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنما
أنا الطائر المحكِيُّ والآخر الصدى

---

(١) السمهري : الرمح منسوب إلى رجل كان من مهرة صُنّاعه .

تركتُ السُّرَى خلفي لمن قَلَّ مالُه

وأنْعَلْتُ أفراسي بنُعماك عسجدا

وقيَّدتُ نفسي في ذراك محبة

ومَنْ وجد الإحسانَ قيْداً تقَيَّدا

إذا سأل الإنسان أيَّامه الغِنَى

وكنتَ على بُعْدٍ جعلتُك موعدا

[السياق الخامس] *

أذمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَهُ
فأعلمهم فَدْمٌ وأحزمُهم وَغْدُ

وهذه قصيدة مدحية بدأها شاعرنا بالفخر ، الفخر بشخصه ومسلكه وصنيعه ، إذ يقرر أن فِعاله كلها للمجد ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، وحسبه أن يكون المجد والرفعة وعلو الشأن مأربه ومطلبه ، سواء أتحقق له من ذلك ما أراد أم أخلفته العوادي ، وحالت دون بغيته العوائق ، وهو لن يتوانى عن المطالبة بما يستحق من عيش كريم ومنزلة سامية بين أبناء عصره ، ممن لا يقل عنهم شيئا ، بل يفوقهم ، وسيحرص على نيل ذلك بأسنة الرماح ، وبمعونة الرجال الأشداء الملثمين الذين ادخرهم لذلك ، والذين عُرِف عنهم الصدق عند لقاء الأعداء ، والبأس في مواطن الشدة ، والمراس بفنون الطعن والمنازلة ، وهو قادر عند الحاجة على حشد المزيد من الرجال ، والعديد من الموالين والأنصار ؛ ليحقق بمعونتهم ما يأمل ، ويبلغ بتأييدهم ما يتمنى ويرجو .

ثم ينتقل فيصغِّرُ شأن مَنْ حوله ، ويعلن احتقاره لهم وتهوينه من شأنهم ؛ لأنه خبرهم وعرف ما عندهم ، فأكثرهم أدعياء نفَّاجون ، ومن يزعم لنفسه العلم منهم غبيٌّ جاهل ، ومن يتكلف الحزم لئيم أحمق ، وهو لذلك يلوم الزمان على أهله المحتقرين ، ويُعَيِّره بذلك

---

* العكبري ٣٧٤/١ . ، والبرقوقي ٩٢/٢.

النفر الذين لا غناء عندهم ، ولا فضل يذكر لهم ، وأبو الطيب يعلن في ألم ومضض حزنه لاضطراره إلى معايشة أهل ذلك الزمان على ما هم عليه من نقائص ومعايب ، وأن يظهر لهم الموادعة بل المصادقة ، وذلك من أقسى ما يعانيه الأحرار الشرفاء ، وينغص عيش أهل النباهة والمجد أن يضطروا إلى مداراة الأدنياء ، ومعايشة من ليسوا على شاكلتهم في الفضل والنبل . وتُذكِّره تلك الحال المنكوسة بأنه يعيش غريبا بين أهل ذلك الزمان ، وهو من أجل ذلك لا يستطيب متعة من متع الحياة ؛ لذا كرهها وملها ، على الرغم من إغرائها له وإلحاحها في فتنته . ثم يذكر أبو الطيب في حسرة وأسى أنه لم يركن من أهل زمانه المنبوذ إلى خليل يساعد ، أو صديق يكاشَف ، وليس له في الدنيا إلا رفيقين ملازمين : الحزن ، والعبرات لتحطم الآمال وانتكاس المطامح ، وكأنَّ دموع كل باكية ثكلى تَمُرُّ عبر جفونه وتتساقط على صفحة خده ! ثم يبين أنه يكتفي من متع الحياة بل من مقوماتها بما يُمسك الرمق ، ويُبقي على الحوباء ، فحسبه من الماء جرعة ، ومن الزاد ما يتبلغ به ويقيم أوده ، وهو في صبره عن تلك اللذائذ والطيبات شبيه بالنعام في صبره عن الماء ، ومن ثم فهو لا يحيا ليتلذذ وينعم بألوان الترف ؛ لأن له هدفا أسمى وغاية عليا يعيش لها ، ويسعى لنيلها في عزم وجلد ، وهو لذلك يتسامى عن الصغائر والدنايا ، ويربأ بنفسه أن يبلغ ما يريد بخصال السوء ، أو الكيد الرخيص ، وهو يرثي لأعدائه وكائديه ليقينه أنه لهم

ضدٌّ ، وعليهم وبالٌ ، فلا غرو أن يكرهوا شخصه ، ويحقدوا عليه ، ويناصبوه العداء ؛ لما بين مذهبه ومذهبهم في الحياة من بون شاسع ، لتعارضه مع ما درجوا عليه واستمرأوه .

أقَلُّ فَعالي بَلْهَ أكثره مَجْدُ
وذا الجَد فيه نلتُ أم لم أنل جَدُّ (١)
سأطْلبُ حَقِّي بالقَنا ومشايخٍ
كأنَّهم من طول ما التثَموا مُرْدُ
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دُعوا كثير إذا شدوا قليل إذا عُدُّوا
وطعْن كأنّ الطعن لا طعن عنده
وضرب كأن النار مِن حَرِّه برد
إذا شئتُ حفَّتْ بي على كُلّ سابحٍ
رجالٌ كأن الموت في فمها شهد
أذم إلى هذا الزمان أُهَيْلَهُ
فأعْلَمُهم فَدْمٌ وأحزمهم وغْدُ (٢)
وأكرمهم كلب وأبصرهم عَمٍ
وأسْهدُهم فَهْدٌ وأشجعهم قردُ

---

(١) بلـه : فيها أقوال . إما تقدير كونها تفيد الإضراب ، وتكون اسم فعل أمر بمعنى : دع ، وما بعدها منصوب ، أو تقدّر أداة استفهام بمعنى : كيف وما بعدها مرفوع ، والأول أجود .

(٢) الفدْم : الغبيُّ من الرجال الذي لا يقدر على الكلام . والوغد : اللئيم الضعيف .

(٣) النُّغْبة : الجرعة ، والربد النعام .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عَـدُوًّا لــه ما مِـنْ صداقَــتِـه بُدُّ
بقلبي – وإن لم أروَ منها – ملالةٌ
وبي عن غوايتها وإن وصلت صَدُّ
خليلاي دون الناس : حزنٌ وعبرةٌ
علَى فَقْـدِ مَـنْ أحبَبْتُ ما لهما فَقْدُ
تَلِـجُّ دموعي بالجفون كأنما
جُفُـونِـي لِعَيْـنَيْ كُلّ باكيَـة خَـدُّ
وإنِّـي لتُـغْـنيني من الـمـاء نُغْبـةٌ
وأصبـر عنه مثل ما تَصبر الرُّبد (١)
وأمضي كما يمضي السنان لطيتي
وأطـوي كمـا تطوي المجلحة العُقْدُ (٢)
وأُكْبِـرُ نفسـي عن جزاءٍ بغيبـة
وكـل اغتيـاب جهد من لا له جهد
وأرحـم أقوامـا من العـي والـغبـا
وأعـذر فـي بُغْضِـي لأنَّـهم ضـدُّ (٣)

---

(١) النُّغبة : الجرعة ، والربد النعام .

(٢) أطوي ، من الطوى أي الجوع ، المجلِّحة : الذئاب . والعقد : الذي قل لحمه هزالا وضموراً .

(٣) العي : عيب في النطق ، وأصله الانحصار عن الحجة . والغبا : الغباء .

[السياق السادس] *

مَـنْ خَصَّ بالذمِّ الفراقَ فإنني
من لا يرى في الدَّهر شيئا يُحْمَدُ !!

هذه مقطوعة من أربعة أبيات ذكر شُرَّاح الديوان أن أبا الطيب ودَّع بها صديقا له يكنى " أبا البهيّ " عند مسيره عنه فأنشدها ارتجالا وهي قوله :

أمَّـا الفراق فإنه مـا أعـهـدُ   هـو تَوْأمِـي لو أنّ بَيْناً يُولَـدُ
ولقد علمنا أننا سنطيعه   لما علمنا أننا لا نخلُـدُ
وإذا الجياد أبا البهيّ نقلننا   عنكم فأَرْدأُ ما ركِبْتُ الأجود
من خصَّ بالذمِّ الفراق فإنني
مَنْ لا يرى في الدهر شيئا يُحمدُ

وهي مقطوعة رائعة ، بل قطعة من نفس شاعرنا ، وذوب حسه ومعاناته ، فهو يؤكد أنه اعتاد الرحيل ، واكتوى بفراق الأحبة ، حتى غدا الرحيل رفيقا ملازما ، وكأنه توأمه الذي ظهر إلى الوجود متصلا به ، مصاحبا له ، وهو لا يدري كيف يبتعد عن الفراق ؛ لأنه على يقين من أنه لا يستطيع عصيانه أو التمرد عليه ، لأن البشر جميعا لا بد لهم من فراق مهما طال لبثهم في الحياة ، ومهما امتدت صحبتهم لمن يحبون ويألفون ، إذ لا خلود لأحد ، ولا ديمومة

* العكبري ٣٨٤/١. ، والبرقوقي ١٠٢/٢.

لمخلوق . ثم يذكر أنه يأسى على فراق صاحبه " أبي البهيّ " ويعد الجياد والرواحل التي تبعده عنه أشأم مركوب ، وأردأ مقتنى ، ثم ينهي المقطوعة بذلك البيت الرائع الذي يعد من أجمل ما يصور ضيق النفس وكربها ، وكراهيتها للحياة بما فيها ومن فيها ، وهو في حقيقة الأمر دليل ناطق على ما كان المتنبي يكنه من سخط ، وما يعانيه من تحطم الآمال ؛ لأنه لو وجد له ملاذا ومستراحا يطمئن إليه ويسعد به ما تجشم أعباء الرحيل وأهواله ، وهو من تلك المعاناة لا يذم الرحيل وحده بل يذم كل ما حوله ، ولا يجد في حياته ، ولا في زمنه وما يصادفه شيئا يستحق أن يحمد ، فليس الفراق وحده المستوجب للذّم بل إن الحياة كلها في تقدير شاعرنا ليس فيها ما يستأهل أن يُحمد !!.

[السياق السابع] *

أودُّ من الأيام ما لا تَودُّهُ
وأشكـو إليها بَيْنَنَا وهي جُنْدُه
وأتعبُ خلق الله من زاد همُّه
وقصَّر عما تشتهي النفس وُجْدُهُ

هذه إحدى مدحيات أبي الطيب كافوراً ، ومطلعها من قبيل الشكوى والبث النفسي الذي برع فيه الشاعر ، حتى صار سمة مميزة له ، وعلامة بارزة على شعره ، بدأ قصيدته مبينا أنه يريد من الأيام ما لا تريده ، وكأنها شريك معاند ، ورفيق مشاكس ، إن رغب في شيء رغبت هي عنه ، وواجهته بنقيضه ، وعكست عليه مراده ، والعجيب أن الناس ـ وهو واحد منهم ـ يطلبون من الأيام أن ترد لهم الأحبة ، وتعينهم على الفراق ، وهي نفسها التي صنعت بهم ذلك ، وهي تباعد بينه وبين الحبيب المواصل فكيف تعيد إليه القاطع الهاجر؟! وإذا كان من شأن الدنيا ألاَّ تُديم وصلا ولا سرورا ولا قربا بين متحابين فكيف يطلب منها أبو الطيب أن ترد له حبيبا ابتعد وفارق ؟! ثم يبين أن هذا الذي يرجوه ليس مستطاعا ؛ لأن من شأن الدنيا أن تفرّق وتبدد الشمل ، وليس منتظرا منها أن تتكلف ما ليس في طبعها ، وما جُبِلتْ عليه ودرجتْ ... ، وبعد استطرادة غزلية رقيقة في أربعة أبيات يعاود شاعرنا حديثه الذاتي المعبر ، فيبدو

* العكبري ١٩/٢ . ، والبرقوقي ١١٩/٢ .

حكيما مستخلصا العبرة والدلالة التي استفادها من تجربته العميقة ، ومِراسه بأحداث الحياة وصروفها فيقول : إن أكثر الناس معاناةً ونصبا من كثرت همومه ، ولم يبلغ من دنياه ما يريد ، وبعد أن يقرر تلك الحقيقة ينصح من له همة سامقة ، وتَوْقٌ لتحقيق الأمجاد ألا يضيع ماله في وجوه السرف الباطل ؛ إذ المجد محتاج منه إلى تلك الصيانة ، فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ، ولا مال لمن قل مجده ، فهما صنوان متآخيان ، ورفيقان متلازمان . ثم يبن أن الناس ليسوا سواء في مطامحهم ورغباتهم ، فمنهم من يقنع بالقليل ، بل منهم من يقنع بأن يكون مركوبه رجليه ، وثوبه جِلْدَه !! ويعلن أبو الطيب في صراحة ووضوح أنه ليس من هؤلاء الخاملين الذين يقنعون بالكفاف ؛ لأنه يحمل بين جنبيه قلبا لا يعرف للسمو غاية ، ولا للطموح مدى يُوقف عنده ، وهو لا يعلم لذلك التكوين الفطري الذي نشأ عليه تفسيرا ، فنفسه الطموح المتمردة لا ترتاح للترف والتنعم ، وتُفضّل على تلك الحياة الوادعة حياة الخطار والمصاولة ، فتختار أن تكسوها الدروع الخشنة المضنية بدلا من الثياب الرقيقة الناعمة ... ، إن ذلك القلب وتلك النفس تكلفان صاحبهما الرهق ، وتقتضيانه السفر في لفح الهجير ولهيب الصحراء ، معرضا حياته كلها للخطر ، ومُجشّماً مَنْ معه العناء ، فلا زاد له ولا لإبله إلا ما يرهقها البحث عنه والوقوف عليه بعد المشقة والعنت !!

أودُّ مِنَ الأيَّام ما لا تَودُّه   وأشكو إليها بيننا وهي جنده (١)

---

(١) بَيْنَنا : فراقنا وبعادنا .

يباعدن حِبًّا يجتمعن ووصلـه فكيف بحِبٍّ يجتمعْن وصَدُّه
أبَى خُلُـقُ الـدنيا حبيبا تُديمه فمـا طلـبي منهـا حبيـبا تردُّه
وأسرعُ مفعولٍ فعلتَ تغيُّراً تكلف شيء في طباعك ضِدُّه
وأتعَـبُ خلـق الله من زاد هَـمُّـهُ
وقَصَّر عما تشتهي النفس وُجْدُه
فلا ينحل في المجد مالك كله فينحلَّ مجدٌ كان بالمال عقده
ودبِّره تدبير الـــذي المجْدُ كَفُّهُ
إذا حــارب الأعــداء والمال زنده
فلا مجدَ في الدنيـا لمــن قلَّ مالُه
ولا مـال في الدنيا لمن قَلَّ مجده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومَـركُـوبُـه رِجْلاهُ والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبيَّ ما له مـدًى ينتهي بي في مُراد أحُدُّه
يـرى جسمَـهُ يُكْسَى شُفُوفـاً تَـربُّه
فيَخْتـار أن يكسى دروعاً تهده (١)
يكلفني التهجير في كل مهمه علِيقِي مراعيه وزادي رُبْدُه (٢)

---

(١) الشفوف : الثياب الرقيقة . تربُّـه : تجعله ناعماً مستريحاً .

(٢) التهجير : السَّيْر في حرّ الظهيرة . والمهمه : الصحراء الواسعة . والرُّبدُ : النعام التي خالط سوادها بياض .

[السياق الثامن] *

مـاذا لقيتُ من الدنيا وأعجبُها
أنّي بما أنا باكٍ منه محسودُ

هذه القصيدة من أمتـع وأروع نمـاذج الشـعر الوجدانـي عنـد أبـي الطيب ، وقد قالهـا فـي مناسـبة عيـد الأضحـى الـذي غـادر صبيحتـه مصر متخفيا ومطلعها :

عِيدٌ بأيَّةِ حالٍ عُدْتَ يا عيد   بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديد

وهي نفثة مكروبٍ ، وزفرة ملتاعٍ ، وتعبيرٌ عن همٍّ دفيـن ، وضيـق لا احتمال له ولا صبر عليه ، وهي تشي بما كان أبو الطيب على قناعـة به آنذاك من أنه لا مُقام لـه في مصر ، ولا أمل في أن تتحقق له فـي ربوعها آماله . يسترجع أبو الطيب في مطلع هذه القصيدة ذكرياتـه ، ويستعيد ما كان في أيامه الخوالي من مكاسب وأرزاء ، فيجد نفسه قد خاب سعيه وتبددت مطامحه ، وهذا العيد الـذي يوشـك أن يعـاوده لا يحمل له بُشريات فرح وحبور ، بل يضاعف من تنغيصـه وتنكيـده ؛ فالأحبة يزدادون بعدا ، وتحول المسافات الشاسعة بينه وبينهم ، وهـو لذلك يتمنـى أن لـو كـان ذلك العيد الـذي بعث عليـه الهمـوم وأثـار ذكريات الأسى مـا عـاد ولا أهَلَّـتْ لياليـه ، وليتـه كـان قاصيـا بعيـدا تفصله عنه بيد بعدها بيد !! ثم يذكر شاعرنا أنه مـا ابتعـد عـن أحبتـه إلا طالبا للمجد ، توّاقا إلى العلا ، ولولا ذلك ما لازمته السيوف وعدة

* العكبري ٢/٤١. ، والبرقوقي ٢/١٤٢.

القتال ، ولكان مُحتضِناً بدلا منها الغيد الحسان ، ثم يقول : إن ضياع الآمال ، وتبدد المطامح لم تُبق في نفسي موضعا للسلوى والتعزي ، وكل ما في الحياة من متع ولذائذ هي عندي مبعث اشمئزاز وتقزز ، وإني لأعجب من ساقييَّ ؛ لأن خمرهما لا تؤثِّر فيَّ ، ولا تسرِّي عني وكأنهما يجرعاني الهموم والتسهيد ، لقد تحجَّرتُ ، وتبلد شعوري ، فلم أعد أطربُ لما يُطرِب ، ولا أتأثر بما من شأنه أن يُؤثر ويُنسِي ، وهذه متع الحياة وأطايبها موجودة متاحة ولكن ما أحبه مايزال غائبا مفقوداً ، ومن أعجب العجب وأغرب الغريب أن الذين يحيطون بي ويرون ما أنا فيه يحسدونني ، وينفسون عليَّ رخاء العيش ووفرة المال ، وذيوع الصيت ، وما أقسى أن تكون محسودا على ما تشعر في قرارة نفسك أنه موضع شكواك ، ومصدر ضيقك ، وما ترجو منه الخلاص ، وتحتال لتبعده عنك !! ، ثم يقول ها أنا ذا مشهور بالثراء ، موسوم بالحظوة عند أرباب السلطان ولكنه في الحقيقة ثراء لا أساس له ؛ لأن أكثره قائم على وعودٍ لم تتحقق ، ومِطَال لم أجن منه سوى المعاناة ، وكأنه السراب الذي لا حقيقة له ، ولا جدوى من الجري وراءه .

عِيدٌ بأيَّةِ حال عُدتَ يا عيد ... بما مضى أم بأمر فيك تجديد
أمَّا الأحبة فالبيداء دونَهم ... فلَيْتَ دُونك بيداً دونها بيد

لولا العُلَى لم تجُب بي ما أجوب بها
وجناءُ حَـرفٌ ولا جـرداء قيــــدود (١)
وكان أطيب من سيفي مضاجعة
أشبـاه رونقـه الـغِـيـدُ الأمـالـيـدُ (٢)
لم يترك الـدهـر من قلبي ولا كبـدي
شيـئـًا تُـتَـيِّمُـهُ عَـيْنٌ ولا جِـيـدُ
يا ساقِيَـيَّ أخمـرٌ فـي كئوسِكُما
أمْ فـي كئوسـكُمـا هَـمٌّ وتَسهيـدُ
أصـخْرةٌ أنا مـا لـي لا تُـغَـيِّرني
هـذِي المُـدامُ ولا هـذِي الأغـاريـدُ ؟!
إذا أردتُ كُمَيْتَ الخمر صافية
وجَـدتُـهـا وحبيـب النَّفْـس مفْـقـود
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها أني بما أنا باك منه محسود
أمسيْتُ أرْوَحَ مُثْرٍ خـازنا ويداً
أنـا الـغَـنِـيُّ وأمـوالـي الـمـواعـيـد (٣)
إنِّـي نزلْـتُ بكـذابين ضيـفـهم
عَـنِ الـقِـرى وعـن الـتَّرحـال محدود
جود الرجال من الأيدي وجُودُهُمُ
مِـنَ اللـسـان فـلا كـانـوا ولا الجـود

(١) تجوب : تقطع . الوجناء : الناقة العظيمة الوجنات . والحرف : الناقة الضامرة .
والجرداء : الفرس القصير الشعر . والقيدود : الطويلة .
(٢) الأماليد : الناعمات . (٣) أروح : أكثر راحة . مُثْرٍ ، من الثراء .

[السياق التاسع] *

ونفْسٍ لا تُجِيبُ إلى خسيسٍ
وعَيْنٍ لا تُدارُ على نظِيرِ

هذا البيت في تقديري يمكن عدُّه مفتاح شخصية أبي الطيب ، تلك الشخصية التي تعتد نفسها لا نظير لها ولا ضريب ، وهي مع ذلك لم تلق من دهرها الإنصاف ، ولا من أهل زمانها الاعتراف بالفضل ... والبيت من قصيدة وجدانية طريفة يفخر فيها بنباهة شأنه ويهجو فيها أحد مناوئيه المعرف بـ " ابن كَرَوَّس " .

يتساءل أبو الطيب في بداية قصيدته عمن يفهم سرَّ صراعه مع دهره ، ويعذره في خطوب حياته ، ولا يلومه في حملته العاتية على تلك الخطوب والكيد لها ، والتماس الفرصة للنيل منها ، ويبيِّن أنه حشد لتلك الخطوب كل ما يستطيع من عُدَدِ النضال ، وأسلحة النزال وأنه رحل في سبيل ذلك ، ولم يذق طعم الراحة ، ولا سكن جنبه مطمئنا كما يفعل غيره ، وتنقل بين بيوت البدو ، وعلى ظهور الرواحل ، وتعرض للأخطار ، وتجشم الأهوال والصعاب ، وسرى في الليل غير هائب ولا وجل ، ومع تلك المعاناة والخطار بالنفس والنفيس لم ينل من دهره ما يُؤمِّل ، ولم يحقق ما يرجو ، ويا لقسوة ما يعاني بسبب إخفاقه على الرغم من شدة شغفه ، وإلحاحه في الطلب ، وبذله كل ما يستطيع دون جدوى ، وهو مع ذلك كله لا يحس أنَّ نفسه يمكن أن تطاوعه إلى طلب الدعة ، أو تسول له أن

---

* العكبري ١٤٣/٢. ، والبرقوقي ٢٤٧/٢.

ينسى وينصرف ؛ لأنها نفسٌ طُلَعة ، لا توافق صاحبها على الركون إلى ما يشين ، إذ لا ترى لها نظيرا في أخلاقها وقُدُراتها ؛ لذا ترفض أن تدع المطالبة بحقها في أن تسود وتُحترم ، وتنال مكانة هي أحق بها وأجدر . ثم إنها شخصية معطاءة ، تسخو بما تملك ، ولا تمنع لائذاً بها يطلب رفدها ، ولا تعرف أن تمنع شيئاً إلا أن يكون في بذله تضييع للشرف أو العرض والكرامة ، أما ما عدا ذلك فلا تضن به ، ولا تبخل ببذله لمُعْتَفِيه . وهذه الخصال الرفيعة ، والأخلاق النبيلة التي اجتمعت في نفس شاعرنا ، ولا تكاد توجد عند غيره ، أو تتحقق فيمن عداه يكون حظها من دهرها الإهمال والإغفال ولا تجد من يتعاطف معها أو يَقْدُر إحساساتها ، لذا يدعو أبو الطيب على دهره أن يبتلى بدهر وحظ أشد نحسا مما أصابه به ، ورضيه له ويتضاعف الشعور بالاضطهاد في نفس شاعرنا فيصورُ له وجدانه المكلوم أن الدهر كله يناصبه العداء ، ويتربص لإيذائه ، ويقف له بالمرصاد ، حتى لكأن الآكام التي يمر بها في رحلاته مُوغَرة الصدر عليه ، تنتظر منه فرصة لترميه بما يُهلك ، وهو مع ذلك ليس محسودا على مجد حصّله أو منزلة نالها ، أو ولاية تقلّدها ، ولو كان الأمر كذلك لهان الخطب ، ولكنه محسود على حياته نفسها ، وكأن خصومه لا يرضيهم إلا التخلص منه ، والقضاء عليه ؛ لأنهم لا يستريحون لوجوده إلى جوارهم ، لخوفهم منه وشعورهم بالخطر من شخصية الفذة التي لا يستطيعون مجاراتها أو مطاولتها ، وهذه الأحقاد التي يكنونها لي ـ كما يقرر المتنبي ـ لو كانت من أجل نفع حصلته ، أو سرور نعمتُ به لهان عليَّ الخطب ، ولكنهم يحسدونني

على حياتي التي أشقى بها وأعيشها منغصا تعسا ، وهو شبيه بقوله فيما تقدم : " ... وأعجبها أنّي بما أنا باكٍ منه محسود !! " .

عَذيري مِنْ عذارى من أمور
سَكَنَّ جَوانِحي بدل الخُدور
ومبتسمات هيْجاوات عصر
عن الأسياف ليس عن الثغور
ركبتُ مُشمّرا قدمي إليها
وكُلَّ عُذافِر قلق الضفور (١)
أواناً في بيوت البدو رحْلِي
وآونَةً على قَتَدِ البعير
أعرّضُ للرماح الصُّمّ نَحْري
وأنْصِبُ حُرَّ وجْهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي
كأنّي منه في قمر مُنير
فقُلْ في حاجة لم أقض منها
على شغفي بها شَرْوَيْ نقير (٢)

---

(١) العذافر : القويُّ من كل شيء وأصله من أسماء الأسد . والضفور : الحبل . والمعنى أنه يركب لتلك الهيجاوات الجمل القويَّ الذي يضنيه السفر حتى يضمر وتتسع حبال رحله وتقلق .

(٢) فقل في حاجة : يقصد قل ما شئت .. وهو على سبيل التعجيب . شروي نقير : يضرب مثلاً للشيء الحقير ، وشروى الشيء مثله ، والنقير غشاء رقيقٌ يكون على ظهر النواة .

ونَــفْــسٍ لا تُجِيبُ إلــى خسيس
وعَـيْــنٍ لا تُــدار علــى نظـــيـر
وكَفٌ لا تُنــازع مَــن أتـانِي
يُنــازعـنــي سوى شَرفي وخِيري
وقِلَّة ناصر جُوزِيتَ عنِّي
بِـشَــرٌ مِـنْــك يا شَــرَّ الـدُّهــور
عَدُوِّي كُلُّ شيءٍ فيكَ حتى
لَــخـلْـتُ الأُكْــمَ مُوغَـرة الـصُّدور
فلو أنِّي حُسِدْتُ على نفيس
لَجُــدتُ بِــه لِـذِي الـجَـدِّ الـعَـثور
ولكني حُسِدت على حياتـي
ومــا خــيْـرُ الـحـيـاةِ بـلا سُـــرور

[السياق العاشر] *

وتَرْكُكَ في الدنيا دويًّا كأنّما
تداولَ سمعَ المرءِ أنمُلُه العَشْرُ !!

وهذه مدحية من مدائح أبي الطيب في مطلعها شكوى ممضة وفخر مدوٍّ ، يعاود فيها الشاعر تأكيد معنًى طالما كرره وألح عليه ، وهو أنه يصارع الدهر وحيدا لا معين له إلا صبره وجرأته وقوة نفسه ، وشدة جلده ، وليس هناك من هو أشجع منه ، وسلامته من تلك الأهوال والأخطار دليل على عظم شأنه ، وصدق بلائه ، وهو لذلك كله يتوقع مجدا باذخا ، ونصرا مؤكدا !! ثم إنه قد تمرس بالأرزاء ، وبلا الأخطار ، حتى يئست الخطوب من القضاء عليه ، وفشلت في الإيقاع به ، وانصرفت عنه حائرة متعجبة ، هل خاف منه الموت ؟ هل ذعر منه الذعر ؟ إنه يُقدم في مواقف النزال إقداما يرهب الخصوم ، ويُجفل المناوئين ، وكأنه لا يحمل بين جنبيه نفسا واحدة بل نفوسا كثيرة ، كلما هلكت إحداها قامت الأخرى مقامها ، وسدت ثُلْمتها ، أو كأنها نفوس متصارعة لكل منها عند الأخرى ثأرٌ تطلبه !!

ثم يستخلص العبرة من ذلك الوصف الذي وصف به نفسه ، فيطلب من سامع شعره ، ومحب مذهبه وفلسفته أن ينهج في الحياة نهجه ، ويسلك مسلكه ، فيأخذ حظه من الحياة على حسب ما يريد لا على حسب ما تمنحه الظروف ، ويسمح به الزمان ، ولْيُقْدِمْ العاقل إقدامه

* العكبري ١٤٩/٢. والبرقوقي ٢/ ٢٥٤ .

وليخاطر خطاره ؛ لأن للإنسان أجلا محدودا ، وهو مفارق دنياه لا محالة ، فلا مناص من التشمير عن ساعد الجد ، إذ المجد ليس شيئا هينا مبذولا ، بل هو قرين الخطر والإقدام ، وناتج تضريب أعناق الملوك ، وأن تثير في محيطك الزوابع ، وأن تترك حولك دويًّا يُصِمُّ الآذان ، ويرعب القاصي والداني ، ويخوّف القريب والبعيد ، حتى ليكاد من يسمع ذلك الدويّ يضع أصابعه كلها في أذنه حتى يحول بين سمعه وبين ذلك الدوي المرعب !! .

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر

وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر ؟!

وأشجع مِنِّي كل يوم سلامتي

وما ثَبَتَتْ إلا وفي نفْسها أمْرُ

تمرَّسْتُ بالآفات حتى تركْتُها

تَقُول : أمات الموتُ أم ذُعِر الذعرُ

وأقدمتُ إقدام الأتيّ كأنّ لي

سِوَى مُهْجتي أو كان لي عندها وتر (١)

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها

فمُفْتَرقٌ جاران دارهما العُمْرُ

ولا تحسَبَنّ المجْدَ زِقًّا وقينة

فما المجْد إلا السيْفُ والفتكة البكْرُ

---

(١) الأتِيُّ : السيل الذي لا يردُّه شيء .

٨٠

وتضريب أعناق الملوك وأن تُرَى

لك الهبوات السود والعسكر المجر (١)

وتركك في الدنيا دويا كأنما

تَـداول سـمـع المرءِ أنمُلُه العشر

(١) الهبوات : الغبرات العظيمة ، أي الغبار الذي تثيره المعارك . والمجر : الجيش العظيم .

[السياق الحادي عشر] *

وهانَ فما أُبالِي بالرَّزايا
لأنِّي ما انتفعْتُ بأنْ أُبالي

هذه مرثية أبي الطيب والدةَ سيف الدولة ، وعلى الرغم من أن نغمة التعبير عن الذات فيها خافتة إلا أن الملاحظ أن المتنبي استطاع أن يجعل من تلك المناسبة الحزينة منفذا لبث شكواه ، والتنفيس عن همومه ، وإرسال ملاحظاته وتأملاته حول عِبَر الحياة وصروفها ، وقد بدأها بداية حِكْمِيَّة تأملية ، فبيَّن أن الناس يعادي بعضهم بعضا ، ويهيء كل فريق عُدَدَ القتال للآخرين ، ومن العجيب أن الأقدار تخبيء لهم آجالهم التي يفاجأون بها فتقتلهم بلا قتال ، وتباغتهم على حين غرة ، ثم يشاطر الأمير أحزانه ، ويواسيه في مصابه ، ويعزيه عما ألمَّ به قائلا له : إني قد ألفتُ الحزن وتمرست به ؛ لأن الدهر رماني بأرزاء لا تكاد تحصى ، ويصور ذلك في صورة بديعة ، صورة القلب الذي أصابته السهام والتصقت به من كل جانب ، وتعلقت به من كل ناحية ، حتى صار ما يستجد منها يتحطم على ما تعلق بقلبه أوّلاً !! لقد هونت تلك الإصابات من اكتراثه بالرزايا ؛ إذ لم يُجد عليه اهتمامه فيما مضى شيئا ، فصار لا يعبأ بما يلم به من آلام وأحزان ، إذ صارت متوقعة غيرمستغربة .

---

* العكبري ٣/١٠ . والبرقوقي ٣/١٤٢.

نُعِـدُّ المشرفِيَّـة والعـوالي   وتقتلنـا المنـون بلا قتال (١)
ونـرتَبِط السوابق مقربات   وما ينجين من خبب الليالي
ومَنْ لَمْ يعشق الدنيا قديما   ولكن لا سبيل إلى الوصال
نصيبُكَ في حياتِك من حبيب
نصيبُكَ في منامِك من خيال
رمانِي الدهـرُ بالأرزاء حتَّى
فُؤادي فـي غِشـاءٍ مِنْ نِبـال
فصِرتُ إذا أصابَتْني سهامٌ
تكَسَّرت النِّصال على النصال
وهـانَ فَمـا أُبالـي بالرزايا
لأنِّي مـا انْتَفَعْتُ بـأنْ أُبالِـي !!

(١) المشرفية : السيوف ، والعوالي : الرماح .

[السياق الثاني عشر] *

أذا الجودِ أعْطِ الناسَ ما أنتَ مالكٌ

ولا تعطِيَنَّ الناسَ ما أنا قائلُ

إحدى مدائح أبي الطيب أميره الأثير عنده ، الحبيب إلى قلبه : سيف الدولة . وفي ثنايا مديحه له عرّج على جود الممدوح وكرمه وسخائه بما تملك يده ، حتى ولو كان محتاجا إليه ، ثم احترس فقال للأمير : أخشى أن يدفعك سخاؤك بما في يدك ، وبذلك ما يطلب منك أن تَمنح ما أهديتُك من شعر ، أو تَهب ما قلدتك من ثناء ، وهنا نلمح اعتزاز أبي الطيب بشعره وتقديره لشاعريته ، وثناءه من طرف خفيٍّ على الممدوح ، والتأكيد على أنه وحده دون سواه المستحق لمديحه ، الجدير بقلائده وروائعه ، أما غيره فلا ، ثم يتسلل من ذلك المعنى إلى الحديث عن خصومه الحاقدين عليه ، الذين ينفسون عليه براعته الشعرية ، فيقول إنه مبتلى بهؤلاء الأدعياء الذين يطاولونه ويشغبون عليه ، ويجتهدون في النيل منه ، ويعتدون ذلك سبيلا للشهرة ، وذيوع الصوت ، ويؤكد شاعرنا أنه لا يعبأ بأمثال هؤلاء ، ولا يعيرهم اهتماما ، ويسخر منهم في قرارة نفسه ، ويدرك أن صمته عنهم أنكى عليهم وأوجع لهم ، ويؤكد أنه ليس من طبعه التطاول والفخر بنفسه وشاعريته ، ولكنه يضطرلذلك بسبب ادعاء أمثال هؤلاء الأغبياء المتعاقلين ، ومن أهم ما يدعوه إلى إهمالهم ، وعدم

---

* العكبري ١١٧/٣ والرقوقي ٢٣٦/٣ .

الالتفات إلى مزاعمهم ـ ثِقَةُ الشاعر في تقدير سيف الدولة له ولشاعريته ، وهو على قناعة بأن الأمير لن يتوانى عن تلبية مطالبه ، وتحقيق رغباته ، ثم يعاود المتنبي الفخر بشعره في مديح الأمير مما أصاب خصومه بالحنق والإحباط ؛ لعدم قدرتهم على مجاراته فيما ينظم ويبدع ، ويترقب أبو الطيب لفتة ذكية من الأمير يراجع فيها هذه الحقيقة ، ويكبت الأدعياء ، ويضع الأمور في نصابها الصحيح ؛ ليريح شاعره الأثير ، وينتصف له من حساده الحاقدين .

أذا الجُود أعط الناسَ ما أنتَ مالكٌ
ولا تُعْطِينَّ الناسَ ما أنا قائلُ
أفي كل يوم تحت ضِبْني شُويعِرٌ
ضعيفٌ يقاويني قصير يُطاول (١)
لساني بنطقي صامت عنه عادل
وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأَتْعَبُ من ناداك من لا تجيبه
وأغْيَظُ مَنْ عاداك من لا تشاكل
وما التِّيهُ طبّي فيهم غير أنني
بغيضٌ إليَّ الجاهِل المتعاقِل (٢)

---

(١) ضبني : الضبن ما تحت الإبط إلى الخاصرة ، وهو الحضن .

(٢) التيهُ : الكِبْر والتعالي . طبّي ، الطِّبُّ هنا : العادة والديدن .

٨٥

وأكْبَر تَيْهِي أنَّنِي بِكَ واثِقٌ
وأكْثَرُ مالي أنَّني لكَ آمِلُ
لعل لسيف الدولة القَرْمِ هَبَّةً
يعيشُ بها حَقٌّ ويهلك باطلُ [1]

(١) القرم : السيد ، وأصله البعير المكرَم الذي لا يُحمل عليه ولا يذلل .

[السياق الثالث عشر] *

ومن يبغِ ما أبغِي من المجدِ والعُلا

تَسَاوَى المُحَايِي عنده والمُقاتلُ

هذه قطعة بديعة من شعر الصبا ، يتضح منها علو همة أبي الطيب ، ورسوخ نزعة الاعتزاز والثقة بالنفس فيه منذ مقتبل العمر ، وقد بدأها الشاعر مخاطبا صديقيه المتخيلين — على عادة الشعراء العرب القدامى ـ قائلا لهما : تمهلا قليلا لتريا كيف يتحقق ما حدثتكما عنه من عُلُوّ شأني ، فقد بدتْ مخايله ، وظهرت أماراته ، ولا تخشيا خُلفا لذلك ، ثم تحدث عن خصومه فبين هوان شأنهم ، وأن بعضهم يعيبه بما هو موصوم به مشهور عنه من عيوب ، وبعضهم جاهل يظن ـ كما يقول أبو الطيب ـ أنِّي لا أدري حقيقة جهله ، ولو أنصف هؤلاء ونزعوا عن أعينهم غشاوات الحقد لأدركوا أنني لو ملكت أقطار الأرض ، وبلغت عنان السماء لكان ذلك كله أقل مما أستوجب وأدنى مما أستحق ؛ لعلو همتي ، وسموق آمالي ومطامحي وإنني في حلمي ووقاري كالجبل الأشم الراسخ الذي لا يتحرك ويضطرب إلا لأمرٍ جلل ، وهكذا أنا إذا رأيت من يعتدي عليَّ ، أو يقصد إهانتي عندئذٍ سأثور وأغضب وأُستَفَزُّ ، كما يضطرب الجبل إذا وقع به زلزال ، وأنا إن شعرت بأن موضعا من الأرض سيعرضني للضيم ، أو تُنْتَقَصُ فيه كرامتي رحلتُ عنه ، وأضنيت

* العكبري ٣/١٧٧. والبرقوقي ٣/٢٤٩ .

إبلي طلباً للابتعاد عنه والنجاة من براثنه ، وصارت إبلي تقدح الحصى الذي يضيء لي ولرفاقي في ظلمة الليل ، وكأننا على ظهور تلك الرواحل نقطع الفيافي الواسعة ــ في موج متدافع وسط بحر واسع متلاطم ، لا ساحل له ، ويشبّه الصحروات التي يقطعها بأصداء الصوت التي تتجاوب في الفضاء الفسيح . ثم يبين شاعرنا أن من كان على شاكلته أو أمّل من المجد ما أمّل استهان بالخطوب وتساوى عنده الحياة والموت ؛ ليقينه بأن ما يطلبه ، ويسعى لتحقيقه محوط بالأخطار ، محفوف بالمهالك ، ومن جعل له هدفا سامياً فعليه أن يسترخص الموت ولا يحرص على الحياة . ثم يذكر أنه لكثرة أسفاره وتنقله في المفاوز والصحراوات المترامية الأطراف كأنها تقذفه من موضع لآخر ولا تريد أن تحتفظ به أو تسمح له بالبقاء ، كما تكره الآذان سماع كلام العذال وترمي به غير عابئة به ، وتأتي بعد ذلك درة هذه القصيدة وهو قوله :

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلا

تساوى المحايي عنده والمقاتل

يريد أن يبن أن من طلب ما أطلب من المجد ، وتطلّع لمعالي الأمور وسامِقِ الرتب فلا بدّ له أن يستهين بالأخطار ، وأن يوطن نفسه على ملاقاة الشدائد ، وأن يستوي في نظره الموت والحياة ، طالما كان حريصا على بلوغ ما يطمح إليه ، ويسعى لتحقيقه .

ثم يوجه تهديده لأعدائه مبينا لهم أن المعركة بينه وبينهم لا مفر منها ، ولا هوادة فيها ، وأنه عازم على الفتك بهم والقضاء عليهم ،

ووسيلته لذلك مناصبتهم العداء ، ومبادرتهم بالنزال ، وليس عن طريق المكر والدس والخداع ، وأن السيوف التي سيحمل بها عليهم لا تفرق بين مقبل ومدبر ، أو شجاع وجبان ، بل ترغم الجميع . ثم يختم قصيدته ببيان أن شغله الشاغل ينصبُّ على ما يحفظ عليه كرامته ومكانته ، ولا يقبل هوانا أو دنِيَّة فيما يتصل بذلك الجانب ، ولا يعبأ بنعومة العيش وطيب المأكل والمشرب ، بقدر ما يعنيه أن يحيا موفور الكرامة ، مرعيَّ الجانب .

قِفا تَريا ودْقِي فهاتا المخايل
ولا تخشيا خُلْفاً لِما أنا قائلُ (١)
تُحَقِّرُ عندي همَّتي كلَّ مطلَبٍ
ويقصر في عيني المدى المتطاول
وما زلتُ طودا لا تزول مناكبي
إلى أن بَدَتْ للضَّيْمِ فِيَّ زلازل
فقلقلت بالهَمِّ الذي قلقل الحشا
قلاقِل عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ (٢)

---

(١) الودق : المطر . والمخايل : البروق وما يستدلُّ به على المطر . والخُلف : إخلاف الوعد . المعنى : يقول لصاحبيه المتخيلين : انتظرا قليلا فستريا من أمري شأناً عظيماً ؛ فقد ظهرت بداياته وأماراته ، ولن أُخلفكما الوعد !! .

(٢) قلقل : حرَّك . والحشا : ما بداخل الجوف . قلاقل العيس : النُوق الخفيفة سراع الحركة . والمعنى : لقد حركتُ بسبب الهموم التي اضطربت لها نفسي الإبل السريعة ، والبيت مثال على تنافر الحروف وثقل التركيب .

إذا الليـل وارانا أرتْـنـا خِـفـافُـهـا
بقدح الحصى ما لا ترينا المشاعلُ
كأني من الوجناء في ظهر موجة
رمتْ بـي بحـاراً ما لهُن سواحِـلُ
يُخَيِّلُ لِـي أنَّ الـبـلاد مـسـامـعـي
وأنِّـيَ فـيـهـا مـا تـقـول الـعـواذل
ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلا
تَـسـاوَى المُـحـايِـي عنده والمُقاتـل
ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم
ولـيـس لـنـا إلا السُّيُـوف وسـائِـلُ
غثاثة عيشي أن تغث كرامتي
ولـيـس بِـغَـثٍّ أن تَـغَـثَّ المـآكِـلُ (١)

---

(١) غثّ الشيء : هزُل ، وهو هنا يريد سوء العيش وهوانه .

[السياق الرابع عشر] *

أرى المتشاعرين غُرُوا بِذَمِّي
ومَنْ ذا يحمَدُ الداءَ العُضالا

وهذه مدحية بارعة من مدائح أبي الطيب ،اختص بها " بدر بن عمار " ، وكان ممن يقدرهم المتنبي ويعجب بهم ، بدأها بداية غزلية رقيقة ، وتخلص منها إلى الشكوى والتعبير عن إحساساته الذاتية تخلصا بارعا بقوله :

كأن الحزن مشغوف بقلبي فساعة هجرها يجد الوصالا

وبيَّن أن هذا هو حال الدنيا مع من كان قبله من أهل الفضل والمروءة إذ لم تَصْفُ لهم ، ولم ينالوا منها ما هم به جديرون ، وهو يشعر بهذا الجوّ الغادر حتى في أحلى أوقات السرور ؛ ليقينه من أن سعادة الإنسان في الدنيا لا تدوم .

ثم يؤكد أنه قد ألف الترحُّل ، حتى غدا خشب الرحل ، والنجائب من الإبل أرضه ومستقره ، وما عرف في حياته قرارا بأرض ، أو رحيلا عن أرض ، فهو يتحول هاهنا وهاهنا كأنه مقيم على بساط الريح ... ، وبعد أن يفيض في مدح بدر بن عمار يعرج على أمر آخر من شعر الذات فيذكر أن أدعياء الشعر والمتطفلين على حياضه قد دأبوا على التشنيع على أبي الطيب والانتقاص منه ؛ أملا في أن يطامنوا من مكانته ، أو يهونوا من شأنه ، وهو على قناعة بأن أمثال

* العكبري ٣/ ٢٢٨ . والرقوقي ٣/ ٣٤٤.

هؤلاء الفاشلين لا مناص لهم من أن يُعادُوا مثله ويكرهوا مكانه ؛ لأنَّ تفوقه وعلو شأنه وبراعة شعره يسبب لبضاعتهم الكساد ، ولا يدع لأي منهم فرصة للظهور أو الاشتهار ، فشخص أبي الطيب وشعره بالإضافة لهؤلاء كالمرض العضال الذي لا شفاء منه ، ولا أمل معه في البرء أو النجاة . ويبين بعد ذلك أن عيبهم شعره ليس مرده إلى أن شعره معيب على الحقيقة ، بل سببه أن أذواقهم سقيمة وفهمهم للشعر ومقومات جماله فَهْمٌ معوجٌ ، وشَبَّه حالهم هذا بحال المريض الذي يشرب الماء الزلال الطيب فيجد له مرارة في فمه ، وليس الماء مُرًّا في حقيقة الأمر ، بل العيب في ذوق ذلك المريض وبسبب علته ، وكذا حال هؤلاء المتشاعرين مع المتنبي ، إذ ليس العيب في شعره ، بل العيب فيمن حكموا عليه هذا الحكم الظالم ؛ إما لأنهم لم يفهموا ذلك الشعر ، ولم يقدروه قدره ، وإما لأن حقدهم على قائله منعهم الإنصاف ، وحال بينهم وبين إعطائه ما يستحق من تقدير ثم يقول لممدوحه : إن خصومي قد حاولوا أن يقللوا عندك من أمر شعري ، وزعموا أنه لن يفيدك أو يرفع ذكرك وشهرتك ، وأنا أؤكد لك ولهم أن شعري وبياني كفيل بأن يعلو بك إلى عنان السماء إذا أنا لم أبالغ في الثناء عليك ، وتنزلت بك عما يليق برتبتك !!

كَأنَّ الحُزن مَشْغُوفٌ بقَلْبِي

فساعة هجْرها يجِدُ الوِصالا

كذا الدنيا على من كان قبلي
صُروفٌ لم يدمْنَ عليه حالا
أشدُّ الغم عندي في سرور
تَيَقَّنَ عنه صاحِبُه انتقالا
ألِفْتُ ترحُّلي وجعلتُ أرضي
قَتُودي والغُريْرِيَّ الجلالا (١)
فما حاولتُ في أرض مقاما
ولا أزْمَعْتُ عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تحتي
أوجِّهُها جَنُوباً أو شِمالا

....

....

أرى المتشاعرين غروا بذمّي
ومَنْ ذا يَحْمَدُ الدّاء العُضالا
ومن يَكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريض
يَجِدْ مُرًّا به الماء الزُّلالا
وقالوا هل يُبَلّغك الثُّريا
فَقُلْتُ نَعَمْ إذا شِئْتُ اسْتِفالا

---

(١) قتودي : القتود خشب الرحْل . والغريريُّ : فحلٌ معروف عندهم ، والجلال : العظيم الضخم . والمعنى أنه اعتاد الترحُّل والأسفار ، حتى غدتْ ظهور الرواحل أرضه ومستقره.

[السياق الخامس عشر] *

مَنْ لِي بفهْم أُهَيْلِ عصرٍ يَدَّعِي

أن يحسب الهنديَّ فيهم باقِلُ

مدحية رائعة قالها أبو الطيب مادحاً القاضي أبا الفضل الأنطاكي ، تفنن فيها شاعرنا وأطلق لشاعريته العنان ؛ إذ يخاطب قاضيا راجح العقل ، بعيد الغور في العلم والفقه ، فأراد أن يكون مدحه على قدر رتبة ممدوحه ومكانته وعقله ، وتتأكد لدى القاريء من افتتاحيتها أن أبا الطيب كان يعد لكل ممدوح ما يناسبه ويروقه ، ويراعي أن يكون لكل مقام مقال وهو يفخر في بداية هذا الجزء الذاتي من القصيدة بقدرته على مواجهة الممدوح وبذل المديح له ، في حين يستعصي ذلك على غيره من الشعراء مهابة للقاضي ، وخوفا من التقصير عن بلوغ ما ينبغي أن يقال له ، وذلك بقول أبي الطيب مُدِلا متباهيا :

لا تَجْسُر الفصحاء تُنشد هاهنا

بيْتاً ولكنِّي الهِزَبْرُ الباسِلُ !!

ثم يفيض في تقدير شعره وشاعريته فيذكر أن شعراء الجاهلية على روعة شعرهم ، وارتفاع شأنهم لم يحصّلوا من عذوبة الشعر ما حصل ، ولم يبلغوا من البيان المؤثر ما بلغ ، ولم يصل سحر بابل شأو فنه ، ثم يعرج على حاسديه وكائديه فيبين للممدوح أن عليه ألا يصيخ لدعاوى هؤلاء ، وأن يتيقن من أن ذمَّ أيٍّ منهم لأبي الطيب

* العكبري ٣/٢٦٠ . والبرقوقي٣/٣٧٧.

هو أقوى دليل على علو كعبه وارتفاع قدره ، لأنها مذمة صـادرة مـن دعيٍّ ناقص ، فلا غرو ـ كمـا يقـرر المتنبـي ـ أن كـانت دليـلا علـى كمالي وتفوقي ، ثم يظهر أبو الطيـب حيرتـه فـي تفسير طبـائع أهل زمانه الذين يجترئون على الكذب والادعاء ، وقلب الحقائق وتشويهها ولذا عبر عنهـم أبـو الطيـب بصيغـة التحقـير " أهَيْـلَ عصـرٍ ... " ؛ زراية عليهم وتسفيها لهم .

لا تجسر الفصحاء تنشد هاهنا

بيْتـاً ولكِنـِّي الـهزبـر البـاسِــلُ

ما نال أهـلَ الجاهـليـة كـلـهـم

شِـعْري ولا سمعَتْ بسحري بابلُ

وإذا أتتك مذمَّتِـي مـن ناقص

فـهـي الشَّـهـادة لـي بأنِّـي كامـلُ

من لي بفهم أهيل عصر يدَّعي

أن يحسب الهـندي فيـهـم باقِــلُ (١)

---

(١) باقل : رجل ضربت به العرب المثل في العيِّ والغباء ، قالوا إنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهمـا ، فمر بقوم فقيل له : بكم اشتريته ؟ ففتح يديه وفرق أصابعهما وأخرج لسانه ، يريـد أحد عشر فأفلت الظبي ، يقول المتنبي : إنني لا أجد من يكفل لي فهم أهل زماني هذا الذيـن يقلبون الحقائق ، ويدعون أن باقلا الذي تأكد للجميـع غبـاؤه كـان فطنـا قـادراً علـى أن يـدرك حساب الهند الذي اشتهر بدقته .

[السياق السادس عشر] *

إنّا لَفِي زمَنٍ تركُ القبيح به
من أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجْمالُ

وهذه من بدائع شعر أبي الطيب ، مدح بها صديقه الأثير لديه في مصر أبا شجاع فاتكا ، وكان أبو الطيب محبا له ، مفتونا بمروءته وإقدامه ، وعبارات أبي الطيب في هذه القصيدة تؤكد هذا الحب والتقدير والإعزاز ، بدأها بالمطلع المشهور الذي غدا بعد ذلك سائرا مسير الأمثال ، وهو قوله :

لا خَيْلَ عندكَ تُهديها ولا مال
فليُسعد النطقُ إن لم يُسعِد الحال
واجز الأمير الذي نُعماه فاجئة
بغَيْر قَولٍ ونُعمَى النَّاس أقوال

وأفاض أبو الطيب بعد ذلك في الثناء على الممدوح ، والحديث عن علو شأنه ، وأن وفاءه للأمير واجب عليه ؛ لأن أفضاله تتابعت دون أن يُطلب منه رفد ، أو يكون إلحاح عليه للنوال ، وشُكْرُ المنعم واجب لا يقصر عنه إلا لئيم ، وهو هنا يلمح إلى أنه لا يستطيع أن يبوح بحبه كله لفاتك مخافة أن يتغير قلب كافور عليه ، ويعتذر مشبها حاله في هذا الموقف الذي لا حيلة له فيه بحال الفرس الجواد الذي كبلته القيود فعاقته عن الحركة ، ومنعته من أن تظهر أصالته ،

* العكبري ٣/ ٢٨٧. والبرقوقي ٤٠٧/٣

ويتبين غناؤه ، وهو لا يثني عليه طلبا للنوال بل يؤدي واجب الشكر ويردّ له الجميل ، ويرى أن من العيب أن يلقى من الممدوح التقدير ثم يضن عليه بالثناء ، ويؤكد لصديقه فاتك أن صنائعه وأفضاله لدى الشاعر لن تضيع سدى ، وأنها صادفت تربة خصبة ، وأرضاً معطاءة ، ويبين أن الممدوح عارف بأقدار الرجال ، فصنائعه لا تذهب إلا لأهل الفضل والاستحقاق في حين أن الغيوث لا تفرق بين الأرض الخصيبة والأخرى السبخة الرديئة .... ، وبعد أن يفيض أبو الطيب في مديح فاتك ، وتعديد مآثره يتحول متحدثا عن نفسه ، مرسلا رؤاه الحكيمة ، ولفتاته الرائعة ، كعادته في معظم شعره ، فيبين أنه لولا ما تتطلبه المروءة والشرف من جهد ، وما تقتضيه من تضحيات لكان الناس سواء في الفضل والسيادة ، ولكن الجود يفقر ، والإقدام قد تكون عاقبته الهلاك ، ولا يبلغ الإنسان من ذلك إلا بمقدار مروءته وسموق همته ، ثم يذكر أن أهل زمنه قد اهتزت لديهم معايير الأخلاق ، وأصبح الذي يترك اقتراف الموبقات مُحسنا مُجيدا فأين رتبة من يفعل المكرمات ، ويتخلق بأخلاق الكرام ؟! ، ثم ينهي القصيدة بالثناء على الأمير الممدوح لأنه خلّد ذكره بأعماله وجوده وحسن بلائه ، وهذا ما ينبغي أن يحرص عليه العقلاء ؛ لأن الذكر الطيب للإنسان هو عمره الممتدُّ الذي لا يَفنَى ولا يُنسَى ولا يزول ! .

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

واجز الأمير الذي نُعماه فاجئة
بغيْر قَول ونُعْمى الناس أقوال
وما شكرت لأن المال فرّحني
سِيّانُ عندي إكْثارٌ وإقْلال
لكنْ رأيت قبيحا أن يُجادَ لنا
وأنّنا بِقَضاءِ الحقّ بُخّالُ
....
....
لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجُود يُفْقِرُ والإقْدام قَتّالُ
وإنما يبلغ الإنسان طاقته
ما كُلُّ ماشِيَةٍ بالرّجْل شِمْلال (١)
إنا لفي زمن ترك القبيح به
من أكثر الناس إحْسانٌ وإجْمال
ذِكْرُ الفتى عُمْرُه الثاني وحاجته
ما قاتَهُ وفُضُولُ العيش أشغال

(١) الشملال : الناقة القوية أو السريعة .

[السياق السابع عشر] *

تُـرِيدِينَ لِـقْـيان المعالي رخيصةً
ولابُدَّ دون الشهد من إبر النحل

مدحية طريفة مطلعها :

كَدَعْـواكِ كلٌّ يَـدَّعي صحة العقل
ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

وفي الافتتاحية توظيف رائع للمطلع الغزلي للإيحاء بما يحب الشاعر وما تنطوي عليه نفسه ، ومسايرة للجو العام للقصيدة ؛ إذ يمدح بها القائد الفارس (بِلِّيْر) الذي قاد حملة لتخليص الكوفة من غوغائية القرامطة وفسادهم ، فلما علموا بتوجهه لقتالهم رحلوا عنها فارين مذعورين ... ، فالجو العام للقصيدة جو فروسة وبطولة وهذه هي الوقائع والأحداث التي يحبها شاعرنا ، وتتوق إلى خوض غمارها نفسه ، ومن ثم كنى عن محبوباته بالبيض ويريد بها السيوف ، والسمر ويقصد الرماح ، وأنه يفضل ذلك عما يتعلق به سواه من حب النساء ، ويؤكد أن القلب الذي لا شغل له إلا الافتتان بالغواني الجميلات وما يشاكلها من لذات الحس ، والمتاع المادي قلبٌ فارغ جدير بالعدم ... ، ثم يطالب فتاته أن تتركه وما يريد ليحقق آماله وطموحاته ، ويبيِّن لها أن عظائم الأمور ومعاليها تتطلَّب تضحيات جُلَّى ، وفداءً وبذلا وهَيِّنُها يتحقق بالهيِّن الميسور من الجهد ، ثم يلومها على تصورها أن تُنال المعالي دون تضحية ، ويؤكد

* العكبري ٢٩٠/٣ . والبرقوقي ٤/٤.

لها أن ذلك لا يمكن أن يحدث فلا بـد دون الشـهد مـن إبـر النحـل !!
ويوضح لها أن خوفها عليه وعلى رفاقه لا مبرر له ، لأنها لا تعلم أن عاقبة اللقيا ستكون نصرا لهم وظفرا !! .

كدعواك كل يدعي صحة العقـل
ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل
لَـهَـنَّـكِ أولَـى لائِـمٍ بمـلامـــةٍ
وأحـوج ممـن تعـذلـين إلـى العـذل (١)
تقولين ما في الناس مِـثْلَكَ عاشقٌ
جِدِي مـثـلَ من أحببتُه تجـدي مثلـي
مُحِبٌّ كَنَى بالبيض عـن مرهفاته
وبالحسن في أجسامهن عن الصقـل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني
جَنَـاهـا أحبَّـائي وأطرافها رُسْـلِـــي
عدمت فؤاداً لم تبت فيه فضـلـة
لِـغَـيْـر الـثَّـنايا الغُـرِّ والحَدَق النُّجْـل
فما حَرَّمتْ حسناءُ بالهجر غِبطةً
ولا بَـلَّغـتْها مَنْ شكا الهَجر بالوصل
ذريني أنل ما لا ينال من العـلا
فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

---

(١) لَـهَـنَّـكِ : كلمةٌ تفيد التوكيد ، وأصلها لأنك فأبدلوا الهمزة هـاءً .

١٠٠

تريدين لِقيان المعالي رخيصة
ولا بُدَّ دون الشهد من إبر النحل
حَذِرْتِ علينا الموت والخيل تلتقي
ولمْ تعلمي عن أيّ عاقِبة تُجلي (١)

(١) تجلي : تكشف .

والقطيعة ، والترضية والمغاضبة !! وقد عالج خواطره وأفكاره بمزيج من التلميح والتعريض ، والتلويح والتحذير .

وينهي أبو الطيب رائعته تلك بمجموعة فريدة من نوادر حكمه ، وروائع فكره وتأملاته فيقول : إن شر البلاد من لا تجد فيها أنيسا تلوذ به ، ولا صديقا تبثه ما بك ، وشر كسب يكسبه الإنسان ما أدخل على عرضه العيب والقدح ، ثم يبين أنه لا يرضى أن يكون نصيبه من الحياة هو نصيب الضعفاء العاجزين ، بل همه دائما في عظائم الأمور ومعاليها . ثم يذم أدعياء الشعر الذين يلفقون كلاما لا روح فيه ، بل هو من فضول القول ولغو الحديث ، إلا أنه مع ذلك يروج عند سيف الدولة ، ويحظى بسببه قائلوه ، وذلك من عجيب المفارقات ، ثم ينهي قصيدته نهاية رائعة ، تذكّر الأمير بميزات أبي الطيب وقدراته فيبين له أن ما دبجه في قصيدته تلك وإن بدا عتابا فهو دليل محبة ، ويستهدف الترضية والمصافاة ، وليس باعثه الكراهية ، وهو مصوغ في بيان بديع ، وأدب رفيع ، فهو لا يقل نفاسة عن الدر ، وإن كان في واقع الحال حروفا وكلمات وأنغاما !! .

وا حَرَّ قلْباهُ ممن قلبه شَبِم
ومَنْ بجسمِي وحالي عنده سقم (١)

ما لي أُكَتِّمُ حُبًا قد برى جسدي
وتَدَّعِي حُبَّ سيف الدولة الأُمَمُ

إن كان يجمعنا حبٌّ لغرّته فليت أنّا بقدر الحب نقتسمُ

....

يا أعـدل الـنـاس إلا فــي معاملـتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أُعِـيذُهـا نـظـراتٍ منـكَ صـادقــة
أن تحسِـب الشـحـم فـيمـنْ شحمـه ورم
ومــا انـتـفــاع أخــي الدنـيـا بناظره
إذا استـوتْ عنـده الأنــوار والظُّـلَــمُ
أنــا الـذي نـظـر الأعمى إلى أدبــي
وأسْمَعَتْ كـلـمـاتي مَــن بـه صـمــمُ
أنام ملِيء جـفـونـي عن شواردهــا
ويسْهر الخَلْـقُ جَرَّاهـا ويـخْـتَصِـمُ
وجاهِـلٍ مَــدَّه في جهلــه ضحكي
حتَّـى أتَــتْــهُ يَـــدٌ فَـرَّاسَـــةٌ وفَـــــمُ
إذا نظرتَ نُـيـوبَ الليْـثِ بــارزة
فـــلا تَظُـنَّـنَ أنَّ الليْـــثَ يَـبْـــتَـسِـــمُ
ومُـهْـجـةٍ مهـجـتي مِنْ همِّ صاحبها
أدركْــتُــهـــا بجَـــوادٍ ظَـهْـــرُهُ حَــــرَمُ
رجلاه في الركض رجلٌ واليدان يَدٌ
وفِـعْــلُـــهُ مــا تُـريــدُ الكَـفُّ والــقَــدمُ
ومُرْهَفٍ سِرْتُ بين الجحْفلـيْن به
حــتى ضـربْـتُ ومـوج البحــر يـلْـتَـطِـم

(١) واحرَّ قلباه : ما أشدَّ حُرقَةَ قلبي ! . والشَّبِمُ : البارد .

ذلك وبين البيت الذي سبقه وهو قوله :

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره

إذا استوت عنده الأنوار والظلم

إن براعة أبي الطيب وعلو شأنه لا يحتاجان إلى دليل ، ولا يختلف عليهما أحد ، وكم كان بارعا في المبالغة التي أداها قوله :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعَتْ كلماتي من به صمم

ثم معرفته بما تثيره أشعاره في متلقيها من حيرة ، ومبلغ اختلافهم في تفسيرها ومعرفة مقاصدها ودلالاتها ؛ لما يحتشد فيها من معان دقيقة وبدائع وغرائب لم تهتد إليها قرائح الشعراء ، ولا جاشت بها نفوسهم وخواطرهم ، فيبيت رواتها ومنشدوها يختلفون ويتشاجرون ، وتطول بسببها معاناتهم .

ثم يتناول خصومه الذين جهلوا قدره فيبيّن أن بعضهم يغره هدوء الشاعر وسماحته ووداعته في ظاهر حاله فيتطاولون عليه ، ويجترئون في النيل منه ، وهؤلاء يكون عقابهم منه مروعا ؛ ويضرب صورة مظهره الوديع الذي يطمع فيه الأدعياء فينخدعون بذلك بمن تخدعه صورة الأسد عندما يكشر عن أنيابه فيظنه مبتسما مسالما !!

ثم ينتقل إلى معنى جديد في سياق الفخر والمطاولة فيذكر أنه كثيرا ما يظفر بأعدائه الحريصين على الفتك به ، فيصرعهم قبل أن يصرعوه ، ويوقع بهم قبل أن ينالوا منه ؛ لصدقه في القتال ، وخبرته

بفنون المنازلة على جواد يسابق الريح ، تكاد يده لا تُرَى من رجله لفرط سرعته ، وعدم حاجة من يركبه إلى حثٍّ أو استنهاض ، ثم يتيه بشجاعته وإقدامه قائلا ما فحواه : وكثيرا ما أجدتُ إعمال السيف الباتر وسط الصفوف ، وإبّان ملاحم النزال ، مُقْدِماً لا أهاب ولا أنكص على الرغم من أن أمواج الموت والهلاك تتلاطم من حولي ، وما ذلك إلا لأني جدير بكل عظيمة ، ماهرٌ في كل ميدان ، فالليل والخيل والمفاوز ومواطن الخطر تعرف موضعي ، وتشهد بحسن بلائي وكذا يشهد لي القرطاس والقلم بروعة البيان وعذوبة الشعر ، وعمق الحكمة وفصل الخطاب ، ولقد طالت صحبتي للوحوش منفردا حتى لتعجب من جرأتي وإقدامي الربى والقمم والجبال والكثبان !!

ثم يخاطب المتنبي سيف الدولة في لهجة آسية ، ونبرة حزينة حائرة قائلا له : أيها العزيز الذي يؤلمني فراقه ، ويحزنني جفاؤه ، وأوقن أنني مهما نلت بعيدا عنه فلن أسعد سعادتي في جواره وكنفه ــ لقد كنتُ جديراً بإنصافكم ، قمينا بتكريمكم ، لو لم تَحُل دون ذلك وشايات ومكائد ، ومع ذلك فإن كان ما أعانيه في موقفي هذا يرضيكم فلن يكون لكم مني إلا التقدير والإعزاز ، ثم يؤكد أن ما نزل به بسبب الدس والكيد إجحافٌ لا مبرر له ، واتهام ظالم لا دليل عليه ، ومهما اجتهد العائبون فلن يجدوا لي عيبا ، وما أبعد أخلاقي ومروءتي من ذلك وما كان أجدر بنا أن ننال رفدكم ورعايتكم كما يحظى بها من لا يستأهلها بدلا من أن يصيبنا منكم الضرر والإيلام والإبعاد !! .

ثم ينتقل أبو الطيب بعد ذلك ناعيا على دهره الذي يفرض عليه في الحين بعد الحين الفراق والبعاد والصرم والرحيل ، ولكنه غير

آسف على ذلك ؛ لأن من يفارقهم الشاعر هم الذين سيندمون ويخسرون ، ولن يجدوا من يماثله أو يقاربه ، ويبيّن أنه لم يؤثر الرحيل ، ولا سئم البقاء ولكنه مضطر إليه مجبور على فعله ، فكأنه على الحقيقة لم يرحل ، بل الراحلون هم من أغضبوه ، وسئموا جواره !! ولا ريب أن في ذلك المعنى إرضاء لغرور الشاعر ، وحفظا لماء وجهه ، فهو لا يريد أن يعترف بالهزيمة أو يسلِّم بأنه طرد أو رُحِّل أو نُفِي ، فعكس القضية ، وجعل من اضطروه لذلك هم الراحلون ، وهو المقيم ؛ لأن مثله يَقود ولا يُقاد ، وزمام المبادءة دائما بيده هو ، لا بيد من ينزل بهم أو يمدحهم !! .

والقصيدة مليئة بالمفارقات التصويرية المؤثرة ، فقلب الشاعر يتلظى ألما وقلب الأمير وادع ناعم ، وحال الشاعر سقيم مضطرب وحال الأمير سالم صحيح ، والمتنبي يكتم حبا حقيقيا لسيف الدولة والأدعياء يظهرون له المودة الكاذبة ، والأمير أعدل الناس وأقسطهم إلا في معاملة شاعره ، وماذا ينتفع الإنسان بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم ، ويظل هذا الشعور مسيطرا على أبي الطيب حتى نهاية القصيدة ، فنراه يختمها بقوله : " هذا عتابك إلا أنه مقةٌ ... "

والتجربة الشعورية في القصيدة نادرة المثال منقطعة النظير ؛ لأن المتنبي عانى فيها مشاعر متباينة ، ووقع تحت مؤثرات متناقضة فقد أمَّل لدى الأمير المصافاة ، وإزالة أسباب العتاب ، ولكن الوشايات كانت أقوى مما تمنى ، وكانت نفس الأمير قد تغيرت عليه ، وغلب على سيف الدولة الإعراض عن الشاعر ، والإشاحة عنه ،

والملالة من إدلاله وتعاليه ، وكان المتنبي من جانب آخر يحس أنه قد اهتُضِم حقُّه ، وأُهينت مكانته ، وجُوزي شر جزاء على الرغم من أن الذين وشوا به ، وأوغروا صدر الأمير عليه لا يغنون غناءه ، ولا يسدُّون مسده ، ولا يحسنون ما يحسن ، ثم إن إحساس المتنبي بتميزه وتقديره لشعره ، وشعوره القوي بالاستعلاء وإبائه وشموخه كان من جانب آخر يحول بينه وبين الرضوخ والخنوع ، أو الرضا بالإهمال ، أو أن يبقى مهزوما أمام حاسديه والواشين به الكائدين له عند سيف الدولة ، ومن هنا جاء هذا الجزء من القصيدة نمطا لا نظير له في أدبنا العربي من حيث التماوج العاطفي الحاد ، والانفعال الهادر الذي لا يعرف الهدوء أو كبح الجماح ، ويمكننا أن نؤكد أن أبا الطيب قد غلَّب في نهاية المطاف الانتصار لكرامته ، والتضحية بكل المغريات التي كانت ممنوحة له عند سيف الدولة ، وخاطر بذلك كله ليؤكد للأمير أولا ولمن حوله من الحساد والحاقدين ثانيا أن بمقدور الشاعر أن يجد له المكانة ، وينتزع الإعجاب في كل بقعة ، ولدى كل مقصود ممدوح ، وما أعظمها من تضحية تلك التي أقدم عليها أبو الطيب ، وما أفدح الرزء الذي ألمَّ به !! بيد أن ذلك كله يهون ويصغر في سبيل صون الكرامة ، واحترام الذات ، والثبات على المبدأ القويم والخلق النبيل .

وليتابع القاريء ما قاله المتنبي في هذا الجزء من القصيدة ليتأكَّد من صدق ما لاحظته على مشاعر المتنبي المضطربة ، وخواطره المتصارعة ، وتردده بين الإقدام والإحجام ، والوئام

[السياق الثامن عشر] *

يا أعْدَلَ الناسِ إلا في مُعاملَتِي
فيكَ الخصامُ وأنتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

هذه القصيدة قطعة من الأدب الرفيع ، ونمط من البيان الساحر الأخّاذ ، وتوشك عباراتها تنطق بمبلغ ما عاناه المتنبي في بلاط سيف الدولة في الحقبة التي سبقت الفراق ، واحتدمت فيها الوقيعة والوشايات ، وأعقبتها القطيعة والرحيل ، لقد كانت مشاعر أبي الطيب متصادمة متناقضة ، تراوحت بين الغضب والثورة ، والسخط والعتب والترضية وسلّ السخيمة ؛ لأن كبرياءه كانت تأبى عليه أن يصمت على اهتضام حقه ، وإشمات الأعداء به ، وسماع ما أشيع عنه من وشايات ودسائس ، وكان المتنبي كما يتضح من هذه القصيدة موزعا بين الرجاء واليأس ، بين الثأر لكرامته أو انتظار أن يصفو له سيف الدولة وينبسط له كعهده به من قبل ...؛ لذا جاءت القصيدة كما أشرت متماوجة الإحساسات ، جياشة المشاعر ، تحمل في طياتها روحاً ثائرة وآمالا محطمة ، وكبرياء جريحة ، وافتتاحيتها ناطقة بتلك المعاناة النفسية التي دفعت تداعياتها وأفاعيلها شاعرنا إلى أن تفلت منه تلك الصرخة الشاكية النادبة :

وا حرَّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

ألا ما أقسى تلك المشاعر : مشاعر القلب المحترق الذي اصطلى

* العكبري ٣/٣٦٦. والبرقوقي ٤/٨٣ .

بنيران الحسرة والالتياع في حين يرى صديقَهُ المُؤَمَّل ، ووليٌّ نعمته المذخور للنوائب فارغ القلب ، لا يكاد يشعر بما يلاقي عندله الصداح وطائره الغرِّيد الذي غدا أسيرا مكبلا ، محروما مبعدا ، وأعداؤه وكائدوه ، وحساده ومبغضوه يحظون برضا الأمير ويتقلبون في نعمائه !! .

يبدأ أبو الطيب صارخا نادبا حظه ، مخاطبا سيف الدولة ، شاكيا مظلمته ، مثنيا على نزاهته واشتهاره بالعدل ، ولكنه تعرض على يديه للظلم فلمن يشكوه ؟؟ ، وهو الخصم والحَكَم !! والقاسي الذي تلتمس منه الرحمة ! والجاني الذي بدت منه السآمة !... ثم يطالبه بأن يكون منصفا في الحكم بينه وبين خصومه ، وأن يتروَّى في القضية ؛ حتى لا يشكل عليه الصواب ، أو تضيع عنده الحقوق ، وأن يلحظ الفرق بين جوهر شاعره الأصيل ، ومظاهر هؤلاء المزيفة ، فليس الذي يكون امتلاؤه وقوة بنيته بسبب صحة جسمه ، وسلامة بدنه ، كمن تكون ضخامة جسمه دليل اعتلال ، ونتاج تورُّم !!

وتحتشد بعد ذلك في القصيدة معاني الاعتزاز والفخر المدوي بدءاً من قوله :

أنا الذي نَظَر الأعمى إلى أدبي

وأسمعتْ كلماتي من به صمم

وما أروع ما ربط به أبو الطيب في تعريض شديد الوقع بين قوله

فالخيْلُ والليلُ والبَيْداءُ تعرفني
والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ
صحبتُ في الفلوات الوحش منفردا
حتى تعجَّب مِنِّي القُورُ والأكَمُ (١)
يا من يعزُّ علينا أن نُفارِقَهمْ
وُجْدانُنا كُلَّ شيءٍ بعدكمْ عَدَمُ
ما كان أخْلَقَنا منكم بِتَكْرِمَةٍ
لو أنَّ أمْركم من أمرنا أَمَمُ
إن كان سَرّكم ما قال حاسِدُنا
فما لِجُرحٍ إذا أرضاكُمُ ألَمُ
وبيننا لو رعَيْتُم ذاك معرفَةٌ
إن المعارف في أهْلِ النُّهَى ذِمَمُ
كم تطلُبُون لنا عَيْباً فيُعجزكم
ويَكْرهُ اللهُ ما تأتون والكرمُ
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثُّريَّا وذان : الشَّيْب والهَرمُ
ليت الغمام الذي عندي صواعِقُه
يُزيلُهُنَّ إلى منْ عِنْده الدِّيَمُ (٢)

---

(١) القُور : جمع قارة ، بمعنى الأكمة ، ورُوِيَ القوز ، بمعنى الكثيب الصغير .

(٢) المعنى : ليت الممدوح الذي يشبه عطاؤه الغمام ولا يصيبني منه إلا الصواعق يحوِّلُ ما أناله منه من متاعب إلى من يفيض عليهم أفضاله وخيراته !! .

أرى النوى تقْتضيني كُـلَّ مرحلة
لا تستَقِـلُّ بهـا الوَخَّـادةُ الـرُسُـمُ
لئن تَـركْـن ضُمَيْراً عـن ميامننا
لَـيَحْدُثَـنَّ لِمَـنْ ودَّعـتـهـم نـدَمُ
إذا ترحلت عـن قـوم وقَـدْ قدروا
ألا تُـفـارقَـهُـمْ فـالـراحلـون هُـمُ
شَـرُّ البِـلاد بِـلادٌ لا أنِيس بـهـا
وشَـرُّ مـا يكسـب الإنسـان مـا يصِمُ (١)
وشَـرُّ مـا قَنَصَـتْـه راحَتي قَنصٌ
شُـهْـبُ البُزاةِ سـواءٌ فـيـه والـرَّخَمُ
بأيِّ لفْظٍ تقُـول الشـعْـر زِعْنِفَةٌ
تَجُـوزُ عنـدك لا عُـرْبٌ ولا عَـجَـمُ (٢)
هـذا عِـتابُـكَ إلا أنَّـهُ مِـقَـةٌ
قَـدْ ضُـمِّـنَ الـدُّرَّ إلا أنَّـهُ كَـلِـمُ (٣)

(١) يصِم : يعيب ، والوصم : العيب .   (٢) زعنفة : اللئام والسُّقاط من الناس .
(٣) مقةٌ : المقة المحبة والوُدُّ .

[السياق التاسع عشر] *

إلى أيِّ حينٍ أنتَ في زيِّ محرمٍ
وحتى متى في شِقْوةٍ ؟! وإلى كمِ ؟!

مقطوعة من ثلاثة أبيات ذكر شُرّاح ديوان أبي الطيب أنها من شعر الصبا ، وهي تصور شخصية الشاعر وطباعه التي نشأ عليها ، وحرص على الاتصاف بها منذ نعومة أظفاره ، كما تعبّر عن عظيم طموحه ، وإحساسه الباكر بسوء الحظ ، وأنه يحمل بين جنبيه نفساً طُلَعَةً ، لا تعرف السكون أو المهادنة ، كما تدل من جانب آخر على استواء شاعريته ، وتمكنه من ناصية البيان ، وهي سمة بارزة في شعره ، بل يمكننا أن نؤكد أن ما أبدعته قريحته في مرحلة الشباب واقتبال العمر كان أكثر توهُّجاً وأبرع تعبيرا !! .

ها نحن أولاء نراه في هذه المقطوعة الصغيرة حائرا قلقا ، لا يكاد يعرف نهاية لتلك المعاناة التي يعايشها ، أوللشقاء الذي يكابده ، بيد أنه على قناعة ــ بسبب ما رآه من أحوال أهل زمانه ــ أنّ عليه أن يخاطر ليحقق الآمال ، وأن يحمل روحه على راحته ؛ لأنه إن لم يفعل فسيقضي غير مأسوفٍ عليه ، أو معلوم من أمره شيئاً ، وهو انطلاقاً من تلك القناعة يعاهد نفسه ، مبددا مخاوفها ، مثبتاً لها ، طالباً منها أن تقبل التحدي ، وأن تثب واثقة من عون الله وثبة رجل ماجد ، يستطيب الموت في سبيل المجد ، ويرى له مذاقا كجنى النحل المصفى !!.

---

* العكبري ٣٣/٤ . والبرقوقي ١٥٠/٤ .

إلى أي حــينٍ أنــتَ فــي زيِّ محــرم ؟
وحــتَّى مــتى في شقوةٍ ؟! وإلى كــمِ ؟! (١)
وإنْ لا تَــمُــتْ تحت السيوف مكرَّمــا
تــمُــتْ وتُــقــاسي الذلَّ غير مكــرَّمِ
فــثِــبْ واثِــقــاً بالـلــه وثْــبَــةَ مــاجِــدٍ
يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم (٢)

---

(١) زيّ محرم : أيْ في ثياب غير مخيطة ، ويقصد أنه غير مستقر ولا مطمئن في حياته .
(٢) الهيجا : من أسماء الحرب تُمدُّ وتقصر . جنى النحل : ما يُجنى من خلاياها من العسل

[السياق العشرون] *

رِدِي حِياضَ الرَّدى يا نفس واتَّركي
حياض خوف الرَّدى للشَّاءِ والنَّعَمِ

قصيدة من عجائب شعر أبي الطيب ، وهي مما ذُكر أنه من شعر الصبا ، تحدث في مطلعها الغزلي عن الشيب الذي ألمَّ برأسه ، وهو أمر غريب ، وحديث محيِّر عن الشيب في مرحلة اقتبال العمر ، وقد بيَّنْتُ في دراسة لي سابقة بعنوان " مطارحات الشيب والشباب في شعر البحتري " أن مثل تلك الافتتاحيات لا يقصد فيها الشاعر حقيقة الشيب بل يستخدمه استخداما رمزيًّا ، ليعبر من خلال ذلك عن مقاصد أخرى لها علاقتها المعنوية بالشيب والشباب ، ولعل أبا الطيب هنا أراد أن يلمح إلى أنه قد بلغ مرحلة النضوج التي تؤهله لبلوغ الآمال ، ونيل ما تمتع به كثيرون من أهل زمانه ممن لا يماثلونه في فضله ومكانته ، ولا يناظرونه في مواهبه وقدراته ... ، وبعد المطلع الغزلي الرقيق ينتقل ببراعته المعهودة إلى غرضه الرئيس وهو الشكوى والفخر ، إذ يخاطب فتاته مطالبا إياها أن تتريث في الحكم على مسلكه مُفَدِّياً لها بالناس أجمعين ، مؤكدا لها أنها قلقة كقلقه منزعجة كانزعاجه ، ولكنها لم تعان ما عاناه هو من شقاء ، ولم تذق ما ذاقه من غبن وإهمال ، ولو قُدِّر لها أن تكابد ولو جزءاً ضئيلا مما

---

* العكبري ٤٣/٤ . والبرقوقي ١٦٠/٤ .

كابد لما بقي من مقومات حسنها ما تتمتع به ، ولصارت مثله في السقم والهم !! .

ثم يبّن أبو الطيب علوّ همته ، وعظم آماله وطموحاته وأنه لا يقبل أن يُشغل بالقليل التافه ، وهو على ثقة من أن شدائد الدهر وحوادثه لن تمكّنه مما يريد في دَعَةٍ ويسر ، ولكنَّ همته الصارمة ستفسد عليها إرادتها ، ثم يقول لمن يلومه على إعنات نفسه ، وتكليفها فوق ما تطيق : لا تلمني أنا بل وجِّه لومك إلى الدهر الذي أصابني بما ترى ، إذ لا ذنب لي في ذلك ؛ لأني لم أقعد عن السعي ، ولم أقصِّر في الطلب . وينتقل بعد ذلك ذامًّا أهل زمانه ، ويقصد أهل اليسار والوجاهة منهم ، إذ يحمل عليهم حملة ضارية ، فمظهرهم مظهر البشر ، ومخبرهم مخبر السوائم ، وهو يسمع منهم كلاما كثيراً عن السخاء والجود ولا ينتهي من ذلك إلى حقيقة واقعة ، فأكثر هؤلاء المثرين مالاً مفلسون مُروءةً ، موصوفون زوراً بالجود !! .

ثم يعاود أبو الطيب التنديد بأصحاب تلك الخصال المذمومة ويتوعدهم بالويل والثبور ، وأنه لن يهادنهم ، ولن يجدوا منه إلا السيف والنزال والعداء ، ويبين أنه قد صبر كثيرا حتى لم تعد لديه قدرة على إكراه نفسه على التصَبُّر ، وهو الآن سيقتحم الأخطار ويبذل في سبيل تحقيق آماله روحه ، ويحشد أنصاره ، لتكون له ولمن يشاكله من الشرفاء الصولة والغلبة على دولة الخدم ، الذين ملكوا البلاد وأشاعوا فيها صفات الخسة ، وملأوها بالدسائس والمكايد ، وأجروا أمورها على غير ما يُعْطِي للشرفاء حقهم ، ويحفظ عليهم كرامتهم وأقدارهم .

ثم ينهي القصيدة بتلك الأبيات الرائعات ، ومنها دُرَّة تلك القصيدة التي صدَّرنا بها الحديث عنها :

رِدي حياض الردى يا نفس واتّركي

حياض خوف الردي للشاء والنّعم

وكأنه يؤكد حبه لهذا النمط من العيش ، وكراهيته لإيثار السلامة والدعة ، واللياذ بالخوف والتردد ، فهو ثائر مغامر ، وليكن هذا النمط من الحياة هو ما يحرص عليه الأبيُّ ذو الطموح ، فهو إن لم يجعل دماءه تسيل على الرماح فليس جديرا بأن يدعي المجد أو أن ينتسب إلى الأماجد !! . والقصيدة في الأبيات الأخيرة منها كأنها "منشور ثوري" رافض لحكام ذلك الزمان ، داع إلى الثورة عليهم ، والخلاص منهم .

ضَـيْفٌ أَلَـمَّ برأسـي غـيرَ محتشم

والسيـفُ أحسـنُ فـعـلاً مـنه باللِـمَـمِ (١)

....

....

رُوَيـْـدَ حُـكـمـكِ فينا غير مُـنـصـفـةٍ

بالنـــاس كـلِّـــهـم أفـديك مِـنْ حكم

أبديتِ مـثـل الـذي أبديـتُ مـن جزعٍ

ولَـمْ تُجِنِّـــي الـذي أجننتُ مـن ألَـمِ

---

(١) المحتشم : المستحي المنقبض . اللمم ، جمع لِمَّة : وهو شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن .

إذاً لَـبزّكِ ثـوبَ الحُسن أصغَرُهُ

وصـرتِ مثلي في ثـوبين مـن سقم (١)

لـيس التـعـلل بالآمـــال مـن أربي

ولا الـقـنـاعـة بالإقــلال مــن شِيمي

وما أظُــنُّ بناتِ الـدهـر تـتـركنـي

حتى تسـدَّ علـيـهـا طُـرقـهـا همَمِي (٢)

لُـمِ الليالـي الـتـي أخْـنـتْ على جدتي

بـرقَّــة الحـال واعـذرني ولا تَــلُـمِ

أرى أُنـاسـاً ومحصـولي على غنمٍ

وذِكْــرَ جُــودٍ ومحصولي على الكلم

ورَبَّ مـــالٍ فـقـيرا مــن مُروءتـه

لـم يُثْـرِ منها كما أُثْري مـن العدم

....

....

ردي حياض الـرَّدى يا نفس واتّركي

حيــاض خوف الـردي للشاء والنّـعَمِ

---

(١) بزك ثوب الحسن : أي سلبه منك . (٢) بنات الدهر : صروفه وحوادثه وشدّته .

[السياق الحادي والعشرون] *

ولو برزَ الزّمانُ إليَّ شخصاً

لخضَّب شعْرَ مَفْرِقِهِ حُسامِي

مقطوعة من ستة أبيات يحاور فيها شاعرُنا معاذَ بن إسماعيل اللاذقي قائلا له : إنك لا تعلم من أمر إقدامي وشجاعتي شيئا ؛ لذلك تستغرب خِطاري بنفسي ، وقد تساءلتَ عن الأمر الجسيم الذي أطلبه وأسعى لتحقيقه ، وأخاطر فيه بالأرواح والرجال ، وبيّن له أن ذلك الأمر هو إدراك المجد ، ونيل المكانة اللائقة ، وأن مثله لا يليق به أن يضعف أمام النوائب ، أو يجزع من ملاقاة السيوف ، فلو أن الزمان تمثل له رجلا متحديا له ، مراغما لصارعه حتى تصيبه منه الإصابات والجراحات ، غير خائف ولا وجل ، مع يقينه أن الأمر أخطر في تلك الحال من أن ينتصر فيه أو ينجو من ويلاته ، ثم أكّد له أن الشجعان إذا رأوا بلاءه في أوقات النزال ، وصبره عند اللقاء فلن يقَرَّ لهم قرار ، ولن يعرفوا بعدها الراحة لا في اليقظة ولا في المنام .

أبا عبْد الإله معاذَ إنِّي خفيٌّ عنك في الهيجا مقامي

ذكرتَ جسيم ما طلبِي وأنَّا

نُخاطِر فيه بالمُهَجِ الجِسامِ

أمِثلي تأخُذُ النَّكَباتُ مِنْهُ

ويَجزَعُ مِنْ مُلاقاةِ الحِمَامِ

---

* العكبري ٤/٤٥ . والبرقوقي ٤/١٦٣ .

ولـو بَـرزَ الـزّمـان إلـيّ شـخـصا
لـخَـضّـب شـعـر مـفـرقـه حَسامي
وما بلغت مـشِيّـتَـهـا الليـالـي
ولا سـارتْ وفـي يـدها زمـامِي
إذا امْـتَـلأتْ عُـيُون الـخيـل مني
فـويْـلٌ فـي الـتّـيقُّـظ والـمـنـام

[السياق الثاني والعشرون] *

يُحاذِرُني حتفي كأنِّيَ حتفُهُ
وتنكُزُني الأفعي فيقتُلُها سُمِّي

في مطلع غزلي لقصيدة مدحية مدح بها أبو الطيب الحسين بن إسحاق التنوخي ، يتسلل الشاعر ليطرح بعض مناقبه ومفاخره لفتاته التي يهواها فيقول : لقد أعْرَضَتْ عني كأنها لم تفطن إلى أنِّي أبرع قومها نطقا ، وأعذبهم بيانا ، وأفصحهم لسانا ، وأقواهم وأقدهم على الطعن عندما تختلط الفرسان ، ويكثر الصياح ، وتدلَهِمُّ الأمور ، ثم يبن مدى هيْبة أعدائه له ، وقوته على الأخطار فيقول : إن الموت يخافه ، وكأنه هلاك الموت ، وإن الأفعى لو لدغته لماتت مسمومة من سمه !! وهذا من أعجب العجب ، ثم استطرد في هذا الباب من المبالغات التي لا نهاية لبراعتها ، فبَيَّن أن الرماح الطوال تتقصف عندما تتجه إليه ، والسيوف البواتر يقطعها لحمه ، ثم افتخر بأن الأسفار والسرى قد أضنته وأهزلت جسمه ، حتى صار أخف على مركوبه من نفَسِه الذي يتردد في صدره ، وأنه أبصر ممن اشتهروا بحدة البصر ، وكأنه عندما ينظر يبلغ بصره ما يريده قلبه ، وهو من كثرة الأسفار قد خبر الأرض ، وعرف جوانبها ونواحيها ، وكأن الإسكندر قد بنى السدَّ من عزمه !!.

---

* العكبري ٤/٥٠ . والبرقوقي ٤ / ١٦٩ .

جَفَتْنِي كأنِّي لستُ أنطَقَ قومِها
وأطعنهم والشُّهب في صُورة الدُّهْمِ (١)
يحاذرُني حتْفي كأنِّيَ حَتْفُهُ
وتَنْكُزُنِي الأفعَى فيقْتُلها سُمِّي (٢)
طِوالُ الرُّدينيَّات يقصِفُها دَمِي
وبِيضُ السُّريجِيَّات يقطعها لحمي
براني السرى بري المدَى فرَدَدْنَنِي
أخَفَّ على المركوب من نفسِي جرمي
وأبصر من زرقاء جَوٌّ لأنَّنِي
إذا نظَرتْ عيْناي شاءهما علْمي
كأنِّي دحوتُ الأرض من خبرتي بها
كأنِّي بَنَى الإسكندرُ السدَّ من عزمي !!

---

(١) الشهب من الخيل : التي يخالطها في ألوانها بياض ، والدهم السود . يريد أنها تغيَّرت ألوانها من الدماء والعجاج .

(٢) تنكزني : تلسعني بأنفها ، وأصل النكز الغرز بشيء محدد الطرف .

[السياق الثالث والعشرون] *

وإنّما الناسُ بالمُلُوكِ وما
تُفْلِحُ عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ

هذا جزء من مطلع قصيدة مدحية قالها يمدح بها عليّ بن إبراهيم التنوخيّ ، والمطلع تمهيد للموضوع ، مجانس له ، وهو نمط فريد في شعر أبي الطيب .

بدأ داعيا إلى البكاء على الهمم الدارسة ، والأخلاق التي لا تجد من يحرص عليها . ثم ينتقل من ذلك إلى تقرير أن سبب فقدان الهمم واستشراء الفساد أن القائمين على الأمور في البلدان الإسلامية هم السبب في ذلك ؛ لأنهم أعاجم لا يقدّرون هذه الأمور ، ولن يفلح قوم ذووا أخلاق ومباديء ينقادون لمن لا مباديء لهم ولا مثاليات . ثم استطرد في ذلك فبيّن أن هؤلاء الحكام الأعاجم لا مكان لهم في الأدب والبيان ، ولا حسب لهم يعتدون به كما يفعل العرب ، ولا يعرفون العهود والذمم ، ومن العجيب ـ كما يقرر أبوالطيب ـ أنه نزل ببلاد كثيرة ، وطوّف في المشرق والمغرب فرأى تلك الظاهرة المؤلمة ، رأى أمما من العرب ، وأقواماً من ذوي البيوتات ينقادون لعبد أو مولى ، وكأنهم غنم سوائم ، ثم استطرد في السخرية من أولئك الحكام الأدعياء ، فبيّن أن الواحد منهم أصبح الآن مترفاً مُنَعَّما ، وكان أحرى به أن يبقى في خشونته ، وهوان أمره ، ثم يعرض لحاسديه

* العكبري ٥٩/٤ . والبرقوقي ١٧٩/٤ .

ومنكري فضله فيقول : إنني على الرغم من لوم حُسَّادي ومبغضيَّ فلا أنكر أني لهم قاهر ، وعليهم مسلط ، وكأني لهم عقوبة لا بدَّ أن تنزل بهم ، وتساءل : كيف لا أُحسَد ولي من المجد والشهرة وذيوع الصيت وعلوُّ الشأن ما يجعل من الضروري أن ألقى من الحساد والشانئين ما لقيت ؟! ولا غرو فأقرب الناس إليَّ يهابونني ، ويخشى بأسي الأبطال المشهود لهم ! ثم يفخر بجوده وكرمه الذي حماه من قالة السوء أو الذم . ثم يبيِّن أن البخلاء من أهل اليسار يكسبون الذمَّ والعيب ، ولو كانوا فقراء لكان أحرى بهم أن يسلموا من ذلك ، فهؤلاء الأغنياء الأشحاء لم تنفعهم أموالهم ، بل صاروا خدَّاما لتلك الأموال ، ولم يبق لهم منها سوى العار وسوء الأحدوثة ، ثم تسلل من ذلك إلى غرضه وهو المديح .

أحقُّ عافٍ بدمعك الهِمَمُ   أحْدَثُ شيءٍ عهْدا بها القدم (١)
وإنَّما الناسُ بالملوك وما   تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُها عجم
لا أدبٌ عندهم ولا حسب   ولا عُهودٌ لهم ولا ذِمَمُ
في كُلِّ أرضٍ وطِئْتُها أُمم
تُرعَى بِعَبْدٍ كأنَّهم غَنَمُ
يسْتَخْشِن الخَزَّ حين يَلْبَسه
وكان يُبْرَى بظفْره القلمُ !!
إنِّي وإن لُمْتُ حاسِدِيَّ فما
أُنكِرُ أنِّي عُقُوبَةٌ لَهُمُ

---

(١) العافي : الدارس الذاهب ، والهمم جمع : همة .

وكيف لا يُحْسَدُ امرؤٌ عَلَمٌ

لَــهُ علــى كُــلِّ هـامَــةٍ قَــدَمُ

يهابُهُ أبْسَأُ الرِّجال بـه وتَتَّقِي حَدَّ سيفه البُهَمُ (١)

كفاني الـذمَّ أنَّني رجـلٌ أكـرَمُ مـالٍ ملكتُه الكرمُ

يجني الغنى للئام لو عقلوا ما ليس يجني عليهم العدم

هُمُ لأموالهم وليس لهم والعار يبقى والجرح يلتئم

---

(١) أبسأ الرجال : آنسهم به ، يقال : بسأت الرجل وبسئتُ به بسئا وبسوءاً إذا استأنست به . والبُهَمُ : الأبطال .

[السياق الرابع والعشرون] *

ودَهْـرٍ ناسُهُ ناسٌ صِغار

وإن كانتْ لهم جُـثَـثٌ ضِخامُ

قصيدة مدحية مطلها دُرَّة من درر الفكر النابه الذي تميز به أبـو الطيب ، وهو يرسم صورة رائعة لشخصية شاعرنا وضيقه بـأهل زمانه ، وشعوره بالتميز والتفرد ، والغربة بين أهل ذلك الزمان وكل الأزمنة ، فهو ذو قلـب كبير ، وهِمَّـة لا حـدَّ لطموحها ، وليس كمن تشغله أو تسليه الخمر أو ما يُغيِّب العقل ويُخدِّر الوجدان ، وإنما يتـوق لتحقيق آمال وبلوغ أُمنيات لا يغفل عنها ، ولا يشغله دونها شاغل ، ومن أسفٍ أن عمر الإنسان لا يمكِّنه مما يريد ولا يبلغ به مأربه ، لأنه بالقياس إلى المطامح قصير ضيِّق .

والمطلع كما ذكرت دُرَّة فريدة ، ولـه إيحاء قـويٌّ بما يعانيـه الشاعر ، وما يحسه تجاه زمنه وآماله ، وما يحمله من همٍّ دفين ، ليس له مـا يُفرِّجـه أو يُخفف منـه ، ثـم يعقـب ذلـك بالنتيجـة الحتميـة لذلـك الإحساس وهو أنه يعيش في زمـن هـو فيـه غريـب ، وطبعـه بالقيـاس لمعاصريه مختلف جدًّا ، فناس ذلك الزمان ناس ذووا نفوس صغـار ، وينطوون على خواء لا محصول له ولا مردود ، وإن بدا ظاهرهم أن لهم أجساما ضخاما ، وجثثا مهولة ، ثم يؤكد أنه ليس من ناس عصـره ولا من قبيل أهل زمانه ، وإن كان يعايشهم ، ويساكنهم ، ويختلط بهـم

* العكبري ٤/٧٠ . والبرقوقي ٤/١٩٠ .

ولا غرابة في ذلك ، فأنفس المعادن وأغلاها شأنا يختلط بالتراب والطين ، ولا يعيبه ذلك ، أو يُنقص من نفاسة جوهره ، ويستطرد في وصف أهل زمانه وما يحيط بهم من تخلف وجهل ، فيصفهم بأنهم ملوك في هيئة أرانب ، وأهل غفلة وهوان شأن ، وإن بدوا متيقظين نابهين ، ويذكر أن هؤلاء الأوغاد يقتلهم ضعفهم وهوان شأنهم ، واشتغالهم بالتوافه والصغائر ، فهم يموتون تخمة وترفا وكأن عدوهم ومنازليهم هم الطعام والشراب وما إليه من الملهيات والتوافه ، ويذكر في سخرية مريرة أن لهؤلاء الموسدين زوراً وحمقا خيلا ولكنها لا تستخدم في النزال والطعان ، وإنما في المتعة والتريُّض ، والعبث الرخيص ، وكأن ما عليها من أرماح هي أعواد لا قيمة لها ولا أثر . وهذا أبلغ ما يمكن أن يقال في صَغار هؤلاء الملوك وتفاهة ما يشغلون به أنفسهم ، أويقطعون به أعمارهم ، في غير ما عمل يؤثر ، أو نفع يعمُّ ، أو مجد يكتسب ، أو ذكر يبقى ! . ثم يرسل تلك الحكمة الرائعة إذ يؤكد أن الإنسان لا يحبُّ إلا نفسه ، ولا يصادق إلا ذاته ، وهو كأنه يتوجس من الجميع شرا ، ويرى أن من يدَّعي أنه له صديق لا دليل لديه على ما يزعم ؛ لأنه لم يجد من أحد منهم ما يشهد بصحة دعواه ، واعتدَّ كل ما يقال في هذا الشأن من قبيل التجمل ، أو النفاق والتزيُّد ، ثم يصف أهل عصره بأنهم افتقدوا الكرامة ، والغيرة على الحقوق ، وإباء الدنايا ... ، وغيرها من صفات المروءة والنبل ؛ لأن الإحساس بذلك يتطلب رُشدا وعقلا ، وتقديراً للعواقب ، وهم قد عَرَوْا من ذلك كله ، ولو كان العقل غير معوّلٍ عليه في ذلك لأدرك

السيف فضل من صنعه فلم يضرب عنقه ولكنه لا يدرك ذلك ولا يحفظ لصانعه عهداً !!

ثم يذكر أن الدنيا لا عقل لها ، ومن ثم فأمورها تسير على غير منطق ولا معقول ، فأهل الحظوة فيها من أشبهها في الجهل والغفلة ، فلا غرابة إذن في أن يسود الأسافل ، وينحط الشرفاء الأماثل ، إذ لو كانت الأمور تسير على ما ينبغي لاستقر الرغام على سطح الأرض ولعلا الجيش !! ولكن الواقع بخلاف ذلك ، ويؤكد أبو الطيب ذلك المعنى بأنه لو كان لا يعلو إلا من يستحق العلو لكان أجدر أهل زمانه بالسيادة هم الرعية المنقادة وليس القادة المتسلطون !!

ثم يطلق أبو الطيب حكمة بليغة عن غدر النساء وشرهن فيقول : ومن يعرف حقيقة النساء وطبائعهن يرى عجبا عجيباً ، فظاهرهن بهجة وضياء ، وباطنهن بؤس وظلام ، وإذا كانت حياة الإنسان موزعة بين الشباب والشيب ، وكان أغلب أهل عصره يقضون شبابهم عابثين غافلين ، ويتبعون ذلك في شيبهم بالحسرة على ما انقضى من عمرهم دون طائل فحياتهم هي والموت سواء ، ووجودهم هوالعدم ! .

ثم يبين أن الناس ليسوا سواءً في تقويم نهجهم في الحياة ، أو الحكم على صنيعهم في صروفها وأحداثها ، ومن ثم فليس كل بخيل يلام على بخله أو يعذر إذا قتَّر على طالبي فضله ، وإنما يكون ذلك بمقدار ما يشعر به من خطر ذلك المسلك ، أو ارتياحه له ، وعدم غضاضته منه . ثم يتعجب أبو الطيب من مقامه ولُبثه بين أقوامٍ لا يرعون حقه ، ولا يحفظون قدره ، ثم يذكر أنه لم يختر المقام بينهم بل يكره ذلك ؛ ليقينه بأنه لا يفارقهم إلا كريم ، ثم يتمنى أن لو كان

من يراهم في تلك البقاع قليلـو العـدد ، موصوفـون بـالفضل والنبـل ، بدلا من تلك الكثرة غير المَجدية ، ثم يتحول للمدح ويلاحظ أنـه جعـل من هذه المقدمة تمهيدا لبيـان تمـيز الممـدوح فـي مروءتـه وصفاتـه ، وكأن الشاعر صـادف من كان يبحث عنه ، ويودُّ لقاءه ، بعـد أن افتقـد نمطه فيمن لقيهم وخالطهم !! .

فـؤادٌ مـا تُسلِّيـه المُدام   وعُمْرٌ مِثْلُ ما تَهَبُ اللئام (١)
ودهـرٌ ناسُـه نـاسٌ صغارٌ   وإن كانت لهم جُثَثٌ ضخام
ومـا أنا منهُمُ بالعيش فيهم   ولـكنْ معـدنُ الذهب الرَّغـام (٢)
أرانِـبُ غـير أنَّـهُمُ ملوكٌ   مُفَتَّحةً عُـيُـونُـهُـمُ نِـيـام
بأجْـسامٍ يَحَرُّ القتل فيها   ومـا أعْـداؤُهـا إلا الطَّعـام
وخيْلٍ لا يخِرُّ لها طعينٌ   كـأنَّ قَـنـا فـوارسِـها ثُـمـامُ (٣)
خليلُـكَ أنتَ لا مَنْ قلتَ خِلِّـي
وإن كَـثُـرَ الـتَّـجَـمُّـلُ والكَلام
ولو حِيز الحفاظ بغير عقلٍ   تجنَّب عنق صيقله الحسام
وشِبْـهُ الشَّـيء منجذب إليه   وأشبَـهُنـا بـدنيـانا الطَّغـام
ولـو لـم يَعْلُ إلا ذو محَلٍّ   تعالَـى الجيش وانحط القتام

(١) لأبي الطيب تعبيرات من وحي إحساسه بالمفارقات في الحياة ، وهو إحساس يقوده أحيانا إلى الجرأة وتجاوز الحد في التعبير ، وكان عليه هنا أن يراعي أن العمر علـى التحقيق منحة من الله عز وجل ، ولمّا كان في هذا السياق يريد أن يبالغ في أنه لم يستفد من عمره شيئا غلا وجاوز الحد وأساء التعبير . (٢) معدن : موضع الإقامة . الرَّغام : التراب .

(٣) يخر : يسقط . الثمام : نبتٌ ضعيف .

ولــو لـم يـرع إلا مُستحق   لِرُتْبَتِـه أسامـهـم الـمُســامُ
ومن خبر الغواني فالغواني   ضـيـاء فــي بواطِـنـه ظلامُ
إذا كان الشباب السكر والشيـــبُ همًّا فالحياة هي الحمامُ (١)
وما كُـلٌّ بِمَعْذورٍ ببخل   ولا كُــلٌّ على بُخْلٍ يُـلامُ
ولــم أر مِثْـل جـيـرانِـي ومـثـلـي
لِـمِـثْـلِـي عـنـد مـثْـلـهـمُ مُـقـام
بأرض مــا اشتـهـيتُ رأيْتُ فـيـهـا
فـلـيس يَـفُــوتُــهــا إلا كِـــــرامُ
فهَـلاَّ كان نقصُ الأهل فيها   وكان لأهلـها منها التمامُ ؟! (٢)

---

(١) المعنى : يريد أن يقول إن الإنسان إذا كان شبابه يضيع في غفلة ولهو ، وشيبه في هـمّ وحسرة ـ فلم يبق من عمره شيء ، وكأن حياته ذهبت باطلا !! .

(٢) المعنى : هلاّ كان أهل الأرض قليلون عمّا هم عليه ، وكان الكرماء منهم أكثر مما يوجد في الواقع ؟! .

[السياق الخامس والعشرون] *

واحتمالُ الأذى ورُؤيةُ جانِيــهِ غذاءٌ تَضْوَى به الأجسامُ
مـن يهُـنْ يسهل الهوانُ عليه مـا لِجُـرْحٍ بميّتٍ إيلامُ

مدحية ذات مطلع حكمي ، جعله الشاعر تمهيدا للقصيدة ، ويـدل مطلعها على ثاقب نظر أبي الطيب ، ويرسم صورة محببـة لشـخصيته إذ يقرر أنه لا فخر على الحقيقة ، ولا عز في واقع الأمـر إلا لمـن لا يُضام ، ولا يقبل الهوان ، ومـن يـدرك ثـأره ولا ينـام عـن حقـه حتـى يبلغه ، وأن الهمة القوية لا تعرف العوائق ، ولا تختلق لفشلها الأعذار بل يصل صاحبها إلى ما يريد بشتى السبل ، ومختلف الوسائل ، وليس لمعتذر عن التقصـير عذر مقبول ، مهمـا اختلـق المـبررات ، وشـأنه كشأن من يعتذر عن الوصول إلى وجهته لحلول الظلام !! .

ثم يؤكد أبـو الطيـب أن أقسـى شـيء علـى الحُـرّ أن يتعـرض للقهـر وينجو مَـنْ ظلمه ويبقى سالما موفـوراً ، فذلـك الهـم الدائـم الـذي ينتـج عنه الكمد والضعف والهزال ، وتتلف به الأجسام . ومن يحسد الذليـل على ما فيه من دعة وسلامـة شـبيهه فـي الـذل ، ونظـيره فـي الضعـة والهوان ، وحياة أمثال هؤلاء أكرم منها الحمام ، وأشرف منها المـوت الزؤام ، ثم يقرر شاعرنا أنه لا حلم مع العجز ، ومـن يـدّع ذلـك لئيـم مخادع ، يتكلف ما ليس عنده ، ويُمَـوّه على ضعفه وهوان شأنه .

* العكبري ٩٣/٤ . والبرقوقي ٢١٦/٤ .

ويصل بنا أبو الطيب إلى قمة مـا يمكن أن يقـال عـن فضـل الإبـاء ، وشرف مكانته إذ يقول : إن من يعوِّد نفسه قبول الذل يمرن على ذلـك ويتعوده ، فيسهل عليه بعدُ تجرعه !! وحاله في ذلك تشبه حال الميت الذي لا تؤلمه الجراح ولا الطعنات ؛ لأنه فقـد الإحسـاس بـالألم !! ثـم يبين أبو الطيب أنه ضاق ذرعا بزمانـه كمـا ضـاق بـه زمانـه ، إذ لـم يستطع أن يرغمه على الرضوخ لما لا يهوى ، أو الانصيـاع لمشيئة من يودُّ قهره وإذلاله ، وأنـه أُختُـبِر فوُجِد كريمـا لا تشـوبه نقيصـة ، وأنه على الرغم مما بلغ يطامن من شأن نفسه ، ويتواضـع أقصـى مـا يمكن التواضع ، وهو مع ذلك يجد نفسه أعلى من الجميـع ، بـل فـوق رؤوسهم ، ثم يُنهِي مطلعه ذلك ببيان أنه لن يَقَرَّ له قرار ، ولـن يلـذ له عيش ، وهو مُعَرَّض للضيم ، ومُرَاوَدٌ على الخضوع ، ولـن يقنـع بمأمول طالما أحس أنه يُراد به الظلم ، ويُكاد لـه ليرضخ ويستكين ، ولن يهدأ له بال ، أو يقبل الظلم وغمـط الحق دون أن يبـذل فـي قهـر من يضمرون له الشر ، ويراودنه على الإذلال كل مـا يسـتطيع ، وأن يشن عليهم الحرب العوان التي تملأ أرض العرب ، مـن الحجـاز إلـى نجد والعراقين والشام شرًّا ووبالا !! .

لا افتـخارٌ إلا لِـمَـنْ لا يُـضـــامُ

مـُـدركٌ أو مُـحاربٌ لا ينـــــام

ليس عزماً ما مَرَّض المرءُ فيه

لـيس هَمًّا ما عاق عنه الظلام

واحتمالُ الأذى ورؤيــةُ جـانيــهِ غــذاءٌ تضوى به الأجسام

ذلَّ من يَغْبِط الذليل بعيشٍ
رُبَّ عيْشٍ أَلَذُّ منه الحِمام
كُلُّ حِلْمٍ أتَى بغير اقْتِدارٍ
حُجَّةٌ لاجِيءٌ إليها اللئام
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهوان عليه
ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلام
ضاق ذرْعاً بأن أضيق به ذر...
... عاً زماني واستكرمتني الكرامُ
واقِفاً تَحْتَ أخْمِصيْ قَدْر نفسي
واقِفاً تَحْتَ أخْمِصَيَّ الأنامُ
أقَراراً أَلَذُّ فوق شَرارٍ
ومَراماً أبغِي وظُلمِي يُرام
دون أن يَشْرَقَ الحجازُ ونَجْدٌ
والعِراقان بالقَنا والشّآمُ ؟!

[السياق السادس والعشرون] *

وإنّي لمِنْ قومٍ كأنَّ نفوسنا
بها أنَفٌ أن تسكُنِ اللحم والعظما

هذه القصيدة هي التي قالها أبو الطيب في رثاء جدّته ، وفيها من شعر التعبير عن الذات فرائد لا نظير لها . فبعد مطلع حكميٍّ يلائم جوَّ الحزن والرثاء ، وفيه يتصبَّر أبو الطيب ، ويُبين أنه قد عرف صروف الليالي وأحداثها قبل ذلك المصاب ، فلما نزل به لم يكن غريبا عليه أو مفاجئاً له ، ثم يتحسر على أنه لم يحقق لتلك الجدة ما كانت تتمنى ، وأنه رحل وتغَرَّب باحثا عن مكانة هو بها جدير ، أو حظ من الحياة يليق بمثله ، ولكنه لم يحقق ما أراد ، ولم يصخ سمعا لتوسلات تلك الجدة في عهده الأول عندما رغبت إليه وألحَّت في الرجاء أن يبقى إلى جوارها ، ويعيشا على القليل والكفاف !! .

ثم يبين أن من حق تلك الراحلة أن تتيه وتفخر ، وأنها لو لم تكن من أرومة باذخة ، ونسب ماجد لكان عليها أن تعتز بأمومتها له ، وإنجابها لمثله ، وينسيه هذا الاستعلاء نفسه وغرضه فيفيض في الفخر بنفسه ، ويذكر أنه تغرَّب أبيًّا عزيزاً ، حيث لم يذلَّ لمخلوق ، ولم يعرف مهيمنا عليه سوى خالقه تعالى وتقدس ، وهو في رحلة حياته اختار خوض الصعاب ، والبحث عن المكرمات ، وقد عانى بسبب ذلك في أسفاره وانتقالاته ، وكان مسلكه موضع تساؤل وتوجس ، ممن

* العكبري ١٠٩/٤ . والبرقوقي ٢٣٥/٤ .

يحيطون به ، ومطلوبه وآماله أعظم من أن يصرح بها ، وأخطر من أن تذاع ، أو تقنع أحدا ممن لا يعرفون قدره ، ولا يقدّرون غناءه . ثم يستطرد في ذلك المعنى فيبين أن المباديء التي يدعو إليها ، والأخلاق التي يحرص على أن يصدر الناسُ جميعا عنها أمورٌ إصلاحية ، تتمثل في ألاَّ يُمَكَّنَ من السيادة والرياسة إلا من يستأهل تلك الرُّتب ، من أهل المروءة ، وذوي الفضل والجدارة ، وما أقلهم وأندرهم ، وما أكثر من يستحقون ممن رآهم من أهل عصره أن تُستأصَل شأفتهم !! وكأنَّ هؤلاء يعرفون من أمر المتنبي ذلك العداء ، ويدركون أن حتفهم ويُتْمَ أبنائهم سيكون على يدي ذلك الثائر الرافض لكل نقيصة ، الزاري على كل صغار .

ثم يذكر أبو الطيب في لهجة عاقلة حكيمة ، ورؤية فاقهة مستبصرة أن ما يتمناه ويرجو تحققه بعيدُ المنال ، بل هو أقرب إلى المستحيل ، فأنَّى له أن يجمع بين الفهم وعلوُّ الشأن ؟! إنه من أجل ذلك الإحساس لا يهدأ ولا يستكين ، بل يحاول أن يبلغ بحدِّ السيف وأسنة الرماح ما لم يتهيأ له على نحو سلميٍّ ، وهو لن يتوانى في ذلك لأنه لا يعرف أن يلوذ بالسكون مع اهتضام حقه ؛ لأنه نشأ في قوم يأبون الضيم ، وكأن هممهم العالية ، ونفوسهم الطامحة لا تريد أن تسكن بين العظم واللحم ، فيختارون لها الخطار والمغامرة ، فإما أن يتحقق لها المجد أو تقضي حرةً أبية !! .

ثم يتحدى الدنيا كلها قائلا لها : هذه طباعي ومُثُلِي ، وتلك مآربي وآمالي ، فاذهبي عنِّي إن شئت فلن تجدي مني سوى التحدي !! . ويتحول لنفسه طالبا إليها أن تزيد في عنادها للدنيا ،

ومغالبتها وتحديها ثم ينهي قصيدته مغالبا الصعاب متشددا أمام النوائب معلنا أن ساعةً من العمر لا تكون نفسه فيها عزيزة موفورة لا قيمة لها ، ثم يقول : إن روحي لو مالت إلى قبول الظلم ، أو رضيت الذل فلا كانت ، ولا بقيت مصاحبة لجسمي ، ولا مبقية على حياتي !!

ألا لا أُري الأحداث حمداً ولا ذمّا
فما بطْشُها جهْلا ولا كفُّها حلما
عرفْتُ الليالي قبل ما صنعت بنا
فلَمَّا دَهَتْنِي لم تَزِدْني بها علما
طلبْتُ لها حظاً ففاتتْ وفاتني
وقد رضيتْ بي لو رضيتُ بها قَسْما
ولو لمْ تكُونِي بِنْتَ أكرم والدِ
لكان أباك الضَّخْم كَوْنُكِ لي أُمّا
لئن لَذَّ يومُ الشَّامتين بموتها
لقدْ ولَدَتْ مِنِّي لآنافِهم رغْما
تغرَّب لا مستعظما غير نفسه
ولا قابِلاً إلا لخالقه حُكْماً
ولا سالكاً إلا فُؤاد عجاجةٍ
ولا واجداً إلا لِمكْرُمةٍ طعما
يقولون لي ما أنت ؟ في كل بلدة
وما تبتغي ؟ ما أبتغي جلَّ أنْ يُسمَى
كأنَّ بنِيهم عالمون بأنَّني
جلوبٌ إليهم من معادنه اليُتْما

وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعب من أن أجمع الجدّ والفهما
ولكنني مستنصرٌ بذبابه
ومرتكبٌ في كل حال به الغشما (١)
وإنّي لمن قومٍ كأنّ نفوسهم
بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا إذا شئتِ فاذهبي
ويا نفس زيدي في كرائهها قُدما (٢)
فلا عبرتْ بي ساعة لا تُعِزُّني
ولا صحِبتْني مهجةٌ تقبل الظلما !!

---

(١) ذبابه ، ذباب السيف : حدُّه . والغشم : الظلم . يريد : إن لم أقدر على أن أجمع بين النصيب الموفور من الحياة الكريمة والفهم فسأطلب النصرة بحد السيف وأقهر به من يحول بيني وبين بلوغ ما أريد .

(٢) المعنى : ها أنا ذا كما وصفتُ يا دنيا ! فابتعدي عني وترقبي عداوتي ، ويا نفس ليكن منك حرص على عداء الدنيا وإصرار على فعل ما تكرهه وتغضب منه .

[السياق السابع والعشرون] *

ومَنْ عرفَ الأيَّامَ معرفَتِي بها
وبالناس روَّى رُمْحَهُ غيرَ راحم !!

من قصيدة مدحية بدأها بداية غزلية رقيقة ، ثم دلف من ذلك إلى الشكوى والحكمة والفخر ، متسائلا عن شأنه مع الأيام ، أو إن أردنا الدقة شأن الأيام معه ، وموقف الدنيا منه ، فآماله فيها بعيدة المنال ، وكأنه يروم المستحيل ، أو يريد الإمساك بالنجوم ، ومطالبه فيها تحفها الأخطار ، وتحيط بها النوازل ، وكأنه يتنقل بين أفواه الأفاعي !! ثم يقرر أن من الحلم أن تستعمل الجهل أحيانا إذا كان الأحزم أن تفعل ذلك ، إذا رأيت أن الحلم سيجرُّ عليك الظُّلم واهتضام الحقوق ، كما ينبغي أن تزاحم مهما كانت الأخطار ، وتنال بُغْيَتَكَ تحت أسنة الرماح عندما ترى أن الحَيِيَّ محروم ، وأن من لم يزاحم مطرود ، ثم يرمي بدرَّة هذه القصيدة التي تدل على رؤية متأملة ، وحقيقة مؤلمة وهي أن من عرف حقيقة بني البشر مثلما علم أبو الطيب أو خبر أحوالهم فعليه ألا تأخذه بهم شفقة ، ولا عليهم رحمة ؛ لأنهم لن يرحموه إن ظفروا به !! وليتأكّدْ ـ حسبما يعتقد أبو الطيب ـ أنه بذلك الصنيع غير آثم ولا مُلام !! ثم ينهي افتتاحيته هذه معتزا بمقدرته وشجاعته ، وفصاحته وروعة بيانه ، فهو إذاً قد أربى في الجانبين على الغاية ، وجاوز في البابين كلَّ حدٍّ !! .

---

* العكبري ١١٢/٤ . والبرقوقي ٢٣٨/٤ .

فمالـي وللدُّنيا طِـلابي نُـجُومهـا
ومسْعـاي منـهـا في شُدُوق الأراقم (١)

مـن انحلـم أن تستعمل الجهل دونـه
إذا اتَّسـعتْ في الحلم طرق المظالم

وأنْ تـرد المـاء الـذي شطْـره دمٌ
فتسْقِي إذا لـم يسق من لا يُزاحِم

ومـنْ عرف الأيَّـام معرفتي بها
وبالنـاس روّى رُمحَـهُ غير راحـم

فليس بمرحُـومٍ إذا ظَفِـرُوا بِـه
ولا فـي الرَّدَى الجاري عليهم بآثِم

إذا صُلْـتُ لم أتْرك مَصـالا لصائل
وإن قُلْـتُ لـمْ أتركْ مقـالا لعالـم (٢)

(١) شدوق الأراقم : أفواه الحيات . وهو يتعجب من حاله مع الدنيا ، هو يريد معاليها ومنازل السمو والرفعة فيها ، وهي تُوقِعه في المهالك والملمّات !! .

(٢) صُلتُ : من المصاولة وهي المواثبة والمغالبة .

[السياق الثامن والعشرون] *

إذا غامرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ
فلا تقنع بما دُون النجُومِ
فطَعْمُ الموت في أمْرٍ صغيرٍ
كطعم الموت في أمر عظيمِ

هذه مقطوعة صغيرة مؤلفة من تسعة أبيات ، ذكر شرّاح الديوان أنه قالها عندما أغار الأعداء على أنطاكية ، فقُتِل في تلك الغارة مهره وفرسه ، فقال المقطوعة مفتخراً متأملاً .

بدأ أبو الطيب مقطوعته مقررا أن الإنسان إذا تطلع لتحقيق مطلب سامٍ ، فعليه ألا يقنع إلا بتحقيق مراده كله ، وبلوغ أقصى غاياته ، معللا ذلك بأن الآجال واحدة ، لا تختلف ولا تتباين ، ولا تتعدد ، فتجَرُّعُ الموت ـ إذاً ـ بُغية تحقيق هدف جليل كتجرعه في أمر حقير فأولى بالحُرِّ أن يمضي غير هيَّابٍ ولا وَجِل .

ثم أكد أنه سينتقم ممن أتلف فرسه ومهره ، ولن يحزن عليهما أو يبكيهما ، بل سيدع تلك المهمة للسيوف التي سيكون بكاؤها ماثلا في إراقة دماء الأعداء على أسَلاتِها ... ، ثم يبين فضل الإقدام والجرأة ، وينعى على الجبناء الذين يخيَّل إليهم أن الجبن وإيثار السلامة من قبيل العقل وبُعْدِ النظر ، ويذكر أنهم مخدوعون في زعمهم ، وآفتهم مرجعها فهمهم السقيم ، وسوء تقديرهم للأمور .

---

* العكبري ١١٩/٤ والبرقوقي ٤/٢٤٥

ثم يعاود أبو الطيب التأكيد على أهمية الشجاعة وغنائها وعلى الأخص لمن يريد أن يصدر في أموره عن حكمة وتعقُّل . ثم يبين أن كثيرا من الناس قد يعيبون الكلام الصحيح ، والرأي السديد ، وليس بالمعاب ، ولا المأفون ، بل العيب في أفهامهم وعقولهم التي قصرت بهم عن إدراك العواقب ، وتقدير المصائر .

إذا غامرْتَ في شرفٍ مَرُوم فلا تَقْنَع بما دون النُّجُومِ
فطَعْمُ الموت في أمرٍ صغير كطعم الموت في أمر عظيم
ستبكي شجوَها فرسي ومهري صفائِحُ دمْعُها ماء الجسوم (١)
يرى الجبناءُ أن العَجْز عقلٌ وتلكَ خديعةُ الطَّبْع اللئيم
وكلُّ شجاعة في المرء تُغنِي ولا مثلُ الشجاعة في الحكيم
وكمْ مِنْ عائبٍ قَوْلا حكيماً وآفَتُهُ من الفهْم السَّقِيم
ولكنْ تأخُذُ الآذان منه على قَدْر القريحة والعلوم

---

(١) الشجو : الحزن . والصفائح : السيوف . يرد : سأنتقم من أعدائي الذين قتلوا فرسي ومهري ، وستجري على سيوفي دماءٌ كأنها الدموع التي تفيض من الحزين على ما افتقد .

[السياق التاسع والعشرون] *

فلمَّا صار وُدُّ الناس خِبًّا

جزيت على ابتسامٍ بابتسام

وصرتُ أشُكُّ فيمن أصطفيه

لعلمي أنَّه بعضُ الأنام !!

هذه قصيدة الحُمَّى وهي من غُرَرِ شعر أبي الطيب ، وتعدُّ بأكملها من شعر الشخصية ، حيث أرسلها الشاعر تنفيسا عن معاناة شديدة ، وتصويرا لتجربة نفسية مؤلمة ، انتهت به إلى اليأس ، وعاين من خلالها كيف تتحطم الآمال ، وتطيش السهام ، ويخيب المسعى ، ويكبو الجواد ، وعلم في نهاية المطاف أنه تعلق بسراب خادع ، وأسرى إلى مدى غير معلوم ، وبنى حساباته على أوهام لا حقيقة لها ومنَّى نفسه الأمانيَّ !! .

وقصيدة الحمَّى تقوم وحدها دليلا على شاعرية المتنبي ، وتمثل نمطا من الأدب الذاتي الرفيع ، الذي يعكس ما يدور داخل أطواء النفس الإنسانية ، وما يتردد في حناياها ، وما تتجاوب به الذات الشاعرة مع العقل الواعي ، بل ما تتماوج به المشاعر ، ويُكِنُّهُ الضمير والوجدان ... ، ولقد أطلق المتنبي لنفسه العنان في التعبير الذاتي ، ولم يشغل قريحته ، ولا قيثارته بشاغل آخر ، فأتت القصيدة نموذجا فريدا في الوحدة والتماسك ، وقد أفردها للبث والشكوى

* العكبري ٤/١٤٤ . والبرقوقي ٤/ ٢٧٤ .

والفخر ورفض الهزيمة ، فأتت كلها حديثا ذاتيا خالصا ، ومناجاة شخصية بحتة . وأكاد أحس من هذه القصيدة أن شاعرنا قصد أن يجعلها تعبيرا خاصا ، ليس لأحد ولا لشيء آخر فيه نصيب ، ومن ثمَّ أتيحتْ له فرصة البوح بما تُكنه نفسه ، والحديث الصريح عن دخيلة حناياه .

بدأ أبو الطيب مناجيا صديقي روحه ، وسميري نفسه ، وهما شخصان متخيلان جرت عادة الشعراء العرب أن يجعلوا من اصطناع الحوار معهما سبيلا إلى البث والمطارحة الوجدانية ، قائلا لهما : يا من تلوماني وتسرفا في تعنيفي كَفَى لوْماً ! فأنا أعظم من أن أُلام ، وأسمى من أن أُعنَّف ، ولا تحسبا لومكما لي كلاما يقال ، وحديثا يطرح ، ثم يمضي هكذا دون أثر ، أويمرُّ كأن لم يكن . كلاَّ ! إن وقعه على نفسي أشدُّ من وقع الجراح ، فكيف لمثلي أن يُلام أو يتعقب الآخرون مسلكه ، أو يُنتقَد منهجه في الحياة ؟! ألا فاتركاني وما أنتويته ، وذراني وما قررته ، ولا تخافا عليَّ الخطار ، ولا تخشيا عليَّ بُعد الأسفار ، ولا مشاق المفاوز التي أقطعها ، والهجير الذي أتعرَّضُ للهيبه ؛ فإني أرتاح لذلك النمط من العيش ، وإن حُفَّ بالمخاطر ، واكتنفته الصعاب . بل إني لأتعبُ وأنصبُ ، وأضيق وأضجر بالبقاء منزويا مهملا ، قانعا بالانعزال والانطواء ، وماذا تخشيا عليَّ ؟ أتظنان أنِّي أضل في الصحراء ولا أهتدي حتى أهلك ؟ كلا . فأنا أعلم من مسالك الطرق ، ووسائل الاهتداء ما يعرفه البدو ويسلكونه عند الشدائد ، فعيون إبلي تنوب عني في الاهتداء إن

اختلطت عليَّ السبل ، وإن نفد مني الماء في أثناء الرحلة احتلت احتيال الأعراب البصراء ببيئتهم فعددت البرق الذي يلمع في جانب الأفق ، فإن بلغ حدًّا معينا رجَّحت أن يكون منه مطر وغيث ، فاتجهت ناحيته فارتويت وتزودت !! كما لا أحتاج إلى من يحرُسُني أو يحميني من الأخطار ، فعناية الله عز وجل خير حامٍ ، وأفضل حارس ثم إن معي سيفي وقلبي الشجاع ، فلا أحتاج ما يحتاجه المنفرد من الحماية . ولا أقبل أن أنزل ضيفا ثقيلا على الأشحاء الباخلين ولو لم يكن لي زاد إلا ما أسدُّ به الرمق من بَيْضِ النعام أو ما يشبهه .

وبعد هذه الإضاءة التي ألمح فيها أبو الطيب إلى جانبٍ من صفاته وما جُبِل عليه يكشف لنا خبرته بالناس ، واكتواءه بما لقيه منهم من ختل ونفاق ، وكذب وادعاء ، فيذكر أنه لما خبر طباع الناس واقتنع بأنه لا سبيل إلى صرفهم عما اعتادوه ودرجوا عليه ـــ لما أيقن من ذلك جعل يبادلهم نفاقاً بنفاق ، وابتساما مكذوبا بابتسام وهو على يقين من أنهم يضمرون له البغض والشنآن ، وأصبح يتوجس ممن يريد أن يتخذهم أصدقاء مقربين ؛ لكون هذا الذي يفكر في أن يصفيه الودَّ واحدٌ من بني البشر ، تغلب عليه طباعهم ، ويتلوَّن في علاقاته كما يفعلون !! ثم يبيِّن أن العقلاء المجرِّبين يختارون من يمحضونهم الودَّ انطلاقا من اختبار أخلاقهم ، وانتخاب خصال الخير فيهم ، أما الجهَّال فيشغلهم المظهر الخادع ، ويكتفون بالسمت الوسيم ، ويبيِّن أبو الطيب أنه يلتزم معالي الأخلاق ، ويُجِلُّ المتصفين بها ، ويكره أهل اللؤم والوضاعة ، ويتبرأُ منهم ولو كانوا من أقرب الناس إليه ، ثم يتعجب ممن تقعد بهم هممهم ، ويستنيمون إلى السفاسف والدناءات

وكان المنتظر منهم أن يكونوا أهل مروءة ؛ لانتمائهم إلى أصول ماجدة ، وأعراق طيبة ، ولكن خصال اللؤم غلبتهم على صفات آبائهم وأجدادهم ، ويتحدث عن نفسه فيبيّنُ أنه لا يكتفي بأن يُقال عنه أنه منتسب إلى أصولٍ عريقة ، وأرومة باذخة بل يضيف إلى أمجاد أسلافه أمجادا ومناقب ، ومكرمات ومآثر ، وإن أبا الطيب ليعجب من كثيرين ممن يراهم ويخالطهم ؛ لأنه يرى لهم في باديء الأمر هيئة توحي بالغناء والكفاية ، فإذا جُرِّبُوا انكشف خواؤهم ، وتبين ضعفهم ، وهو حزين من أجل أمثال هؤلاء ، إذ أُتيحت لهم الفرصة ، وتمهدت لهم السبل فلم يرتقوا بأنفسهم ، وآثروا أن يعيشوا هملا ، وهؤلاء شأنهم عجيب ، ومسلكهم محيِّر ، فقد كانوا قادرين على بلوغ مراقي الرفعة ولكنهم رغبوا في التسفل والانحطاط !!.

ثم بدأ أبو الطيب يشرح مبلغ ما عاناه في مقامه بمصر ، ويسرد خلاصة ما آل إليه حاله ، بعد أن أمَّل من انتقاله إليها كبت أعدائه في بلاط سيف الدولة ، حادساً أنه سيجني من رحلته تلك ما يغَصُّ به الحاسدون ، وتتلظى منه غيظا قلوب الشامتين ، فماذا كان المآل ؟ لقد تبددت تلك الآمال ، وتقشعت الأحلام ، وأصبح ذلك الشاعر الفذ ، والعندل الصداح مهملا منزويا ، لا يشعر به أحد ، ولا يجد ما كان له عند سيف الدولة من مكانة ووجاهة ، وذكر ونباهة ، وشهرة وذيوع صوت ... ، لقد ضاع ذلك كله وتبدد ، وذهب إلى غير رجعة واندحر وأين هو من ذلك كله الآن ؟ لقد لبث في مصر معزولا مهملا ، لا دور له ولا مكانة ، لا يروح ولا يجيء ، لا أنصار ولا أشياع ، ولا محبين ولا موالين !! لقد كان في عهده الأول لا يعرف القرار ،

وكانت حياته كلها أسفاراً وأمجاداً ، ومشاركة في صنع الأحداث ، وكان لا يكاد ينام في فراشه أو يأوي إلى مضجعه المعهود إلا الفينة بعد الفينة ، وربما مرّتْ الشهور الطوال دون أن يُلِمَّ بعشه ، أو يأوي إلى مستقره ، والعجيب أنه غدا في مصر مقيما لا يريم ، جاثما لا يروح ولا يغدو ، فملّه الفراشُ بعد أن كان لا يعرف له قرارا !! .

ومما يضاعف من معاناته أنه لم يجد في مصر مسلاة تنسيه ما افتقد فعُوّاده قليلون ، وحُسّاده والشامتون به لا يُحصَوْن عددا ، وآماله محطمة ، وأمانيه قد ذهبت بددا ، وقلبه سقيم عليل ، وجسمه لا يقوى على النهوض ، كأنه ثَمِلٌ من الهَمِّ ، ذاهلٌ من الشقاء والمعاناة !!

ثم ينقلنا أبو الطيب إلى دُرَّة قصيدته هذه وهو وصفه للحمّى التي ألَمَّتْ به ، وصورة الحمى كما أبدعها أبو الطيب في هذه القصيدة من أعذب الصور الأدبية وأبرعها خيالا ، وأحفلها بالشاعرية الفياضة ، وقد أطال فيها شاعرنا ، وساق حديثه عنها مساقا إيحائيا معبرا ، إذ كنى عن الحمّى بالزائرة ، واستطرد في تصويرها على هذا المنحى الكنائي ، حتى ليخيَّل لمن لم يعرف سياق القصيدة أن الشاعر يتحدث عن زائرة على الحقيقة ، أو عن محبوبة واصلة ، حرصت على الزيارة على خلاف العادة ، وعلى عكس المألوف !!

وهاهي ذي الصورة كما رسمها أبو الطيب : إن الزائرة التي يحدثنا عنها حيية خجولة ، تأبى أن تلم به في وضح النهار فتختار لذلك أن تأتيه تحت سدوف الظلام ، وهو قد علم بأمر إلمامها وزيارتها فأعدَّ لها ما يليق من فرش ومتّكآت ، وأغطية ووسائل راحة

ولكنها تركت ذلك كله وأبت إلا أن تنزل في صميم جسمه ، وعمق عظامه ، حتى جعلت جسمه مترهلا ، وإهابه فضفاضا ، وعندما تنصرف عنه تلقي عليه مزيدا من الماء الطهور !! وقد تكررت زياراتها وتتابعت ، وفي الأمسية تلو الأمسية ، وهو في كل مرة ينتظرها في لهفة وترقب ، ويتمنى ألا تجيء لسوء صنيعها به ، وضرر نزولها عليه ، ولكن وعدها يصدق ، وعادتها لا تتخلف ، وما أفدح صدق الوعد إذا نتج عنه الضرر المحقق ، والخطر الوبيل !!

هكذا رسم أبو الطيب الصورة الظاهرة للزائرة ، فإذا أردنا أن نعبر عن مقاصد تصويره ودلالاته وجدناه يرمي إلى الآتي : إن نوبات الحمى لا تأتي عادة إلا ليلا ، وقد عاوته مرارا وتكراراً ، ومن العادة أن نوباتها يصحبها ارتعاش وقشعريرة ، وإحساس بالبرودة ، فلا غرو أن يهيء المصاب بها ما يلزم لمقاومة تلك النوبات من أغطية وأكسية وقد خيّل لنا الشاعر أنه أعدَّ لها تلك الفرش لتنعم بالراحة وتسعد بالضيافة ، ولكن الزائرة العجيبة تأبى أن تقنع بما أعده لها بل تصر على أن تنزل في صميم الجسم وعمق العظم ، ولما كانت نوبات الحمى وتأثيراتها تتمثل في الهزال ، والنحول خيّل لنا أبو الطيب أن سبب ذلك النحول وترهل الجلد هو تسلل الحمى بين الجلد وما تحته وتوسيعها له بألوان الأسقام والأدواء !! ثم يخيّل لنا في نهاية الصورة ما تنتهي به نوباتها من عرق شديد يتصبب من المحموم بأن الزائرة الغريبة هذه آثرت أن تُطَهِّرَ مَنْ زارته بعد ما كان من لقائهما وكأنهما كانا عاكفين على إثم وجرم يستوجب التطهُّر منه !!

ثم يفكُّ أبو الطيب اللُّغْز ويفسر الأُحجِيَّة عندما يخاطب تلك الزائرة بنعتها الحقيقي وهو " بنت الدهر " أو النازلة الملمة ، والمصيبة التي رُزِيء بها فنعرف أنها الحمَّى ، ونتأكد أنها زائرة مرغوبٌ عنها ، يُرثَى لمن نزلت به ، ويُواسَى من حلَّت بساحته .

إنه الآن يخاطبها بنعتها الحقيقي قائلا لها في نغمة حزينة ضارعة : أيتها النازلة الملمة . إن عندي من النوازل والرزايا ما لا يُحصَى عددا ، وقد أحاطت بي الكوارث ، والتَفَّتْ من حولي المصائب حتى لم تدع موضعا ينفذ منه بلاء جديد !! وإنني لأتعجب كيف تسنى لك أن تخترقي نحوي هذا الطوق من المصائب ؟ وكيف فقدت المروءة ، وطاوعتك نفسك أن تجرحي مصابا لم يعد فيه موضع لجرح جديد !! .

ثم تعاوده أحلامه القديمة فيتساءل هل تعود كرَّة تلك الأيام الممتعة الحافلة مرَّةً أخرى ؟! وهل يعود إلى سابق عهده يمتطي صهوة الخيل ، ويمسك بزمام الرواحل ، ويسعد بتلك المغامرات التي كان يشارك فيها ، إنه يأمل أن تكون مثل تلك المشاركات سبيلا إلى الراحة النفسية والإحساس بالرضا عن الذات ؛ لأن هذه الأعمال على ما يكتنفها من خطر كانت تجد هوى في نفسه ، وصدى طيبا في وجدانه ، وتُشعِره بالمعنى الحقيقي للحياة !! .

وفي ختام تلك القصيدة الرائعة يُعَرِّج بنا أبو الطيب لندلف معه إلى مجلس حكمته ، وملتقى مريدي فلسفته ، فيدير حوارا مع الطبيب الذي جيء به ليَطِبَّ له من الحمى ، ويلتمس له الدواء ، بعد أن

يفحص أسباب الداء ، بيد أن الشاعر المحموم يطلعنا على أنه أخْبَرُ بعلته ، وأبْصَرُ بدائه من الطبيب الذي أُوكِل إليه ذلك الأمر ، ويعقد شاعرنا حواراً طريفاً مع ذلك الطبيب ، يمكن أن نستعرضه على النمط التالي :

الطبيب : لقد تناولتَ طعاماً ما أو احتسيت شرابا ما فكانت تلك الحمَّى ! فخبِّرني ماذا أكلت وماذا شربت ؟!

الشاعر : عجباً ! أيها الطبيب لم آكل شيئاً يسبب لآكله الحمَّى ، ولم أشرب شيئا كذلك !! ولكن دعني أخبرك سبب علتي وخَبَرَ الحُمَّى التي عاودتني ، واعذرني لا بل أنا الذي أعذرك فليس فيما درستَ وجرَّبْتَ ما يُطلعك على تلك العلة !! أيها الطبيب : إن علتي تكمن في معاناة روحي ، وانقباض نفسي ، وتحطم آمالي ... ، وهذه كلها جعلت جسمي لا يقوى على المقاومة فتمكنت مني الحمى ، واعتل الجسم لاعتلال النفس ، وتعاطف البدن مع الوجدان ! أيها الطبيب ائذن لي أن أوضح لك أكثر وأفيض وأسوقَ الأمثلة ! إن حالي كحال الجواد الأصيل الذي عوّده فارسه المراس والمران ، وشارك به دوماً في المنازلات وأقحمه الأخطار ، وعلَّمه الكرَّ والفرَّ ثم فجأة ودون مقدمات حُرِم من ذلك كله ، وأُبعِدَ عما أَلِفَ ، وأُهمل لا يدرَّب ولا يمرن ، ولا يشارك في منافسات ، ولا يدخل في مواجهات ، وقُيِّد محبوساً ، لا

يـتريض ولا يتمتـع ... ألا يعْتَـلُ ذلـك الفـرس ؟! ألا تصاب قواه بالعطب ؟! ألا يشكو ، ويضطـرب كيانـه ؟! هكذا أنا مثله أصابني من الإهمال ما أصابـه ، وعـانيت القيد مثلما عانى !!

أفهمت سيدي الطبيب علتي ؟ وأقنعك " تشخيصي " ؟ !

ثم ينهي أبو الطيـب قصـة مقامـه بمصـر ومـا اكتنفهـا مـن عنـاء كعهدنا به مُبْدياً تحمله للشدائد ، مؤكداً أن جسمه وإن اعترته علة فإن إرادته على صحتها وقوتها ، وصبره على الشـدائد لا ينـي ولا يكـل ، وهو إن سلم من السُّقم العارض فلـن يسـلم إلـى مـا لا نهايـة ، بـل إنـه على يقين من أن كل حيٍّ سيودّع الدنيا إن عاجلا أو آجلا ، ولكنـه مـا بقي فيه رمق ثابتٌ على مبادئـه ، مستمسـكٌ بصرامتـه وقـوة جَلَـدِهِ ، معتصم بما درج عليه من إباء ، بـاق علـى مـا عـرف عنـه مـن رفيـع الشيم وكريم الخصال .

ملومُكُما يَجِلُّ عن الملامِ ... ووقْـعُ فعـاله فـوق الكَـلامِ

ذَراني والفَـلاةَ بـلا دليـلٍ ... ووجهيَ والهجيرَ بـلا لثـامِ

فـإنّـي أستريـحُ بـذا وهـذا ... وأتعَـبُ بالإنـاخَـةِ والمُـقـامِ

عيـونُ رواحلـي إنْ حِرتُ عيْني

وكُـلُّ بُغام رازحـةٍ بُغـامـي (١)

---

(١) حِرْتُ : تحيَّرتُ . البغام : صوت الناقة للتعب ، وهو صوت لا يفصح . الرازح من الإبل : الهالك هزالا .

فقد أردُ المياهَ بغير هادٍ سوى عدّي لها برقَ الغَمام
يُذِمُّ لمهجتي ربِّي وسَيفي إذا احتاج الوحيد إلى الذِّمام
ولا أُمسي لأهل البُخل ضيفاً
وليس قِرىً سوَى مُخِّ النِّعام
فلمّا صار وُدُّ الناس خِبًّا جزيتُ على ابتسامٍ بابتسام
وصرتُ أشُكُّ فيمن أصطفيه لعلمي أنَّه بعضُ الأنام
يُحِبُّ العاقلون على التصافي وحُبُّ الجاهلين على الوَسام
وآنَفُ من أخي لأبي وأُمّي إذا ما لمْ أجِدْه من الكِرام
أرى الأجدادَ تغلبها جميعاً على الأولاد أخلاقُ اللئام
ولستُ بقانعٍ من كلِّ فضلٍ بأن أُعْزَى إلى جَدٍّ هُمام
عَجِبْتُ لمَنْ له قدٌّ وحدٌّ وينْبو نبوة القَضِمِ الكهامِ (١)
ومَنْ يجد الطريقَ إلى المعالي
فلا يذَرِ المَطِيَّ بلا سَنام
ولم أرَ في عُيوب الناس شيئاً
كنَقْصِ القادرِينَ على التَّمام
أقمْتُ بأرض مصرَ فلا ورائي
تخُبُّ بِيَ المطِيُّ ولا أمامي
وملَّنِيَ الفِراشُ وكان جنبي يَمَلُّ لقاءَهُ في كل عام

(١) القضم : السيف المثلّم . الكهام : الذي لا يقطع . ينبو ، يقال نبا السيف عن الضريبة : لم يصبها .

قليلٌ عائدي ، سقِمٌ فؤادي
كثيرٌ حاسدي صعْبٌ مرامي
عليلُ الجسمِ ممتنع القيام
شديدُ السُّكْرِ من غيرِ المُدام
وزائرتي كأنَّ بها حياءً فليس تزور إلا في الظَّلام
بَذَلْتُ لها المطارف والحشايا
فعافتْها وباتتْ في عِظامي
يضيقُ الجِلْدُ عن نفسي وعنها
فتُوسِعُه بأنواع السِّقام
إذا ما فارقتْني غسَّلتْني كأنَّا عاكفان على حرام
أراقب وقْتها من غير شوقٍ مُراقبةَ المشُوق المُسْتهام
ويصدقُ وعْدُها والصِّدقُ شرٌّ
إذا ألقاكَ في الكُرَبِ العِظام
أبِنْتَ الدَّهرِ عنْدي كُلُّ بِنْتٍ
فكيف وصلتِ أنتِ من الزحام
جرحتِ مُجَرَّحاً لم يبق فيه مكانٌ للسيوف ولا السهام
ألا يا ليت شعر يدي أتُمْسي تَصَرَّفُ في عنان أو زمامِ
وهل أرمي هواي براقصاتٍ محلاَّةِ المقاود باللُّغامِ (١)
فرُبَّتما شَفَيتُ غليل صدري بسيْرٍ أو قناةٍ أو حُسامِ

---

(١) الراقصات : الإبل التي تسير مختالة ، والرقص ضرب من السير في سرعة . واللغام : الزَّبَدُ الذي يخرج من فم البعير .

(٢) الفِدامُ : نسجٌ يوضع على رؤوس الأباريق التي بها الخمر ليصفيها .

وضاقت خُطَّةٌ فخلصتُ منها

خِلاص الخمر من نسج الفِدام (١)

وفارقْتُ الحبيب بلا وداعٍ ووَدَّعت البلاد بلا سلام

يقول لي الطبيب أكلت شيئا وداؤك في شرابك والطعام

وما في طِبِّه أنِّي جوادٌ أضرَّ بجسمه طولُ الجمام

تعَوَّدَ أن يُغبِّر في السرايا ويدخُل من قتامٍ في قتام

فأُمْسِكَ لا يُطالُ لهُ فيَرْعَى

ولا هُوَ في العَليقِ ولا اللجام

فإن أمرضْ فما مرضَ اصطباري

وإن أُحْمَمْ فما حُمَّ اعتزامي

وإن أسلمْ فما أبْقَى ولكنْ

سلِمْتُ من الحِمامِ إلى الحِمامِ !!

---

(١) الفِدامُ : نسجٌ يوضع على رؤوس الأباريق التي بها الخمر ليصفيها .

[السياق الثلاثون] *

سبحان خالق نفسي كيف لذَّتُها
فيما النفوس تراهُ غايَةَ الألمِ

قصيدة قالها عند خروجه من مصر يصف حاله ويرثي صديقه " فاتكاً " . وقد بدأها بالشكوى من حياته التي امتلأت بالأسفار والأخطار وتساءل إلى متى يبقى سارياً مع النجوم ، يقطع المسافات ، ويطوي المراحل ؟! لا . بل إن النجوم لا تعاني ما يعانيه ، ولا يصيبها النصب الذي يصيبه ، ثم يقول إنني لا أذُمُّ العيس ولا أعيبها ؛ لأنها كانت سبباً في فراق مَنْ أبغض ، والبعد عمن أكره ، والخلاص من كيد من أرادوني على الرضوخ والذل ... ، ثم وصف غلمانه وأتباعه الذين يعتمد عليهم في أسفاره ويحملون عنه بعض الأعباء ، وأوضح أنه أزعج إبله وركائبه بعيداً عن منابت العشب والكلأ ؛ طمعاً في أن تبلغ بهم منابت الكرم ، ثم استدرك شاكيا صارخا ؛ إذ لم يجد كريما بعد أبي شجاع " فاتك " في مصر كلها ، فلما تأكد له ذلك رحل عنها ، ثم وصفه بأنه هُمام لا نظير له ، ولم يكن يشبهه أحد من الناس في صفاته ولكنه أصبح شبيها بمن حوله الآن من الأموات !! ولقد بحث أبو الطيب عن نظير لفاتك فلم يزدد إلا فقداً وعُدْما ، ولقد تنقّل بين كثيرين ، ومما يعجب له أن إبله تكاد تضحك من حال هؤلاء المقصودين ، وتسخر من هوان شأنهم ، وتأسى لما أصابها من عناء

* العكبري ١٦٣/٤ . والبرقوقي ٢٩٥/٤ .

في سبيل الوصول إليهم ، والنزول عندهم ، وهو يرثي لهذه الإبل التعسة التي قُدِّر عليها أن تتنقل بين أقوام لا خلاق لهم ، ولا مروءة عندهم ، وكأنهم الأصنام الجوامد ، لا بل الأصنام أفضل منهم ؛ لأنها لا تفعل ما يفعلون من النقائص والمعايب .

ثم يبيِّن أبو الطَّيِّب أن تطوافه بين هذه الأنماط من البشر قد جعله على قناعة بأن المجد لن يتحصل بأن يُقْصد أمثال هؤلاء ، بل لن يتحقق المجد إلا بحد السيف ، وليس باستخدام القلم والبيان ، وأن على مثله بعد أن يعرض فكره وأدبه أن يُعْمِلَ سيفه ورُمحه ، فالقول والإقناع خدمٌ للسيف ولأدوات القتال .

ثم أوضح أبو الطيب طبيعة الصلة التي تقوم بينه وبين من يقصدهم بمدائحه ، إذ بيَّن أن فريقا منهم يظنونه سائلا مستجديا ، أو أنه إنما قصدهم لهوان شأنه ، وقلَّة غنائه ، وهؤلاء جميعا مخطئون كما يرى أبو الطيب ، ثم يستطرد قائلا : وهذا سبب إعراضنا عن كثيرين منهم ممن لم يَقْدُرُوا قدرنا ، ويعرفوا فضلنا ، وأمثال هؤلاء لا ينبغي أن يزورهم من قِبَلِنا إلا الضربات القاتلات ، التي تزهق الأرواح ، وتتلف الأبدان ، من سيوفنا التي لم تُستخدَم إلا بأيدي الأبطال الكرماء ، والفرسان النجباء ... ، وكأني بأبي الطيب هنا يريد أن يقرر أنه يطلب ممن يقصدهم أن ينزلوه عزيزا مقدَّراً ؛ لاعتقاده أن ما يمدحهم به أنفع لهم وأجدى عليهم مما يبذلون له من أموال ، أو يُجْرُون عليه من هبات ، وأنه بما مُنِح من موهبة فذَّة ، وشاعرية فياضة ، وعقلٍ راجحٍ لا يقل عنهم فضلا واستحقاقا ، فلا أقل من أن

يلقى منهم التقدير والتكريم ، وألا يشعر أنه عندهم مهانٌ محتقرٌ أو مهمل مضيَّع !! .

وينتقل بنا أبو الطيب بعد ذلك إلى مجلس حكمته ، وحلقة فلسفته ، وخلوة تأمله ، فنراه باديء ذي بدء يناجي نفسه قائلا لها : هوّني على عينيك ما ترين مما تكرهين ، واعتدّي ذلك حُلْماً مزعجاً تراءى لك على غير رغبة منك ، ولا مقدرة على مدافعته ، أو خيار في رؤيته . ثم نراه ينصح سامعيه المصيخين لحكمته ، الحريصين على الإفادة من تجربته ألا تكون منهم شكوى ، أو إظهار ضعف وقلة حيلة ؛ قناعة منه بأن من يشكو إليه الإنسان قد يشمت به ، وربما أطمعه معرفة ما يعانيه فيغريه ذلك بالتطاول عليه ، ويكون حاله عندئذٍ كحال الجريح الذي يشكو إلى الغربان والطيور الجارحة التي لن ترحمه ، ولن تلتفت إلى شكواه !! ثم يستطرد أبو الطيب في نصائحه المستنبطة من خبرته بأحوال الناس وتجاربه معهم فيذكر أن العاقل ينبغي أن يكون حذراً في في منح ثقته لمن يختلط بهم حتى يختبرهم ويطمئن إلى ما انطوت عليه نفوسهم ، وألا يغترّ منهم بالمظهر الخادع ، والودّ المكذوب ، وذلك لقلة الوفاء ، وافتقاد الصدق في الوعود والأخبار ، بل وما يُقسِم البعض عليه بأغلظ الأيمان !!

ثم يُرسِلُ أبو الطيب تلك القولة الفذّة التي يعجب فيها من حاله ، وما انفرد به دون سائر من يراهم من الخلق ، كيف تكون راحته فيما يراه الآخرون نصباً وعناءً !! إنه يحرص على الوفاء والصدق والصراحة وحب معالي الأمور والنفور من سفاسفها ... وغير ذلك من الأخلاق المحمودة ، وينفر ويحتقر كل من يتصف بصفات اللؤم .

وخصال الخسة والانحطاط ، وهذه الأخيرة مما يستريح إليه الأعم الأغلب من بني البشر في عصره ، وفي سائر العصور ، فلم كانت نفسه من بين سائر النفوس تستريح لما يشقى به الآخرون ويتهربون من تحمل تبعاته وأعبائه ؟!

وينهي أبو الطيب قصيدته بالتأكيد على أن الدهر يعجب من احتماله ما يتحمله من النوائب والخطوب ، وصبر جسمه على ما ينزل به من صنوف الضرر والحرمان والعناء ، ثم يقول : إن مأساتي باختصار أني ظهرت في غير أواني ، ونشأت في غير عصري ، ولم أصادف ما كان ينبغي أن أنتسب إليه من الأمم ، ولعل الأماجد الذين أتشبه بهم ، وأجتهد أن أسلك مسلكهم وأتخلق بأخلاقهم ـــ لعلهم كانوا أسعد حظًا مني ؛ لأنهم صادفوا الزمن في إبّان فتائه وشبابه وفروسته فنالوا منه ما أمّلوا ، وحصّلوا من المجد ما أرادوا ، أما عصرنا نحن فقد أدركْنا فيه الزمن وقد هرم وخرف فكان لنا منه ما كان من سوء الصنيع ، ورديء الخلال والصفات !! .

حتّامَ نحن نُساري النجْمَ في الظُّلَمِ
وما سُـراه على خُفٍّ ولا قدَم (١)
لا أبغَضُ العيس لكنّي وَقَيْتُ بها
قلبي من الحُزْن أو جسمي من السقم
طردْتُ من مصر أيديها بأرجلها
حتّى مرقن بنا من جَوْشَ والعَلَم (٢)

---

(١) نُساري النجم : نسير معها في آخر الليل وهو السُرى . (٢) جوش والعلم : جبلان معروفان لمن يسلك ذلك الطريق . (٣) معكومة : مشدودة الأفواه ممنوعة من الرعي .

مَعْكُومةً بسياطِ القوم نَضْرِبُها
عن منبتِ العُشب نبغي منبت الكرم (١)
وأين منبتُهُ من بعد منبته أبي شُجاعٍ قريعِ العُرب والعجم
لا فاتِكٌ آخَرٌ في مصرَ نقْصِدُهُ
ولا لـه خلفٌ في الناس كلِّهم
من لا تُشابِهُهُ الأحْياء في شِيَمٍ
أمْسَى تُشابِهُهُ الأمواتُ في الرمم !!
عدمتُهُ وكأنِّي سرتُ أطلبه فما تَزيدُني الدنيا على العَدَم
ما زِلْتُ أُضْحِكُ إبْلِي كلما نظرتْ
إلى من اخْتَضَبَتْ أخْفافُها بِدَمِ
أُسيرُهَا بين أصنامٍ أشاهدها ولا أُشاهد فيها عِفَّة الصَّنَمِ (٢)
حتَّى رجعْتُ وأقلامي قوائِل لي
المجْدُ للسيْف ليس المجدُ للقلم
أُكتبْ بنا أبداً قبل الكتابِ به فإنَّما نحن للأسيافِ كالخَدَم
أسمعْتِنِي ودوائِي ما أشرتِ به
فإنْ غفِلْتُ فدائِي قِلَّةُ الفهم

---

(١) معكومة : مشدودة الأفواه ممنوعة من الرعي . (٢) أسيرها : أسير عليها .

مَن اقتضَى بسوى الهِنْديِّ حاجته
أجاب كل سُؤالٍ عن هلٍ بلَم (١)
توهم القوم أن العجز قربّنا وفي التقرُّبِ ما يدعو إلى التُّهم
ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم
فلا زيارة إلا أن تزورهمُ أيْدٍ نشأن مع المصقولة الخُذُم(٢)
من كل قاضية بالموت شفرته ما بين مُنْتَقَمٍ منه ومُنْتَقِم
هوّن على بصرٍ ما شقَّ منظره فإنما يقظات العين كالحلُم
ولا تشَكَّ إلى خلقٍ فتُشْمِتَه
شكوى الجريح إلى الغِربان والرخم
وكن على حذرٍ للناس تستره ولا يغُرُّك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه في عِدَةٍ
وأعوز الصدق في الأخبار والقسم
سبحان خالق نفسي كيف لذّتُها فيما النفوس تراه غاية الألم ؟!
الدهر يَعْجب من حملي نوائبه
وصبر جسمي على أحداثه الحُطُم (٣)
وقتٌ يضيع وعمرٌ ليت مدّته في غير أمّته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرم !!

(١) المعنى : من طلب حاجته بغير السيف لم يحقق ما يريد ، فجعل (هل ولم) بدلا من عبارة أخفق في مسعاه ؛ لأن مقصوده أن من يطلب مسعاه بغير السيف فحاله أن يجيب من يسأله : هل أدركت بغيتك ؟ بقوله : لم أدرك . فاختصر حكاية السؤال والجواب بالأداتين (هل ولم) .

(٢) المصقولة الخذم : السيوف الجياد القواطع .

(٣) الحُطُم ، جمع حطوم : أي مدمرة محطّمة .

[السياق الحادي والثلاثون] *

أفاضِلُ الناسِ أغْراضٌ لذا الزَّمَن
يخلو من الهم أخْلاهم من الفطنِ
لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّته
وهل يروق دفِيناً جودةُ الكفَنِ

قصيدة مدحية مدح بها أبو الطيب القاضي الأنطاكي ، في بدايتها طائفة مؤثرة من شعر الوجدان الممزوج بالحكمة ، بدأها شاعرنا بالإشارة إلى أن أفاضل الناس كأنهم مستهدفون من قبل عاديات الزمان ، يرميهم بنوائبه ، ويخصهم بالمحن ، فلا يزالون في معاناة ، وكأنه قُدِّر عليهم ألا يخلو من الهموم إلا من سُلب الفطنة ، وحُرم الذكاء ، ثم يشكو تغيُّر الدهر وفساد الجيل بأكمله ، وأنه كلما نظر حوله وجد أنماطاً من هؤلاء الذين لا فرق بينهم وبين البهائم ، وأنه لا يرحل عن بلد إلا وهو مضطغن على أهله غير مرتاحٍ لأحد منهم ، حتى ملوكهم لا خير فيهم ، ولا غناء عندهم ، وقد عاشر كثيرين منهم فوجدهم أحرى أن تقطع رؤوسهم ، وهو من فرط كراهيته لهم يكاد يعذرهم ويرثي لحالهم ؛ لجهلهم بما ينبغي أن يكون مسلكاً قويماً ، فقد فقدوا العقول التي هي الأساس في الأدب والسلوك ، فلا جدوى من محاولة إصلاحهم ، وأنه ربما عاشر قوماً صعاليك ، يجلسون لفقرهم على التراب ، عارين من الثياب ، كاسين من الأقذار ، يحيون على السرق والفتك ، ولا طعام لهم إلا ما يصيبون من الغارات ، وربما

* العكبري ٢٠٩/٤ . والبرقوقي ٣٤١/٤ .

اضطروا إلى أكل بيض الضباب من فرط الجوع والحرمان ... ، يقول : وقد أخالط أمثال هؤلاء مضطراً دون أن أطلعهم على حقيقة أمري ، وربّما حدسوا بشخصي ، ولكني لا أصارحهم بشيءٍ خوفاً من غدرهم ، وقد أجاريهم في مسلكهم وأصنع مثل صنيعهم حتى يحسبوني على شاكلتهم ، ولا يرتابوا في أمري .

ولقد ساعدني صبري وعلوُّ همتي على تحمُّل المواقف الصعبة وشظف العيش دون شكوى أو تململ ارتقابا لتحقيق الآمال ، وبلوغ المراد . ثم يبين أبو الطيب بعد ذلك أن كثيراً من أرباب السياسة وبُعْد النظر يساعدهم ذكاؤهم وفطنتهم على التخلص من المواقف الصعبة ، وأن الجبناء الحمقى قد يدفعون حياتهم ثمناً لجهلهم وغفلتهم ثم يؤكد أن الذليل لا ينبغي له أن يسعد بجمال زيه وسعة ذات يده ؛ فحاله عندئذٍ كحال الميت الذي لا ينفعه جودة كفنه !! ويتعجب من إخفاقه فيما يؤمل وكأن الأقدار تخلف ظنونه وتبدد آماله ، وهو مُصِرٌّ على نيل ما يطلب والظفر بما يؤمل فيكون المطال وخلف الوعد !!

ويتحدث شاعرنا بعد ذلك في نبرة حزينة نادمة على بذل ثنائه ومديحه لقومٍ لا يستحقون الإطراء ، ولا يستأهلون الثناء ، ويتوعد هؤلاء – إن كُتِب له البقاء – بأن يكون لهم منه الانتقام والغارات بدلا من المدح والإطراء ، وسيحرص على النيْل منهم ، ولا محيد له عن ذلك ، فحياته رحيل وخطار بالنفس ، وسفرٌ واغتراب .

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزمن
يخلـو من الهـمِّ أخلاهم من الفطن
وإنمــا نحــن في جيلٍ ســواسية
شرٌّ على الحُرِّ من سقمٍ على البدن
حولي بكل مـكان منهم خلــــق
تخطي إذا جئت في استفهامها بمن (١)
لا أقتري بلـــداً إلا علـى غَرَرٍ
ولا أمــرُّ بخلــقٍ غير مضــطغن (٢)
ولا أعاشر من أملاكهـم أحـــــداً
إلا أحقُّ بضرب الرأس من وثــن
إني لأعـــذرهـم ممــا أعنفهــــم
حتــى أعنف نفســي فيهـــم وأنِـي (٣)
فقر الجهول بـــلا عقـــلٍ ولا أدبٍ
فقــر الحمــار بلا رأسٍ إلى رسـن
ومدقعين بســبروتٍ صحبتهـــــم
عـارين من حلل كاسـين من درن

---

(١) المعنى : حولي من الناس طوائف لا يستحقون نعت الإنسان العاقل ، بل يخطيء من يسأل عنهم بمن التي يسأل بها عن العقلاء ، والأحري أن يسأل عنهم السائل بما التي لغير العاقل !! . (٢) أقتري : أي أنزل وأجوب بلدا بعد بلد . مضطغن : حاقد .
(٣) أنِـي : أي أفتر وأترك لومهم وأعود باللوم على نفسي لتيقني من جهالتهم .

خُرّاب باديـةٍ ، غرثى بطونهــم
مكـن الضباب لهم زادٌ بلا ثمــن (١)
يستخبرون فلا أعطيهم خـــبري
ومـا يطيـش لهم سهم من الظِّـنَنِ
وخَلَّـةٍ فــي جليــس أتقيه بهـــا
كيما يَــرَى أننا مثلان في الوهن (٢)
وكلمة في طريــقٍ خفتُ أعربهـا
فيُهْـتَـدَى لـي فلم أقدر على اللحن
قد هوّن الصبر عندي كل نازلة
ولين العزمُ حدَّ المركب الخشن
كم مَخْلَصٍ وعُلاً في خوض مهلكة
وقتـلة قُـرنت بالـــذم في الجبن
لا يُـعـجبنَّ مَضــيماً حُســن بـزّتـه
وهـل يـروق دفيناً جـودة الكفن
للــه حـــال أُرجّيـها وتـخلفنــــي
وأقتضـي كونها دهري ويمطلنـي
مدحتُ قوماً وإن عشنا نظمت لهــم
قصائداً من إناث الخيل والحصن

(١) خُرّاب : جمع خارب وهو الذي يسرق الإبل خاصة . غرثى : جمع غرثان وهو الجائع مكن الضباب : بيضها .

(٢) خلَّـة : مصادقة . يريد : وقد أظهر مصادقة لهؤلاء الصعاليك ، وأتغابى لديهم حتى يحسبوني واحداً منهم ، ولا يرتابوا في أمري .

[السياق الثاني والثلاثون] *

أُرِيدُ مِنْ زمني ذا أن يُبلِّغني
مـا ليس يبلُـغُـهُ مـــن نفسه الزمنُ
مـا كُلُّ ما يتمنَّى المرءُ يُدركُهُ
تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ

قصيدة رائعة من شعر الوجدان . قالها عندما بلغه أن قوما نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب ، وكان أبو الطيب حينئذٍ بمصر .

بدأ شاكيا سوء حاله ، وقلة ما يسليه في مُقامه بمصر ، فلا أهلٌ ولا وطن ، ولا نديمٌ ولا سكن ، فأمانيه شبه مستحيلة ؛ لأن همته أعلى من أن يكون في وسع الزمان بلوغها ، ثم يصبّر نفسه قائلاً : لا تلق دهرك خائفاً هيابا ، بل كن غير مكترث مادامت روحك في بدنك ؛ لأن السرور لا يدوم ، ولا يردُّ الحزن فائتا !! ويبين بعد ذلك أن الذين تعلقوا بزخارف الحياة ومتعها قد أضرَّ بهم جهلهم بطبيعة الحياة وسننها ، ولو أنهم عرفوا ذلك لأراحوا أنفسهم ، ولكنْ تفنى عيونهم في البكاء ، وتتبدد أنفسهم كمداً وحسرة على ما فاتهم من حظوظ الدنيا التي ظنوها أمراً حسناً فكانت بلاءً عند اختبارها ، ثم يقول للائميه تحولوا عني ، ودعوني وشأني ، فلا خوف عليَّ من البين ، ولا خطر في الارتحال ؛ إذ ليس عندكم عوضٌ عن آمالي ، ولا يجدر بي أن أضحي من أجلكم .

ويخاطب بعد ذلك سيف الدولة قائلاً :

---

* العكبري ٤/٢٣٤ . والبرقوقي ٤/ ٣٦٤ .

يا من نُعيتُ عنده . لا غرابة فيما سمعتَ . فكل حيٍّ مصيره الموت وقد سبق لي أن قُتِلْتُ مراراً وتكراراً في عهد خدمتي لكم وقربي منكم !! وها أنا ذا قد تجاوزت ذلك وتغلبت عليه ، ثم يقول له : لا تسمع ما يقوله المتقولون ؛ لأنهم طالما زعموا هلاكي ونهايتي ، وقد هلكوا هم وما زلت قويًّا مرفوع الهامة ، وليس كل متمنى يتحقق ، فقد تأتي الرياح على غير ما يصلح به الإبحار ، ويتمناه الملاحون !!

ويعاتب شاعُرنا سيف الدولة عتاباً مرًّا فيذكره بأنه قد أهان جواره ، وآلمه بمَنِّه فلم يستفد من رفده شيئاً ، وكان كثير التقلب والإعراض والملالة والبُغض ، وكثيراً ما جازى محبة أبي الطيب له بالاضطغان عليه ، وإضمار الشر له ، ونغَّص عليه عيشه ، وهو لهذا وغيره يدعو أن تزيده الأيام عن سيف الدولة بُعْداً ، وأن تتباعد بينهما المسافات وتضطرب السُّبُل ، وتعجز الإبل النجائب عن قطعها !! ثم يباهي أبو الطيب بشخصه وصفاته ومروءته مبيناً أنه يحلم عندما يكون الحلم كرماً ، ويجهل إذا أحس أن الحلم سيُفْهَم على أنه جبن وخنوع ، وهو لا يأخذ مالاً مخلوطاً بذلة ، وإذا ساومه أحد على شيء من ذلك تركه غير آسفٍ عليه ، فهو لا يقبل ما يدنس العرض ، أو يحط من القدر .

ويختتم القصيدة بالتأكيد على علوّ همته ، وتجاوزه الصعاب ، وأنه حزن وقت فراقه سيف الدولة ، ولكنه لم يلبث أن اعتاد ذلك وألفه ، واستقامت أموره عليه . وأنه إن لقي من غيره من المقصودين ما لقي منه فسيرحل عن ذلك الموضع غير آسف ولا نادم ، ويذكر أنه رحل إلى ممدوح همام هو أبو المسك كافور ...!!

بِمَ التعلل لا أهلٌ ولا وطن ولا نديم ولا كأسٌ ولا سكن (١)

أُريدُ من زمني ذا أن يُبلِّغَني
ما ليس يَبلغه من نفسه الزمَنُ

لا تَلقَ دهرَكَ إلا غير مُكْترث
مادام يصْحب فيه روحَك البدنُ

فما يدوم سُرورٌ ما سُررتَ به
ولا يَردُّ عليك الفائِت الحَزَنُ

مِمَّا أضَرَّ بأهل العشق أنَّهمُ
هَوَوْا وما عرفُوا الدنيا ولا فطنوا

تَفْنَى عيونُهُمُ دمْعاً وأنفُسُهُم
فِي إثر كل قبيحٍ وجهُه حسنُ

تَحَمَّلُوا حَمَلتْكُم كُلُّ ناجِيَةٍ
فكُلُّ بينٍ علَيَّ اليوم مُؤتَمَنُ

ما في هوادجكم من مهجتي عوضٌ
إن مُتُّ شوقاً ولا فيها لها ثمن

يا مَنْ نُعِيتُ على بُعدٍ بمجلسه
كُلٌّ بما زعم الناعون مُرتَهَنُ

كم قد قُتِلْتُ وكم قد متُّ عندكم
ثم انتفضْتُ فزال القَبْر والكَفَنُ

قد كان شاهد دفْنِي قَبل قولهمُ
جماعةٌ ثُمَّ ماتُوا قبل من دَفَنوا

---

(١) التعلل : التشاغل بالشيء . والنديم : الصاحب ، والسكن : الصاحب ، وكل ما سكنت إليه

مـا كل ما يتمَنّـى المرءُ يدركُه
تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفن
رأيتُكم لا يصون العرض جارُكُمُ
ولا يَـدِرُّ علـى مـرعاكُم اللبـنُ
جزاءُ كلّ قريبٍ منكم مللٌ وحظُّ كلّ مُـحِبٍّ منكم ضغن
وتغضبـون علـى مـن نـال رفدكم
حتّـى يعـاقبه التنغيصُ والمِنَنُ
فغادر الهجرُ مـا بينـي وبينكُـمُ
يَـهْماءُ تكذب فيها العين والأُذن (١)
تحبو الرواسـم من بعد الرسيم بها
وتسأل الأرضَ عن أخفافها الثَّفِنُ
إنـي أصاحبُ حِلمي وهو بي كرمٌ
ولا أصاحب حلمي وَهْو بي جَبَنُ
ولا أقيمُ على مالٍ أذَلُّ به ولا ألذُّ بما عرضي به دَرِنُ
سهِرتُ بعْد رحيلي وحشة لكم
ثم استمرَّ مريري وارعوى الوسن (٢)
وإن بُليتُ بودٍّ مثل ودِّكُمُ فإنّني بفِراقٍ مثْله قمِنُ !!

---

(١) اليهماء : الأرض التي لا يُهتدَى فيها . يريد : ليت بيني وبينهم أرضاً واسعة لا ترى العين دليلا تهتدي به ، ولا تسمع الأذن فيها إلا ما يُحيِّر ويشتت الفكر .

(٢) المرير : الحبل المضاعف الفتل . استمرَّ : استقام . ارعوى : انزجر . الوسن : النوم .

[السياق الثالث والثلاثون] *

ومُراد النفوسِ أصغرُ مِنْ أنْ
نتعَادَى فيه وأن نَتَفاتَى
غيْرَ أنَّ الفتى يُلاقِي المنايا
كالِحاتٍ ولا يُلاقي الهوانا

مقطوعة رائعة من عشرة أبيات قالها وهو بمصر ولم ينشدها كافوراً ، وهي حكمية تأملية نادرة المثال . بدأها مبيناً أن الناس قبلنا قد عايشوا صروف الزمان وأحداثه ، وشكوا منه مثل شكوانا ، وانهزموا يتجرعون كئوس الألم ، ويلعقون الجراح ، وربما نال بعضهم سروراً محدوداً ، فهذا شأن الزمان ، وتلك شيمته ؛ إذ قد يحسن الصنيع ، ولكن لا يلبث أن يُكَدِّر الإحسان ، ومن العجيب أن بني البشر لم يكفهم ما يُنزله بهم الزمان فتفنن بعضهم في الإيقاع بالآخرين وكأن الزمان كلما ابتدع سلاحا يحارب به بني البشر عاونه فريقٌ منهم فأضاف إلى ذلك السلاح ما يزيده فتكاً وإهلاكا !!

ثم يبين أبو الطيب أن الناس لو أنصفوا لاستراحوا وأراحوا ؛ لأن رغباتهم وتطلعاتهم لا تستحق هذا التكالب والتعادي والتناحر ، فهي أهون من ذلك وأحقر ، بيد أن من طبع الإنسان أن يأنف من التعرض للإهانة ، ويتجرع الموت راضيا ولا يرضخ للذل والهوان ، ولو كانت الحياة تبقى لإنسان لكان الشجعان في نظرنا أول الحمقى المتهورين ،

* العكبري ٢٤١/٤ . والبرقوقي ٣٧٢/٤ .

ولكنْ لأن الحياة لا تدوم لأحد فلا مندوحة عن دفع الضيم لأنه طالما لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن يموت الإنسان جبانا ، وكل صعب على النفوس يسهل عندما ينزل بها ويقع .

صَحِبَ الناسُ قَبْلنا ذا الزمانا   وعناهم شأنه ما عنانا
وتولّوا بغُصّةٍ كلهم منْهُ   وإن سرَّ بعضَهم أحيانا
ربّما تُحْسِن الصنيع لياليه   ولكِنْ تُكَدِّر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر   حتى أعانه من أعانا
كلّما أنْبتَ الزّمان قناة   ركّب المرء في القناة سنانا
ومُراد النُّفُوس أصغَرُ مِنْ أنْ
نَتَعادَى فيه وأن نَتَفانَى
غير أنّ الفتى يُلاقِي المَنَايا   كالحاتٍ ولا يُلاقي الهوانا
ولَوَ ان الحياةَ تبْقَى لحيٍّ   لعدَدنا أضَلَّنا الشُّجعانا
وإذا لم يكُنْ من الموت بُدٌّ
فمِنَ العَجْزِ أن تَموت جَبانا
كلُّ ما لم يكن من الصعب في الأنفس [م]
سَهْلٌ فيها إذا هو كانا

[السياق الرابع والثلاثون] *

كفى بكَ داءً أن تَرَى الموتَ شافيا

وحسْبُ الأماني أنْ يكُنَّ أمانِيا

قصيدة مدحية مدح بها أبو الطيب كافوراً الإخشيديّ ، بدأها بداية قوية مؤثرة إذ يُصرِّح بأن من أصعب الأمور وأشقها على الإنسان أن يصل به اليأس إلى درجة تمني الموت ، وإنَّ داءً لا يجد له صاحبه إلا الموت لأفدح الأدواء وأشدها وبالا ! وبيَّن أن الذي أوصله إلى هذا الإحساس أنه تمنى أن يجد صديقاً صدوقا أو عدوا يداري عداوته فأعياه ذلك . ويذكر أن من يرضى بعيش الذل فحريٌّ به ألاَّ يهيء سيفا أو رُمحاً أو شيئاً من أدوات الحرب والنزال ، وحاله هذه تعني الضياع والفناء ؛ لأن الأسد الذي شأنه أن يحصل على قوته بالافتراس والفتك لو غيَّر من طبعه ، وتكلَّف الحياء والقناعة لهلك جوعا ، ولَمَا خافه أحد ، ولا نفر منه إنسان !! ثم يعاتب قلبه على تطلّعه إلى حبِّ من ابتعد عنه ، وكان غادراً به ويخاطب قلبه قائلا : أحرى بك أن تكون باراً بي وفِيًّا ، ولا تغدر بي أنت أيضاً !! فلتقطع كل عاطفة تراودك نحو وصل ذلك الغادر ، ويستطرد في مناجاة قلبه ، واستبطان مشاعره فيقول : أراك يا قلبي ضائقاً من هذا الفراق وإني أَرْبأ بك أن تشكو أو تضعف أمام تلك الإحساسات ؛ لأن من يفارق مختاراً فلا وجه للدموع التي تذرف من أجله . وهو في هذا كله

---

* العكبري ٢٨١/٤ . والبرقوقي ٤١٧/٤ .

يعرّض بتعلق نفسه بمقامه بحلب في عهده الأول عند سيف الدولة .

ثم يبين أن الجود إذا لم يكن مُبَرأً من المنّ والأذى فلا قيمة له ؛ لأنه لا يُكسبُ حمداً ، ولا يُبقي مالاً ، وأن أخلاق الإنسان تدلُّ على طبيعته إن كان جواداً أو متكلفاً للجود !! ثم يخاطب قلبه داعيا إياه أن يكف عن الاشتياق إلى من لا يشتاق إليه ؛ لأنه من الخُسران أن يُحب الإنسان من لا يقابل محبته بما يضارعها ، ويعتذر عن مراودة تلك المشاعر له ، وتصارعها في نفسه بأنه بطبعه قد خُلِق ألوفاً لمن يُلِمُّ بهم أو تربطه بهم أيُّ علاقة ، حتى إنه لو فارق شيبه عائداً إلى صباه لوَجِدتْ نفسه ، وعانتْ روحه بسبب ذلك الفراق ، ولاشتاقتْ إلى ما بانتْ عنه وفارقته وإن كان مكروها منبوذاً !!

كَفَى بكَ داءً أن تَرى الموت شافياً
وحسْبُ الأمانِي أن يكُنَّ أمانِيا
تمنَّيْتَها لمَّا تَمَنَّيْتَ أن تَرَى
صديقاً فأعْيا أو عدوًّا مُداجِياً (١)
إذا كُنْت تَرضَى أن تَعِيش بذلَّةٍ
فلا تستعِدَّنَّ الحُسام اليمانيا
ولا تَستطِيلَنَّ الرّماح لغايَةٍ
ولا تَستَجِيدَنَّ العِتاق المذاكيا
فما ينفع الأُسْدَ الحياءُ من الطَّوَى
ولا تُتَّقَى حتى تكون ضواريا

---

(١) المعنى : تمنيت الموت لمّا طلبت صديقاً وفيا موافقاً أو عدوًّا ساتراً للعداوة فأعياك ذلك .

حَبَبْتُكَ قلْبِي قبل حُبِّك مَنْ نأى
وقد كان غدَّاراً فَكُنْ لِيَ وافِيا
وأعلم أنَّ البيْنَ يُشْكِيكَ بعْده
فلسْت فُؤادي إن رأيْتُكَ شاكيا
فإنَّ دمُوعَ العَيْنِ غُدْرٌ بِربِّها
إذا كُنَّ إثْرَ الظاعِنِينَ جَواريا
إذا الجُودُ لم يُرزقْ خُلاصاً من الأذَى
فلا الحمْدُ مكسوباً ولا المال باقيا
وللنفْس أخلاقٌ تَدُلُّ على الفتى
أكان سَخاءً ما أتَى أم تساخيا
أقِلَّ اشْتِياقاً أيُّها القلْبُ رُبَّما
رأيْتُكَ تُصْفِي الوُدَّ من ليس جازياً
خُلِقْتُ ألُوفاً لو رحَلْتُ إلى الصبا
لفارقْتُ شَيْبِي مُوجع القَلْب باكيا !!

الفصل الثاني

الوجدانيات دلالاتها وبـواعثـها

تـوطئـة :

بعد أن عرضنا أبرز ما اخترناه من الشعر ذي الطـابع الوجدانـي عند أبي الطيب المتنبي ـ يأتي التساؤل المهم في هذا السياق وهو: ما الدلالات التي تؤكدها هذه النوعية البالغة الأهمية في شعر أبي الطيـب بحسبانها مقياسا دقيقا للصدق الفني ، وصدق تصوير المشاعر ؟ ومـا البواعث النفسية التي انطوى عليها ذلك النمط من الشعر ؟

إن الإجابة على هذا التساؤل تقتضينا أن نحلل أبرز تلك الـدلالات التي تستشف من وجدانيات أبـي الطيـب ، وتسـتوجب أن نطـرح تلـك النوعية على بساط البحث ؛ لاستكناه أسرارها ومعرفة دلالاتها . ومن نافلـة القـول أن نؤكـد لقـاريء هـذا الكتـاب أننـا عندمـا عايشــنا هـذه التجارب التي استعرضنا جانبا مختاراً منها في الفصل المتقدم لاحظنـا مثول تلك الدلالات مثولا بينا ، يجعلنا نؤكد بلا تردد أن هـذا الشـاعر العظيم كان نمطا متميزا ، وكان صادقا مع نفسه ، ومع ذوّاقي شـعره ومع فنه ، وكان شعره ذوب نفسه ، ونبض إحساساته ، ومرآة مجلـوة انعكست عليها خواطره ، وما اعتمل في نفسه ، حبا وكرها ، وإعجابا ونفورا ، وإقبالا وإعراضا ، ورضا وسخطا !!

لقد كانت حياة أبي الطيـب كمـا هـو شـائع متعـارف عليـه حافلـة بـالأحداث الجسـام ، تعـرض فيهـا لمواقـف مصيريــة عصيبــة ، واختبارات تحفها الأخطار ، وتكتنفها الأهوال ، وكان عليه أن يختـار

بين أمرين : إمَّا ما يحفظ علي نفسه حريتها واستقلالها ، أو ما يجعلها ترضخ لمشيئة من يمدحهم ويتصل بهم !!

وقد قبل شاعرنا التحدي ، وكان على مستوى تلك الأحداث والمواقف ، فاختار ما رآه متوائما مع تكوينه الذي طبعت عليه نفسه وبُنيت عليه شخصيته ، وكان ـ كما نقول في عصرنا الحاضر ـ رجل مواقف ! لم يهن ولم يضعف ، ولم يعط الدنية من نفسه ، ولم يماليء ذا سلطان رغبة أو رهبة ، ولم يذل إلا لخالقه ، وعاش عزيزا أبيا ، واعتد تلك الخلال نهجه الذي لا يحيد عنه ، ومَنْقَبَتَهُ التي بها يعتز ، ومناط فخره الذي به يُطاوِل ويُزاحِم في كل معترك .

كما انعكست على صفحة وجدانياته الشعرية أحداث عصره ، وأحوال حياته ، وما اضطربت به صِلاتُه بأهل عصره والمحيطين به في البلدان التي نزل بها ، والبقاع التي تنقَّل بين جنباتها ونواحيها ، وكان الرجل ـ كما ألمحنا في غير موضع ـ ذا صوت ذائع ، وشهرة طبَّقت الآفاق ... فكان له حساد وخصوم كثيرون ، كما كان له عشاق ومريدون معجبون ، بل ومولعون مفتونون بفنه وشعره ، ولقد صورت أشعاره الوجدانية خطرات نفسه دون مواربة ، ودون مداراة بل لقد كانت صراحته مثار خصومة ، إذ جلبت عليه الضغائن والعداوات ، ولكننا عند إنعام النظر نجدنا على قناعة بأنه بتكوينه النفسي والعاطفي ـ لم يكن يستطيع أن يسلك خلاف ما سلك ، ولا أن يخفي مشاعره ؛ إذ كانت أعظم من أن تُكتَم ، وأقوى من كل محاولات الحجب والإخفاء ، ولو أن المتنبي حاول شيئا من ذلك ما

بقي له ذكر ، ولا حرص على تلقي فنه أحد ؛ فجمال شعره ، وجاذبية فنه ، وسموق إبداعه تكمن في تلك الصراحة ، بل أقول الطفولية في المشاعر التي لم يستطع عنها أبو الطيب تحوُّلا ، في مختلف مراحل حياته ، وفي سائر البقاع التي تقلب فيها ، وخالط أهلها .

* * *

إن تأمل شعر الذات والوجدان عند المتنبي من خلال السياقات التي سبق عرضها في الفصل الأول من هذه الدراسة تطلعنا على مجموعة من الدلالات المهمة التي تعد من وجهة نظر النقد الفني بواعث حفزت شاعرنا على أن يصدر في شعره عنها ، وتفيض تلك الدلالات من النفس الشاعرة على الكلمات والجمل ، وترسم الصور ، والإيحاءات . ومن وراء ذلك كله يستكشف المتأمل الراصد لهذا اللون من شعر أبي الطيب عالمه النفسي ، وأغوار تلك الشخصية ، بما يعتمل في أعماقها من مشاعر وإحساسات ، وما تشتمل عليه من أبهاء وأنحاء ، وزوايا وسراديب ، وآفاق وآماد ، وما يعتورها من عوارض وتقلبات ، وغيوم وأعاصير ، وبروق ورعود ، وأنسام وأنغام ، وآمال ورغبات .....!!

وسأطرح بين يدي القاريء هذه الدلالات ليلمس ما أحسسته من قراءة شعر الوجدان عند أبي الطيب ، ويدرك مدى ما يوحي به شعره في هذا الباب من تميز وتفرد وعبقرية ، وما يشهد به لتراثنا الشعري من أصالة وتصوير للنفس الإنسانية في أدق تفصيلاتها

وطواياها ، وإن شاعراً كأبي الطيب قمينٌ بأن يوضع في مصاف العظماء على المستوى العالمي ، وليس بين الشعراء العرب على وجه الخصوص والتحديد .

~ الثقة بالنفس وتأكيد الذّات :

لعل هذه الدلالة من أهم وآكد ما تنطوي عليه تجارب أبي الطيب الشعرية ذات الطابع الوجداني ؛ لأن الاعتزاز بالذات والثقة المفرطة بالنفس والقدرات كانت سمة لازمة من سمات شعره الوجداني ، وربما كان شعور أبي الطيب بالتفوق على المحيطين به في الشاعرية وروعة البيان ، والخبرات التي حصّلها ، والشهرة التي نالها والتميز الذي شهد له به السواد الأعظم من معاصريه ، وإمكاناته الفكرية والشخصية ـ من أهم ما يعتز به ، ويتعالى به على من يحاول أن يبلغ شأوه ، أو يداني منزلته .

ولتعاود معي ـ أيها القارىء ـ استعراض نص السياق التاسع من الفصل السابق لتتأكد لك تلك الحقيقة ، ففي تلك القصيدة من البوح بما تكنه النفس ، ويستقر في الضمير ما لم يستطع الشاعر إخفاءه إذ يقول :

فقل في حاجة لم أقض منها   على شغفي بها شرْوَىْ نقير
ونفس لا تجيب إلى خسيس   وعين لا تدار على نظير

فصاحبنا ـ كما يؤكد ـ مشغول بما لا يشتغل به السواد الأعظم من أهل زمانه ، يجوب البلاد ، وتتقاذفه البوادي ، ويتعرض للأخطار

والأضرار .... ، وهو مع ذلك الجد والسعي والتشمير لم ينل من دهره ما يريد ، ويُعَجِّبُ متلقي شعره من إحساس إنسان مثله لم يحقق من آماله التي حشد لها قواه كلها ، وبلغ شغفه بها مبلغه شيئا ، كما يعجّبه من نفسه التي لا تطاوعه إلى مقارفة ما يشين ، ولا ترى لصاحبها نظيراً في مروءته وعلوّهمته ، وإبائه الدنيات.

فأي تأكيد للذات أقوى من ذلك التأكيد ؟!! وأي إحساس بالظلم أثقل وطأة على صاحبه من إحساس أبي الطيب بأنه لم يبلغ من زمنه ما يريد ، ولم يجد له معيناً أو ناصرا ، لا ريب أن شاعرنا بعد أن أحس وطأة الواقع المؤلم ، والآمال المحطمة أن يغالبه ذلك الإحساس بمعاداة الدهر له ، وأن كل شيء من حوله يكنُّ له العداء ، ويرتقب الفرصة للانقاض عليه ، والإيقاع به :

عدوّي كلُّ شيء فيك حتى
لخلْتُ الأُكْم موغرة الصدور
فلو أني حُسِدْتُ على نفيس
لجُدت به لذي الجَدّ العَثُور
ولكنّي حُسدتُ على حياتي
وما خير الحياة بلا سرور

وأمارة هذه الدلالة واضحة كذلك في السياق الأول وهي القصيدة التي وصف فيها رحيله من مصر متخفيا بعد أن يئس من وعود كافور الإخشيدي ، وتبددت مطامحه في أن تكون له بها مكانة تشبه

أو تقارب ما كان له في بلاط سيف الدولة الحمداني بحلب ، وهي ذات مطلع يفيض فخراً واعتزازا بجرأة أبي الطيب وحسن حيلته، وإقدامه على ما لا يُقدِم عليه إلا كل صاحب همة قعساء ، وإباءٍ للدنيات ، وتحطيم للأغلال ، وحبٌّ للحرية ، والتزام بالكلمة ، وصدق الوعد ....، ولنتأمله يقول :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنّي الفتى
وأنّي وفَيْتُ وأني أبَيْتُ وأنّي عتوتُ على مَنْ عتا
ولا كُلُّ مَن قال قولا وفَى ولا كل منْ سِيم خسفاً أبى
ومنْ يك قلب كقلبي لـه يشقُّ إلى العِزّ قلب التّوى
وكل طريق أتاه الفتى على قدر الرجل فيه الخُطَى

أما منابع هذه الثقة بالنفس وتأكيد الذات كما عبر عنها أبو الطيب فتأتي كما نلاحظ من روافد عديدة : منها قوة الشخصية ، وجراءة القلب ، واحترام الذات ، ومنها الإحساس بالنضج العقلي والفكري ، ومنها إدراك ضؤولة الآخر وعدم تميزه ، ومنها تقدير أبي الطيب لشاعريته وتفرده بملكة شعرية وتعبيرية لم يُرزق مثلها أحدٌ ممن كانوا يطاولونه ، أو يحاولون النيل منه ، ومن ثقة أبي الطيب المرتبطة بالشعر والشاعرية ما مرَّ بنا في السياق الثالث في قوله :

خليليَّ إنّي لا أرى غيرَ شاعرٍ
فلِمْ منهم الدعوى ومنّي القصائد ؟!!

وكذا في السياق الرابع في إدلاله على سيف الدولة بما مدحه به إذ

يقول :

وما الدهر إلا من رواة قـلائـدي

إذا قلت شـعرا أصبح الدهر منشدا

فسـار به من لا يسـير مـشمرا

وغنّى به من لا يغنـي مغـردا

أجزني إذا أُنـشِدْتَ شعرا فإنـما

بشـعري أتاك المادحـون مـرددا

ودع كل صوت غير صوتي فإنما

أنا الطائر المحكيُّ والآخر الصدى

وقولـه فـي السياق الخـامس عشـر فـي مدحتـه للقـاضي أبـي الفضـل الأنطاكي :

لا تَـجْسُرُ الفصحاء تُنْشِدُ هاهنا

بيتـا ولكني الهزبر الباسـل

ونلمس احتقار أبي الطيب لكثيرين ممن نافسوه أو استطالوا عليـه أو حالوا بلوغ شـأوه ، ففـي السياق الخـامس نسـمعه شـاكيا متبرمـا ، لائما زمنه على بنيه أو أهله كما عبر في قوله :

أذمُّ إلـى هذا الزمـان أُهَيْلَـهُ فأعلمهم فَدْمٌ وأحزمهم وغـدُ

وأكرمهم كلب وأبصـرهم عم وأسـهدهم فهدٌ وأشجعهـم قرد

....

وأُكبِرُ نفسي عن جزاء بغيبةٍ وكل اغتياب جهد من لا له جهد

وأرحم أقواماً من العِيِّ والغَبا

وأعذرُ في بُغْضِي لأنهم ضِـــدُّ

~ الإبـــاء وسـمـوُّ الــهِـمَّـة :

وهو من الروافد المهمة التي أمدَّتْ الشـعر الوجداني عند أبـي الطيب بفيض من المعاني والمعالي التي تغنَّى بها ، وزَهَا على غيره واستطال على من أرادوا النيل منـه ، ولنعـايش صاحبنـا فـي تحريره لمعنـى الإبـاء ، وأهميتـه للإنسـان الأبـيِّ ، واعتـداده أهـم ركيزة مـن ركائز النبل ، ومناط الفخر والاعتزاز ، وذلـك فـي السياق الرابـع إذ يقول :

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضامُ   مدركٌ أو محاربٌ لا ينام

فالأبي الـذي يرفـض الذلَّ ، ولا يقبـل الضيـم ، ولا يعطـي مـن نفسـه الدنية ــ هو الجديـر بـأن يفخـر ، ولا فخـر لسـواه ، إن صـاحب هـذا الطبع في تقدير شاعرنا هو الرجل حقـا ؛ لأن العـز الحقيقـي هـو فـي تمتع الإنسان بحريته تمتعا كاملا ، لا ينغصه قهـر ، ولا يكـدره ضيـم أو إرغام على ما لا يحب الإنسان الحـر أن يفعلـه ، أو ينسـب إليـه ، ولا يقبل شاعرنا أية أعذار في ذلك ، ولا يسمح بالتعلات ، بـل يؤكـد في تعبير رائــع ، وتصويـر بديـع أن مـن يحتمـل أذى القهـر والإذلال قمين بأن يعتـلَّ بدنه ، ويذوي عوده ، وتضعف قواه لأنه يتغذى أسوأ غذاء ، ويشمُّ أوخم هـواء ، وشـتان ــ كمـا يؤكـد أبـو الطيـب ــ بيـن الحِلْمِ والصفح والإغضــاء وبين تجـرع الذل ؛ فكـل حلـم جـاء عـن ضعف وفقدان قدرة فهو أمارة لؤم ، وذريعة جبن ، وما أشـدَّ الضرر

الذي يُـدْخِلـه مـن يقبـل ذلـك علـى نفسـه ، ضـرر أن يتبلَّـد حسُّـه ، ويعتاد الذل والقهر ... فـلا يُنْـكِـرُ ضيمـا ، ولا يرفـض هوانـا ، ولا يناضل عن كرامة ..!! ولنتأمل بـقيـة السـيـاق :

ليس عزمـاً مـا مـرَّضَ الـمرءُ فيـه

ليس همًّا مـا عـاق عنه الظـلام

واحتمـال الأذى ورؤية جانـيـه غـذاءٌ تضوى به الأجسـام

ذلَّ مـن يغبط الذليل بعيش   ربَّ عيشٍ ألـذُّ منه الحمـام

كـلُّ حـلم أتـى بغير اقتـدار   حجة لاجـيء إلـيهـا اللئـام

مـنْ يَـهُـنْ يسهل الهوان علـيـه

مـــا لـــجرحٍ بمـيِّتٍ إيـلام

أمَّـا سموُّ الهمة ، والاستهانة بالأخطار لبلوغ المراد فكـانت ديـدن أبي الطيب ، ومبـدأه الأصيـل الـذي يحـرص عليـه ، ويتغنـى بـه فـي شعره ، وتنطبع عليه نفسه ، ها هو ذا في السياق الثاني مما سقناه من شعره الوجداني يخاطب فتاته التي تخاف عليه عواقب الخطار بالنفس والتعرض للمواقف العصيبة التـي لا يُدرى إلام تقود وكيف تنتهي ... يقول :

تـخـوّفـني دون الذي أمرت به

ولـم تـدر أن العـار شـرُّ الـعواقب

يهون على مثلي إذا رام حاجة

وقـوع العوالي دونها والقـواضـب

كثير حياة المــرء مثل قليلهـا

يزول وباقــي عمــره مثل ذاهب

إليك فإني لست ممن إذا اتقى

عضاض الأفاعي نام فوق العقارب

وتتأكد هذه الدلالة في شعر الوجدان عند أبي الطيـب فـي قصـائد شـتى ، منهـا علـى سـبيل المثـال لا الحصـر مـا مـرَّ بنـا فـي السيــاق العشرين عندما بيَّن أن علـى لائميـه فـي اقتحـام الأخطـار ، وإعنـات نفسه لتحقيق الطموحات أن يلوموا الليالي التي لم تتح له نيل ما يريـد في حين يرى الأدنياء من أهل زمانـه نـاعمون وادعـون ، مـع أنهـم مفلسون من الفضائل والمواهب ، ومن ثَـمَّ يهيب أبـو الطيـب بنفـسِهِ الطمـوح أن تثبت علـى إصرارهـا بلــوغ مــا تتمنــى ، وألا تحســب للأخطار حسابا ، وأن تترك الخوف للبهائم والأنعام التي تجفل وتفزع مما لا يُـفـزِع ولا يُـخِـيف !!

ليس التعلل بالآمال من أربي ولا القناعة بالإقلال من شيمــي

وما أظن بنات الدهر تتركني حتى تَسُدَّ عليها طرقها هممي

لُمْ الليالي التي أخنت على جِدَتِي

بـرقَّة الحال واعذرني ولا تلـم

أرى أُنـاساً ومحصولي على غنمٍ

وذكر جـود ومحصولي على الكلــم

....

رِدِي حِيَاضَ الرَّدى يا نفسُ واتَّرِكِي

حياض خوف الردى للشاء والنعم !!

وتبلغ هذه النزعة المتأبية غايتها في قصيدته التي سقناها في السياق العشرين ، والتي يقول فيها :

أمثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام

ولو برز الزّمان إليّ شخصاً

لخضّب شعر مفرقه حسامي

وما بلغت مشيَّتَها الليالي ولا سارت وفي يدها زمامي !!

~ استخلاص العبرة والحكمة :

يزخر شعر الوجدان عند أبي الطيب بتأملات فكرية عميقة في أحداث الحياة ، وأحوال الناس ، وطبائع النفس البشرية ، وتترتب على ذلك عِبَرٌ حكيمة ، ورؤى دقيقة ، ونصائح غالية ؛ لابتنائها على تحليل دقيق ، ومعايشة واعية ، ونفاذ إلى جوهر الأحداث والمواقف ، وقراءة واعية لخلجات النفوس ، وذلك من خلال تصويره لأحداث الحياة ، وأفاعيلها بالشرفاء ، وانتكاس أحوال أهل الفضل وحظوظهم فيها وبين أهلها .

لقد أدرك أبو الطيب في هذه النوعية من شعره كثيراً من نوازع النفس الإنسانية ، وحفلت استنتاجاته وتأملاته برؤى بصيرة ، ونصائح غاليات ، بل ومنهج حياة لمن يريد أن يعيش حرا كريما . ها هو ذا في القصيدة التي عرضنا لها في السياق الحادي عشر وهي في رثاء والدة سيف الدولة ؛ إذ نراه يقرر عبرة عجيبة من عبر الحياة

مستوحاة من الموت الذي يأتي فيقصم ظهر كل جبَّار ، وينهي صلف المتصلِّفين ، ويضع النهاية لكثير من الحزازت والخصومات ، ويفتك بمن كانوا يتربصون ببعضهم البعض يقول :

نُعِدُّ المشرفية والعوالي ‏ ‏ ‏ ‏ وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات ‏ ‏ ‏ ‏ وما يُنجين من خبب الليالي
ومن لم يعشق الدنيا قديما ‏ ‏ ‏ ‏ ولكن لا سبيل إلى الوصال!!
نصيبك في حياتك من حبيب ‏ ‏ ‏ ‏ نصيبك في منامك من خيال

وتطالعنا في شعر أبي الطيب بدائه لا حصر لها ، وعبرٌ تدل على عقلية ناضجة ، ورؤية حكيمة مستبصرة ، ولنتأمل ـــ أيها القارئ ـ معي تلك الحكمة الغالية التي التقطتها قريحة أبي الطيب من عبر الحياة وصروفها في مدحته لأبي شجاع فاتك ، فيما عرضناه في السياق السادس عشر ، وهي رائعته التي مطلعها :

لا خيل عندك تُهديها ولا مال
فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

والتي اختتمها بقوله :

لولا المشقة ساد الناس كلهم ‏ ‏ ‏ ‏ الجود يفقر والإقدام قتَّال
إنا لفي زمن ترك القبيح به ‏ ‏ ‏ ‏ من أكثر الناس إحسانٌ وإجمال
ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما قاته وفضول العيش أشغال

فأيُّ إعلاء من شأن الفضائل النفسية أسمى من هذا الإعلاء ؟ وأي إشادة بالفضائل وتعويل عليها أبلغ من تلك الإشادة ؟ وأي تخليد لحسن

الأحدوثة وطيب الذكر أسمى مما صنع أبو الطيب ؟ وأي تهوين من شأن زخارف الحياة وذهبها ونشبها أرفع من تأكيد شاعرنا على أن فضول العيش أشغال ، لا تليق بعاقل ، ولا تجدر بنابه ؟!

ولنتذكر أيضا ما قاله أبو الطيب في مدحته البديعة التي مطلعها :

كدعوالك كلٌ يدّعي صحة العقل

ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

وهو مطلع على الرغم من كونه مدخلا غزليا فهو منطو على حكمة خالدة ؛ إذ لا يخلو معظم الناس من ادعاء صحة العقل ، ولا يُقِرُّون – إلا من ندر – بما فيهم من قصور وعيوب ، وفي هذه القصيدة يقول مخاطباً فتاته ، مقررا لها تلك الحقيقة الخالدة التي غابت عنها ، حقيقة استحالة أن يحوز إنسان في الدنيا آماله وطموحاته دون عناء ، وبلا جهد يُبْذل ، وتضحيات تُودى ، وأعباء تُتَحمّل ، فيسوق تلك الحكمة البليغة بقوله :

تريدين لِقيان المعالي رخيصة

ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ومن الأقوال الحِكْمِيَّة التي تدل على خبرة بطبائع الناس ، ودراية بما يموّهون به على من يعايشونهم ويخالطونهم في تلك القصيدة قوله :

خَليلك أنتَ لا مَنْ قُلْتَ خِلّي	**وإن كثر التجمّل والكلام**
ولو حيز الحفاظ بغير عقلٍ	**تجنب عنق صيقله الحُسام**
وشبه الشيء منجذبٌ إليه	**وأشبهنا بدنيانا الطغام**

ولــو لـم يَـغل إلا ذو محـــلٍّ   تـعالى الجيش وانحط الـقـتام

ولـــو لـم يرع إلا مســتحق   لــرتبته أســـامهم الـمُســـام

فانظر كيف حوّل أبو الطيب رؤيته النـاقدة للأحوال فـي عصـره إلـى أصولها في طبيعة الأشياء ، وكأنه يُـنَـفِّس عن خواطـره المكلومـة ، لـكنْ بنغمة تعلوها مسحة من العقلانية التي تُـسَـوِّغها ، وكأن حاله من الحرمان والجحود ليس مستبعداً على الدنيا ولا هو منها بغريب !!

وقد تأتي الحكمة والاعتبار في شعر أبي الطيب لإثبـات صـواب المنهج الـذي يسـلكه ، ووجاهــة النهـج الـذي ارتضـاه لنفسـه ، وكـان بسـبب هـذا وذلـك غريبـا بيـن أهـل زمانـه فـي إبائـه وعلـو همتـه ، وطموحه ، واستطالته حتى على من يقصدهم بمدائحه ويطلـب نوالهـم ....، مما هو مشهور متعارف عليه ، فتأتي تقريراتـه الحكميـة لتؤكـد صواب المنهج ، وصحة المبـدأ ، وحُسـن الاختيـار . ولنتـأمل قـول شاعرنا في قصيدته التي عرضنا لها في السياق السابع والتي يوضـح فيها تباين طبائع البشر واختلاف مشـاربهم وقناعـاتهم وطموحـاتهم ، ومبلغ قبول بعضهم للتحدي ، واستنامة الآخرين لما يتعرضون له من ضيم .... ، إذ يـقــول :

وأسرع مفعولٍ فعلت تغيُّراً   تكـلُّف شـيء في طباعك ضِدُّه

....

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه

ومـركوبه رجلاه والثوب جِلْده

ولكنَّ قلباً بين جنبَيَّ ما له   مـدى ينتهي بي في مرادٍ أحُدُّه

يرى جسمه يكسى شفوفا تربُّه

فيختار أن يُكسى دروعا تهُدُّه

ومن أجود ألوان هذه النوعية التي يؤكد فيها أبو الطيب سلامة منهجه وقناعته بما يأتي ويذر ـ تلك المقطوعة التي ذكر الرواة وشراح الديوان أن أبا الطيب قالها أيام مقامه بمصر ولم ينشدها كافورا ، وهي مما عرضناه في السياق الثاني والثلاثين ، ويعبر عن المغزى الذي نشير إليه منها قوله :

ومُراد النفوس أصغر من أن ... نتعادى فيه وأن نتفانى

غير أن الفتى يلاقي المنايا ... كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا

ولو أن الحياة تبقى لحيٍّ ... لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ ... فمن العجز أن تموت جبانا

كل ما لم يكن من الصعب في الأنفس سهلٌ فيها إذا هو كانا

ألا ما أروع تلك النفس الشاعرة التي مُنِحَهَا أبو الطيب وكانت نبعاً لتلك الفرائد التي لم يقع على جوهرها إلا أمثاله من الغواصين على نفيس الدرر ، ورفيع الجوهر ، يقول شاعرنا العظيم : إن مرادات النفوس ، ومطالب بني البشر أهون من أن يتقاتل عليها الناس ، وأحقر من أن يفني بعضهم بعضا بسببها ، ولكنهم يؤججون الصراع ويركبون الصعاب لا بسبب أهمية تلك المرادات ، أو نفاستها وعظم شأنها ، بل يعادي بعضهم بعضا ويتفانون لأمر آخر أخطر وأعظم ، وهو حماية الكرامة ، وأنفة الذل والهوان ، فالإنسان الحر يلاقي المنايا على كراهتها ، وبشاعة مقدمها ولا يقبل أن يُهان

وتُزدرى كرامته ، وإذا كان أبو الطيب يقرر ذلك الأصل على أنه من طبيعة الأحرار الشرفاء فقد بيَّن انحيازه لهذا الفريق ، ورضاءه عن ذلك النهج بتأكيده أن الإنسان لا يحيا أكثر مما هو مقسوم له من العمر والحظ في الدنيا فلم يُعرف في تاريخ البشر ، ومألوف ما درجوا عليه أن دامت الحياة لواحد منهم ، ولو حدث ذلك لكانت الشجاعة واقتحام الأخطار ضلالا وبوارا ، وتأتي النتيجة الحتمية ـ كما يسوق أبو الطيب ـ وهي أنه طالما كان لا مفر من الموت ولا مندوحة عنه فالعيب كل العيب أن يموت الحر جبانا ، وفي النهاية يهون أبو الطيب على الإنسان الأبيّ اقتحام الأخطار ، ومواجهة الصعاب دون خوف أو وجل أو تردد ، مهما كانت المكاره ، ومهما بلغت المخاوف ؛ لأن هذه وتلك تبدو عسيرة في باديء الأمر ثم عندما تقع تتحملها النفوس وتألفها ويسهل عليها أمرها .

~ شكوى الظلم والحرمان :

وهو ملمح كثير الورود في شعر أبي الطيب ، ولشكواه أسباب عديدة ، وبواعث شتى : بعضها يتصل بإخفاق مسعاه فيما يطلب من أمنيات وآمال ، وبعضها ناتج عن قسوة الحياة وما يراه الإنسان الجاد فيها من أوضاع منكوسة ، وبعضها ذمٌّ للزمان لافتقاد النظراء من ذوي الأخلاق الحميدة والسجايا الرفيعة ، والبصائر الصافية ، والعقل الراجح ، ومن شكاواه ما يتصل بفساد الحكام ، وهوان أمر كثيرين من أرباب السلطة ، وما نتج عن ذلك من ضعف للدولة الإسلامية ، وغُربة المعاني الرفيعة بين هؤلاء ... ، إلى غير ذلك من بواعث

الضجر وعدم الرضا والنقمة على أهل الوضاعة في شتى المجالات ، ومختلف الميادين .

والحق أن هذه النوعية من شعر الوجدان عند أبي الطيب تثير الشجون والأحزان ؛ لأن شاعرنا برع في صوغها وتصويرها ، وكانت نابعة من نفس ملتاعة ، وقلب مكلوم ، تغلفها الكآبة ، وتغشاها الأكدار ، وتتناثر على جنباتها الشجون والهموم ، وهي على هذا كله تثير في نفوس متلقيها مشاعر التعاطف والرثاء ، وإكبار تلك النفس العجيبة التي عانت كل هاتيك المشاعر ، وتجرعت تلك الغُصص !! .

ولنتجول في تلك البقعة المشجية من شعر أبي الطيب ونبدأ بأبيات من قصيدته في رثاء والدة سيف الدولة التي تقدم عرضها في السياق الحادي عشر وفيها حكمة واعتبار ، وفيها تصبير لسيف الدولة وتعزية وتسلية ، وفيها كذلك شكوى صارخة من شاعرنا أوحى له بها جوُّ الحزن والرثاء ، ومقام التأمُّل والاتعاظ في مثل قوله :

نصيبك في حياتك من حبيب ... نصيبك في منامك من خيال

وبعد هذه التلميحة الطريفة لحتمية الفراق ، وأبدية الفقد والحرمان ، وضآلة النعيم والتمتع بالمحبوب في هذه الحياة ، يأخذنا أبو الطيب إلى عالمه الخاص ، ويدلف بنا إلى حنايا نفسه ، وأطواء مشاعره وإحساساته فيقول :

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاءٍ من نبال

فصرت إذا أصابتني سهامٌ ... تكسرت النصال على النصال

وهــان فمــا أبالــي بالرزايا   لأنـــي ما انـتـفعت بأن أبالــي

ألا ما أقسى تلك المشاعر التي عاناها أبو الطيب أو تمثلها ، فجاء تعبيره عنها على هذا النجو المعجز من الإبداع .

ونقلب في صفحات تلك النفس المكلومة فتتلقانا نفثة أخرى تنم عن الألم ، وتصوّر سوء الطالع ، وهذه الأبيات من السياق الرابع عشر وهي :

كأن الحــزن مشغوفٌ بقلبي   فساعة هجرها يجد الوصالا

كذا الدنيا على من كان قبلي   صروفٌ لا يدمن عليه حالا

أشدُّ الغم عنـدي فـي سرور   تـيقن عنه صاحبه انتقالا

إن هذه الأفكار التي ترد على خاطر شاعرنا لتثير العجب ، وتبعث على الدّهَش والتحير ، كيف كان ذلك الشاعر يلتقط الأفكار ، وتتأتى له تلك المعاني ، هذا التصوير البديع الذي يمزج فيه أبو الطيب بين الغزل والشكوى مزجا عجيبا ؛ إذ يصور غراما من نوع آخر ، أو إن شئت قلت غراما معاديا ومناقضا لغرامه هو بمن يحب ، ويدور الصراع بين الغرامين ، غرامه بمن يهوى يقابله ويناقضه غرام الحزن بقلبه ، فساعة تحدث الجفوة بين الشاعر ومحبوبته يجد الحزن فرصته لوصال قلبه ، ويتحقق مراده ، وهكذا حال الدنيا على أهل الفضل والمروءة ممن سبقوه ، وهو ذو نظرة متشائمة حزينة ، لا تعرف للسرور طعما ، ولا للهناءة موضعا ؛ طالما أحست أنها عما قليل زائلة لا تدوم ، منقطعة لا اتصال لها ولا ثبوت !!.

الاستعلاء والمُطاولة :

وهما من الملامح البارزة في الشعر الوجداني عند أبي الطيب ؛ فقد كان الاعتداد بالذات ، وتأكيدها ، وتقدير الموهبة ، وازدراء الآخر ... ، وغيرها من مقومات الاستعلاء من أبرز ما يميز شخصية المتنبي ، ومن ثم انعكست آثارها على شعره ، وقد تبلغ هذه النزعة عنده حدَّ العناد والمكابرة ، إلا أن المتنبي كما ذكرتُ في مقدمة هذه الدراسة كان حريًا به أن يستعلي على الآخرين بموهبته الشعرية ، وفكره النابه ، وخبرته بأحوال أهل عصره وقُدُراتهم ، وكان من أجل ذلك يعُدُّ نفسه مظلوماً محروما ، لم ينصفه زمنه ، ولم تُقَدَّر مواهبه حقَّ قدرها .

وأكثر ما يستعلي به ويزدري الآخر قدرتُه على ما لا يطيقه غيره أو يحتمله سواه ، إيجابا أوسلبا ، أي فيما يحذقه ويجيده ويتفوق فيه ، أو من الجانب الآخر ما يتحمله ويطيقه ويصبر عليه ، وتحت هذين الأمرين تدور معاني الفخر والمطاولة والاستعلاء عند أبي الطيب ، ويتسم استعلاؤه ومطاولته بأنها تبلغ في كثير من الأحيان حدَّ العناد والمكابرة . ويمكننا أن نوجز أبرز ما عبَّر به أبو الطيب عن نزوعه للاستعلاء في جانبين رئيسين :

أولهما : التطلع للمجد وعشق المروءة وإيثار الإقدام والمخاطرة ، والنفور من الوضاعة ، واحتقار الآخرين وبخاصة الأدعياء منهم وهذه المعاني تتكرر كثيرا فيما يفخر به أبو الطيب ويتيه ويعتز ، ففي السياق الأول يؤكد شاعرنا أنه رجل المواقف ، وابن بجدتها ، أو

فتاها ـ حسب تعبيره ـ وهي قصيدة قالها يصور فيها رحيله من مصر خفية ، ناجيا بنفسه وغلمانه من أسر كافور ، فنراه وقد أصبح آمنا من الدرك يقول في نغمة الراضي عن نفسه وتدبيره ، بل قل الفرح المنتشي الذي تكاد عباراته تكون أنغاماً راقصة ، ونشيد اعتزاز وافتخار :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنّي الفتى
وأنّي وفيتُ وأنّي أبيتُ وأنّي عتوتُ على من عتا
ولا كل من قال قولا وفى ولا كل من سيم خسفا أبى !!

وفي قصيدة أخرى نراه يعبر عن حبِّ البطولة والولوع بها ، واستعداده للتضحية ، إذ يقول من القصيدة التي أوردناها في السياق الثاني مخاطبا فتاته التي تعاتبه على الخطار بالنفس ، والتعرض للأخطار :

يهون على مثلي إذا رام حاجة
وقوعُ العوالي دونها والقواضب
كثير حياة المرء مثل قليلها
يزول وباقي عمره مثل ذاهب
إليكِ فإني لست ممن إذا اتّقى
عضاض الأفاعي نام فوق العقارب
إليَّ لعَمْري قصد كلُّ عجيبةٍ
كأني عجيبٌ في عيون العجائب

بـأيِّ بـلادٍ لـم أجُرَّ ذوائبـي

وأيُّ مكـان لـم تطـأه ركائبـي ؟!!

فـأيُّ استعلاء فوق هذا الاستعلاء ؟! وأيُّ ترفُّعٍ وتعززٍ أسمى من ذلك الذي عبر عنه هذا الشاعر العجيب ، بل الذي تعجب منه العجائب وتستغربه الغرائب ، كما ألمح وأوحى ؟!! .

إن هذا الإحساس بالتميز كان يبعث أبا الطيب على أن يرسم لنفسه في مخيلته صورة لا نظير لها ، ولا وجود بين المحيطين به ، وهي صورة حافلة بكل غريب غير مألوف ، بين قوم درج سوادهم الأعظم على النفاق والادّعاء ، وأحَبَّ معظمهم أن يُحمد بما لم يفعل ، ويُوصف بما ليس فيه ، ويتكلف له المحيطون به ألوان التجمل ، ويضعون حول شخصه هالات المجد الزائف ، والنفج الأجوف المنبوذ ، فأين هؤلاء من رجل كأبي الطيب يرى في نفسه إنسانا عصاميا تواقا بطبعه لمعالي الأمور ، معرضا عن سفسافها ، رجل كل فعاله للمجد واكتساب المحامد ، أو كما عبر هو عن نفسه في مطلع إحدى قصائده إذ يقول :

أقلُّ فعالي بله أكثره مجد وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جد

وإصراره على هذا المطلب مهما صادفه من عقبات ، واعترض مسيرة حياته من عقابيل ، وهو جادّ في طلب الأمجاد ، يحارب الدهر وحيداً لا يجزع ، مقداما لا ينكص ، مدركا غايته ، محددا هدفه ، مؤثرا هذا النمط من الحياة المحفوفة بالأخطار ، الغنية بالأمجاد ، التي تجعل لصاحبها ذكراً ذائعا ، ودويا يصم الآذان .... ، ولنتأمل ما

عبر عنه من تلك المعاني في قوله :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر
وحيداًوما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي
وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
تمرستُ بالآفات حتى تركتها
تقول أمات الموت أم ذُعِر الذعر
ولا تحسبن المجد زِقًّا وقينة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن تُرى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركُكَ في الدنيا دويًّا كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

أما الولوع بمعالي الأمور ، والحرص على التحلي والاشتهار بها ، والصبر على ما يلقاه الحُرُّ في سبيلها...فنراه ماثلا في قوله :

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتّال
وإنما يبلغ الإنسان طاقته   ما كل ماشية بالرجل شملال
إنا لفي زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس إحسان وإجمال

ومن أروع ما يصور إحساس أبي الطيب بالتميز واحتقار الآخر ممن لا يدانيه في طباعه ولا يشاكله ـ ما رسم به صورة شخصه وتقلُّبه في البلاد ، واغترابه طالبا المجد وذلك في قوله حاكيا عن شخصه ،

ذلك الجسور المقدام الذي لا يفتر طلاّباً للمجد ، خائضا غمار المنازلات ، معجّباً من حُسن بلائه :

....

تغرّب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حُكْما
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة ولا واجداً إلا لمكرمةٍ طعما

....

وإنّي لمن قوم كأن نفوسهم
بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي
ويا نفس زيدي في كرائها قُدْما
فلا عبرت بي ساعة لا تُعِزُّني
ولا صحبتني مُهجةٌ تقبل الظلما

ومما يدخل في هذا السياق ما جاء في قصيدته التي أوردناها في السياق الحادي والثلاثين ، وهي القصيدة التي يمدح بها القاضي الأنطاكي وفيها يقول :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيل سواسية
شرٌ على الحُرّ من سُقم على البدن
حولي بكل مكانٍ منهم خلق
تُخْطِي إذاجئت في استفهامها بمَنِ

ولا أعاشر من أملاكهم أحـــــداً

إلا أحقُّ بضرب الرأس من وثـــن

ومما ردَّده أبو الطيب مباهيا بالاقتدار عليه تجشم الأسفار ، وتحمل مخاطرها وأهوالها ، والخبرة بدروب الصحاري ، والدراية بوسائل أهل البوادي في التغلب على المصاعب ، واجتياز المهلكات ، ومما يبين ذلك ما قرره شاعرنا في قصيدة الحمى التي عرضنا لها في السياق التاسع والعشرين إذ يقول :

ملومكما يجلُّ عن الملام وَوَقْعُ فعاله فوق الكلام

ذراني والفَلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام

فإني أستريح بذا وهذا وأتعب بالإناخة والمُقام

عيون رواحلي إن حرت عيني

وكل بُغام رازحة بُغامي

فقد أرد المياه بغير هادٍ سوى عدِّي لها برق الغمام

يُذِمُّ لمهجتي ربّي وسيفي إذا احتاج الوحيد إلى الذمام

ولا أمسي لأهل البخل ضيفاً وليس قِرىً سوى مُخّ النّعام

ومن أدقّ ما عبر به شاعرنا عن إبائه الذل وابتعاده عن أي موضع يشعر أن حريته فيه معرضة للتنقص – ما جاء في قصيدته التي قالها وهو في مصر وقد بلغه أن قوما نعوه عند سيف الدولة فقال متحديا معاندا :

إني أصاحب حلمي وهو بي كرم

ولا أصاحب حلمي وهو بي جبن

ولا أقِيـم علـى مـالٍ أذَلُّ بـه
ولا ألذُّ بما عـترضي بـه دَرِنُ
سهرت بعد رحيلي وحشة لكـم
ثم استمرَّ مريري وارعوى الوسن
وإن بُلِيتُ بـودٍّ مثل ودّكـم
فإننـي بفـراقٍ مثله قمـن !!

أما الجانب الآخر مما كان موضع استعلاء المتنبي وفخره ومطاولته فهو شعره وشاعريته ، وهو في هذا الجانب يرتفع بشعره وشاعريته إلى ذروة عليا لا يرى لغيره سبيلا إلى بلوغها أو الاقتراب منها ، ومن ثم فهو يزدري ويسخر بكل ألوان السخرية والتهكم من كل من يطاوله في الشعر ، أو يحاول أن يدخل معه في منافسة أو سباق ، وواضح من سياق فخر أبي الطيب بشعره وشاعريته أن شهرة المتنبي ونباهة شأنه في الشعر كانت قد بلغت شأوها في الحقبة التي قضاها الشاعر في بلاد الشام ، وبالأخص لدى سيف الدولة ؛ إذ نلمح أن أكثر القصائد التي تحدث فيها أبو الطيب عن شعره وشاعريته كانت ضمن سيفياته ، ولذلك أسبابه ودواعيه ؛ إذ كان سيف الدولة عربيا محبا للشعر ذا بصر به وذوق فيه ، كما كانت تحيط به كوكبة من الشعراء والنقاد وحذاق اللغة وذواقي الشعر ، وهذا الجو ــ بلا ريب ــ كان مدعاة للمنافسة والمطاولة ، والتطلع إلى السبق والتفوق ، وقد حاز شاعرنا من ذلك ما أرضى غروره ، وملأ نفسه اعتزازا وانتشاءً ، وكان المتنبي بموهبته الفذة ، وذكائه وألمعيته خليقا بأن

يُدِلّ بشعره وموهبته ، ويتصدى لمنافسيه في ثقة وطمأنينة عارفاً قدر نفسه ، مدركا مبلغ البون بينه وبينهم ، لا يصيخ لما يقولون ، ولا يعبأ بتحرشهم به ، ومغالبتهم له ، إمعانا في إذلالهم ، وترفعا عن الاشتغال بالرد على أمثالهم فنراه يقول :

أذا الجود أعط الناس ما أنت مالك
ولا تعطين الناس ما أنا قائل
أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصيرٌ يطاول ؟!!
لساني بنطقي صامت عنه عادلٌ
وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه
وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبي فيهم غير أنني
بغيضٌ إليَّ الجاهل المتعاقل

ونراه مرة أخرى وفي سياق آخر يقول مخاطبا سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم
فأنت الذي صيرتهم لي حُسَّدا
وما الدهر إلا من رواة قلائدي
إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا
وغنّى به من لا يُغَنّي مغردا

أجـزنـي إذا أُنشِـدتَ شعراً فإنـما

بشعري أتاك الـمادحون مــــرددا

ودع كلَّ صوت غير صوتي فإنما

أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

الفصـل الثالـث

سمـاتُ الأداء الفنِّـي

بعد أن عرضنا أهم القصائد والمقطوعات التي عبَّر فيها أبو الطيب عن ذاته ، وأبان عن طوايا نفسه ، وما أحاط بتلك التجارب الشعرية من أحداث ، وما أثارته في وجدان شاعرنا من انفعالات ، وكيف كانت استجابته لها ، وتعبيره عنها .... ، بعد أن عرضنا ذلك حريٌّ بنا أن نلمَّ بالجانب الآخر في تلك النوعية المهمة من شعر أبي الطيب وهو جانب الأداء الفني ، وما اتسم به أسلوبه من سمات ، وكيف كانت شاعريته تلهمة العبارة المعجزة كما ألهمه وجدانه العاطفة المتقدة ، وأسعفته قريحته بالمعاني البكر ، والتأملات الصائبة .

وسأوزع هذا الفصل على مبحثين : مبحثٍ يختص بالمحتوى وما يتصل به ، والمبحث الآخر يدور حول التعبير والصورة وما هو منهما بسبب . وأول ما لفت نظري مما يتصل بمضمون الشعر الوجداني عند أبي الطيب ومحتواه ـ اختياراته للمطالع والافتتاحيات ، وجَعْلُها سمة مميزة لكل قصيدة ، توحي بموضوعها ، وتطرح فكرته في ألمعية ، وتشي بما يعتمل في حنايا الشاعر بشأن تلك الخواطر والإحساسات التي حفزته على التعبير ، وحرّكت في نفسه هواتف الشعر ، وأهابت بشاعريته أن تُفْصِحَ وتُبِين .

ولا مراء في أن مطلع القصيدة وافتتاحيتها هو أول ما يطرق سمع المتلقي ومن ثم تتولد لديه انطباعات أولية إما بالإعجاب والإكبار ، وإما بالنفور والإعراض ، ولقد برع أبو الطيب في جعل متلقي شعره يتعاطف مع ما يقول ، وتشده تلك الافتتاحيات التي حشد

لها شاعرنا كل إمكاناته الفنية ، ولـوّنها تلوينا عجيبا ، فأتت على نحـو بديع ، وبصور شتى ؛ فلـم يحصر أبو الطيب نفسه في إطار أوحد لا يعدوه بل نوّع وتفنن ، فجعل بعض تلك المطالع والافتتاحيـات غزليـة وبعضها الآخـر حماسـية ، وبعضـهـا تأمليـة حكميـة ، وبعضـهـا تمهيـد مباشر لموضوع القصيدة وفكرتها ... إلى غير ذلـك مـن الافتتاحيـات والمطالع على نحو ما سنبين .

وحتى لا يتشعب بنا القـول ألخص للقـاريء فـي هـذا المقـام أهـم أنماط الافتتاحيات والمطالع في شعر أبي الطيب ذي الطـابع الذاتـي ، وأعني بالمطلع أول بيت في القصيدة ، أمـا الافتتاحيـة فهـي مجموعـة الأبيات التي يبدأ بها الشاعر قصيدته ممهدا لموضوعها ، وتكـون فـي غـالب الأمـر مرتبطـة ببعضهـا البعض فكراً ومعنـى ، وهـي تشـمل المطلـع بداهـة ، ويطلـق عليهـا المقدمـة أيضـا . وهـا هـي ذي أهـم أنماطها :

١) **نمط حكمي فلسفي** عميق من حيث دلالته المضمونية ، بيـد أنـه واضح من حيث عبارته وأسلوبه ، ويكـثر هـذا النمـط فـي وجدانيـات أبي الطيب ، بحسبان شاعرنا من أكثر الشعراء القدامـي عنايـة بتـأمل أحداث الحياة ، وأحـوال النـاس ، وطبـائعهم وعلاقـاتهم ...، وهـذه النزعـة تدفـع صـاحبهـا إلـى اسـتخلاص العـبرة ، واسـتنتاج الدلالــة ، واستلهام الرؤية الصائبة ، فإذا ما كنا نتحدث عـن نوعيـة مـن الشـعر تتعلق بوجدان الشاعر ومعاناتـه ، وتقلبـات حياتـه فـلا غرابـة فـي أن تكون تأملاته فيما يخص هذا الجانب أو يؤثر فيه على قدر كبير مـن

العمق والإمتاع . وأكثر قصائد هذا النمط تنحو منحى العبرة الممزوجة بالبث والشكوى ، وبعضها يجنح إلى التعبير عن قوة التحمل والتصبُّر للشدائد ، والنزوع للمغالبة ... ، مما عرفناه فيما تقدم وكان سمة مميزة لشخصية أبي الطيب .

ومن النوع الأول الأكثر شيوعاً وهو ما ينحو منحى الشكوى ، وتصوير المعاناة ـ المطالع التالية :

~ أودُّ من الأيام ما لا تودُّهُ   وأشكو إليها بيننا وهي جندهُ

وهو مطلع إحدى القصائد المدحية مما مدح به أبو الطيب كافورا وهي موحية ذات دلالة على المعاناة والحرمان ، وصعوبة تحقق الآمال بل استحالتها ، ويتكامل المطلع مع باقي الافتتاحية في توافق منطقي وتصويري بديع إذ يقول :

أود من الأيام ما لا توده   وأشكو إليها بيننا وهي جنده
يباعدن حبًّا يجتمعن ووصله   فكيف بحبٍّ يجتمعن وصده
أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه   فما طلبي منها حبيبا ترده
وأسرع مفعول فعلت تغيُّراً   تكلف شيء في طباعك ضده

نحن إذاً أمام مطلع غزلي لقصيدة مدحية أو حفلية ، وأكثر غزل تلك المطالع أو الافتتاحيات غزل صناعي ، يتفنن فيه الشاعر متلطفا به لموضوعه ، وتكون له دلالته في الإيحاء بالعاطفة المسيطرة على الشاعر ، والخواطر المتماوجة في حناياه .

بدأ أبو الطيب معلناً أنه كان يرجو دوام الوصال والقرب ممن يهوى ولكن الأيام لا تريد ذلك ، وهو يشكو لها البين في حين أنها

سببه وباعثه ، فهي تباعد دائما بين المتحابين المتواصلين فكيف يطلب منها أن ترد عليه حبيبه الذي هجره وفارقه ؟! إن خُلُقَ الدنيا وطبعها يأبيان عليها أن تُبْقِي على اقتراب حبيبين فبأي منطق يطلب منها شاعرنا أن ترد عليه من فارق وابتعد ؟! وإذا كان هذا هو طبعها وعادتها وديدنها فلا غرابة إن بادرت فحرمت الحبيب من حبيبه الذي واصله في غفلة منها ؛ إذ يعاودها خلقها اللئيم وطبعها الخسيس ، الذي إن تكلفت غيره وحاولت إظهار سواه خانتها قواها ، وغلبها ما جُبِلَتْ عليه .

وهكذا نرى الافتتاحية بمطلعها المميز قد مهدت لموضوع القصيدة ، وقد لمسنا في الجانب الذاتي منها عناية الشاعر بالفخر الممزوج بالحكمة واستخلاص العبرة ، كما وضحنا في تحليلنا للقصيدة في السياق السابع .

~ عيدٌ بأية حال عدتَ يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد

وهو مطلع قصيدة قالها أبو الطيب قبل رحيله عن مصر يهجو بها كافوراً ، ويكشف عن ضيقه بمقامه ، ومقته لجوار هذا الدعيِّ اللئيم ، وما أضاعه من عمره وفنه في استدرار جوده ، ومحاولة نيل منزلة لديه تعوض ما افتقده برحيله عن سيف الدولة ، فلم يجن من مسعاه إلا الندم والحرمان !! .

وجو القصيدة مفعم بالقلق والضيق ، وقد قالها أبو الطيب يوم عرفة أي قبل رحيله من مصر متخفيا بيوم واحد ، وهو في هذا المطلع يخاطب تلك المناسبة الحبيبة التي تفد على المسلمين بالبشرى

والسرور ـ مناسبة عيد الأضحى ـ ولكن شاعرنا في كرب وبلاء ، ومن ثم يخاطب تلك المناسبة في أسى واضطراب : أيها العيد ماالذي تحمله لي من بشائر الرضا والأمل ؟ إنك تُهِلُّ عليَّ وأنا في محنة لا أدري كيف يكون خلاصي منها ، هل سيكون لي خلاص ونجاة وسرور أم سيبقى حالي كما أَلِفْتُ يأس وشقاء وهوان ؟! . والمطلع متوائم مع الافتتاحية ومع الجو العام للقصيدة كما اتضح لنا في عرضنا للسياق الثامن فيما تقدَّم .

~ نُعدُّ المشرفيةَ والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

وهو مطلع مرثيةُ أبي الطيب والدَةَ سيف الدولة ، وفيه بطبيعة السياق الحكمة واستخلاص العبرة ، وعمق المعنى الذي أدركه فكر هذا الشاعر العظيم ، ذو العقل الكبير ، والرؤية الحكيمة ، والنظرة المتأملة العميقة ، التي تنتهي بصاحبها إلى أن يرى في صراع الناس في الدنيا وتكالبهم على حطامها عبثاً لا مبرر له ، وتسرعاً محموماً ، غافلين عن حقيقتها الأبدية ، ونهايتها المتيقنة : الموت الذي يأتي لينهي الحياة ، ويحول بين المتعادين والمتباغضين ، ويحسم الصراع الذي ربما فشلت في حسمه الدسائس والمكائد والتدابير ، وفنون النزال والقتال !!

ويتناغم المطلع في هذه القصيدة مع سائر الافتتاحية إذ يستقصي فيها أبو الطيب ذلك المعنى العجيب الذي حرره عقله النابه ، وذكاؤه الوقَّاد إذ يقول :

نُعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

ونرتبط السوابق مقربات   وما ينجين من خبب الليالي
ومن لم يعشق الدنيا قديما   ولكن لا سبيل إلى الوصال
نصيبك في حياتك من حبيب   نصيبك في منامك من خيال

لقد كان أبو الطيب موفقا غاية التوفيق في التمهيد لمرثيته بتلك الافتتاحية التأملية الحكيمة ، وذلك المعنى البكر ، فبعد المطلع الذي ألمحنا لدلالته يسوق أبو الطيب ما يكمل معناه ويقرره في الأذهان ، فبعد أن قرر في المطلع أننا – بني البشر – نعد أدوات القتال من السيوف والرماح والدروع ليقتل بعضنا بعضا ، وتأتي المنايا فتقتلنا دون أن يكون بمقدورنا حيالها قتالا أو دفاعا ، ونقتني الخيول ونربطها قريبا من متناول أيدينا ، وما تستطيع هاتيك الجياد السوابق أن تنجو بنا من أحداث الدهر التي تسرع نحونا وتتخطفنا ، ومَنْ مِنَ البشر في قديم الزمان لم يحبَّ دوام الحياة واتصالها وعدم مفارقة الدنيا ؟ ولكن لا سبيل إلى تحقق تلك الأمنية المستحيلة ، إن العاقل لو تأمل وأمعن النظر لأدرك أن ما يناله من محبوبه لا يعدو أن يكون متاعا عابراً ، وكأنه كان يرى حلما ما لبث أن استيقظ فزايله ما كان يتمثل له من خيال !! .

~ ألا لا أرِي الأحداث حمداً ولا ذمًّا
فما بطشها جهلا ولا كفُّها حلماً

وهو مطلع مرثية أبي الطيب جَدَّتَهُ ، وهي من روائع شعره عامة وشعره الذاتي على جهة الخصوص ، وقد بدأها بداية تلائم الجو العام للقصيدة ؛ إذ كان معنيا فيها بإظهار تجلده للشدائد حتى لا يشمت

به الأعداء ، كما ملأ القصيدة بالفخر المدوي ، ومن ثم جاء المطلع تأملا عاقلا حكيما ، فأكثر الناس عندما ينزل بهم مثل ذلك المصاب يجزعون ويتسخطون ، ويُنْحُون باللائمة على الأيام والليالي وصروف الدهر ... ، وكثيرا ما صنع شاعرنا نفسه هذا الصنيع في مواقف أخرى ، أما ههنا فهو يتوجه توجها مغايراً ، إذ يؤكد أنه لا يرضى عن الأيام أو يحمدها إن نزل به فيها خير، ولا يذمها إن أصابه فيها شر ؛ لأن مرجع هذا وذاك لله عز وجل ، وإنما ينسب الناس إليها ذلك على سبيل المجاز والتوسع في القول ، ثم أكمل شاعرنا العظيم معناه العاقل الحكيم بقوله :

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتي

يعود كما أبدى ويكري كما أرمى

فكما تحدث الزيادة يعود الأمر إلى النقصان والتلاشي ، وكما يكون التمام يعتري النقصان والافتقاد ، فلا دخل للأيام حتى تحمد أو تُذَمّ .

~ **أفاضل الناس أغراض لذا الزمن**

يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن

وهو مطلع قصيدة مدح بها أبو الطيب القاضي الأنطاكي وهو رجل كان موضع تقدير أبي الطيب واحترامه ومهابته ؛ لذا اتسمت مدائحه فيه بتوخي دقة المعنى وعمقه ، وروعة التعبير والتصوير ، وحسن التأتي . والمطلع كما يتراءى يعبر عن حقيقة يعانيها المخلصون وأهل الفضل ، إذ يُلاحَظ أنهم مهضومون محرومون ؛ لأن الانتهازيين يسبقونهم إلى متع الحياة وطيباتها ، أما هؤلاء فتحول

دماثة خلقهم وترفعهم عن طلب ما هم به جديرون ، وبنيله حريون ـ دون أن ينالوا حظًّا ملائما لما ينبغي أن يكونوا عليه !! إنها حقيقة مؤلمة ، وواقع قاس ، وكأن الزمان يقف من هؤلاء الفضلاء موقف العداء ، فيجعل أبرعهم فطنة وذكاء أكثر شقاءً وحرماناً ، فالمعادلة بالنسبة لهم معكوسة ، كلما زاد أحدهم فضلا وعقلا زاده الدهر همًّا وعناءً ، والعكس في واقع الحال صحيح ، ثم استطرد أبو الطيب بعد ذلك في بقية أبيات الافتتاحية متأملا مستخلصا العبرة على نحو ما عرضنا في السياق الحادي والثلاثين .

~ **صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا**

وهو مطلع مقطوعة ذاتية من شعر الحكمة ، بلغت عدتها عشرة أبيات ، ذكر شراح الديوان أن أبا الطيب قالها بمصر ولم ينشدها كافورا ، والمقطوعة كلها حكمة وتأمل في عبر الحياة وصروفها . ومطلعها مؤذن بموضوعها ، ممهدٌ له ، موحٍ بمغزاه ، ويلاحظ أن الشاعر نحا في تعبيره عن مضمونها منحى عاما في التعبير ؛ لأن مضمونها وما انطوت عليه لا يخص الشاعر وحده بل لا يخص إنسانا دون غيره ، وهي إن جنحت نحو العمومية فهي نابعة من الذات معبرة عن رؤية الشاعر ، على الرغم من أنه يقرر فيها حقائق تصدق على الناس جميعاً .

~ **كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا**

وحسب الأماني أن يكُنَّ أمانيا

وهو مطلع إحدى مدحياته كافورا ، ويبدو من سياقها أنها مما قاله

في بداية قدومه مصر ، إذ كانت أصداء حياته في حلب لا تزال تلح عليه ، وتملأ جوانب نفسه ، ولم يكن قد تخلص منها بعد ، ومن أمارات ذلك غلبة روح اليأس التي كادت تسد على شاعرنا الآفاق ، وتكتم الأنفاس ، وتشيع في نفسه القنوط ؛ لذا رأيناه يؤكد أن أقصى ما يصل إليه الإنسان من مشاعر اليأس والإحباط أن لا يرى لدائه شفاء إلا بالموت ، وهذا الشعور بحد ذاته كافٍ لأن يبلغ اليأسُ والإحباطُ بأبي الطيب كُلَّ مبلغ ، ومن ثم استطرد بعد ذلك المطلع مكملا ومتماً معناه بقوله :

تَمنيْتَـهَا لـمَّـا تمنيت أن ترى صديقاً فأعيـا أو عدوًّا مداجيا

يقصد أنه تمنى الموت عندما أمَّل أن يجد له في الحياة صديقاً مخلصاً يأنس به وتسره صداقته ، أو عدوًّا ساتراً لعداوته فأعياه الأمران جميعا ، ثم استطرد في السياق الحكمي في بقية الافتتاحية على نحو ما مرَّ بنا في السياق الرابع والثلاثين .

ومن ألوان تلك النوعية من المطالع ما ألمحنا إليه قبل وهو ما يتجه فيه أبو الطيب للتعبير عن اعتزازه بشخصه وشعره وإبائه الدنيات كهذا المطلع :

لا افتخارٌ إلا لـمـن لا يُضـام مدرك أو مـحـارب لا ينـام

وهو مطلع قصيدة مدحية ، ويلاحظ أن حديث الذات شغل ما يقارب ثلثها ، وجاءت افتتاحيتها في ستة أبيات ، سبق ذكرها في السياق الخامس والعشرين . ولكننا نعيد إثباتها مرة أخرى لنرى كيف

جاءت افتتاحيتها متوائمة متناسقة ، ممهدة لمضمون القصيدة :

لا افتخـارٌ إلا لمـن لا يُضـام مُدرك أو محارب لا ينـام
ليس عزماً ما مرَّض المرء فيه ليس هما ما عاق عنه الظـلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيـه غذاءٌ تضوى به الأجسام
ذلَّ من يغبط الذليل بعيـشٍ ربَّ عيش أخفُّ منه الحمـام
كل حلم أتـى بغير اقتـدار حجـة لاجـيء إليها اللئـام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـرحٍ بميـتٍ إيـلام

والافتتاحية متكاملة المعنى ، مترابطة الأفكار ، يتضح من مجملها أن أبا الطيب جعل دستوره في الحياة الإباء والأنفة ، ومن ثم يؤكد أن الفخر الحقيقيَّ لا ينبغي أن يكون إلا للأبي العزيز ، الذي لا يقيم على ضيم ولا ينام عن وتر ، أما من ينكص على عقبيه ، ويسوق الأعذار ويختلق التَّعِلات ــ فلا يسوغ أن يوصف بأنه ذو عزيمة أو صاحب همة ، ويؤكد شاعرنا تلك الحقيقة من جانب آخر فيذكر أن احتمال الأذي والتعرض للضيم ، والاضطرار إلى مداراة الطغاة والصبر على أذاهم يمثل عبئاً نفسيا ثقيلا يقع على كاهل من يتعرض لذلك ، وقمين بمن ابتلي بذلك أن يهزل جسمه ، وتضعف قواه ؛ لثقل وطأة ما يقاسيه ، وإن من يحسد الذليل على ما قد يكون فيه من متاع مادي رخيص ــ واهم مخطيء ؛ فحياة أمثال هؤلاء كالعدم ، وربما غدا الموت أهون وأفضل من حياة الأذلاء مع ما يتعرضون فيها للقهر والإرغام ، ومن يزعم لنفسه الحلم مع العجز ينعت الأشياء

بغير نعتها الحقيقي ، ويسمي عجزه ونكوصه حلماً وما هو بحلم بل هو تعلل اللئام ، واحتيال العاجزين ، وينهي أبو الطيب افتتاحيته الرائعة بالتأكيد على تلك الحكمة الخالدة ، إذ يذكر أن خطر تجرع الهوان وقبول الذل يكمن في اعتياد النفس الضعيفة له ، وركونها إليه وعدم الشعور بالغضاضة تجاهه ، ومن ثم يسهل أمره ويغدو شيئا مألوفا ، فلا يكون له وقع مؤلم يدفع لرفضه وإنكاره ، ويتبلّد حس من يتجرعه فيشبه الميت الذي لا يتألم ، ولا يتأثر ولا يشعر .

إذا غامرت في شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير   كطعم الموت في أمر عظيم

وهو مطلع يقترب في دلالته من المطلع الذي سقناه آنفا ؛ إذ ينحو نحو التعبير عن النزوع للمغالبة ، والخطار بالنفس ، ويعلل لذلك بأن الموت نهاية كل حيّ ، وإذا كان الأمر كذلك فلا معنى للتخاذل أو قعود الهمة .

٢) **نمط غزليّ** ، فيه محاكاة لتجارب الشعراء القدامى في المقدمات الغزلية ، والمطارحات الغرامية مع الحسناوات ، ومن خلال ذلك يكون البث والبوح ، وتصوير الإحساسات والمشاعر . وقد برع أبو الطيب في ابتداع ألوان من ذلك الغزل الصناعي الطريف ، كشف فيها عن عبقريته ، وجارى الشعراء الآخرين فبذهم في كثير من الأحيان ، إذ حشد في تلك المطالع والافتتاحيات معاني الصبابة والشوق الغالب ، والشكاية من الهجر والبين ، وطلب المساعدة من الرفاق ... ، إلى غير ذلك من المعاني التي عبر عنها الشعراء

وتفننوا فيها . ولعل ما نلحظه في بعض تلك المطالع والافتتاحيات من تكلف أو تعقيد ناتج عن رغبة أبي الطيب في الإتيان بما لم يُسبَق إليه ، وكان ذلك يدفعه دفعا إلى الغلو والمبالغة ، وقد يبلغ لديه في بعض الأحيان حد الإحالة .

وأعرض من تلك النوعية المطالع التالية :

~ **أعيدوا صباحي فهو عند الحبائب**

وردُّوا رقادي فهو لحظ الحبائب

وهو مطلع إحدى قصائده المدحية ، وفي القصيدة يفخر أبو الطيب بشخصه وقدراته على نحو ما مر بنا في السياق الثاني ، بيد أن الافتتاحية جاءت حافلة بالأضواء والظلال والتصوير البديع .

~ **لك يا منازل في القلوب منازل   أقفرت أنت وهن منك أواهل**

وهو مطلع طللي يعد مع ما تلاه من الافتتاحية من روائع إبداعات أبي الطيب وابتكاراته وتوليده للمعاني ؛ إذ يخاطب ديار الأحبة مبينا مكانتها في شغاف قلبه ، ويسوق مفارقة عجيبة تتمثل في خواء الديار من قاطنيها من جانب وبقاء ذكرياتها ماثلة في قلبه من الجانب الآخر والمجانسة بين منازل الأحبة ومنازلها في القلوب وكذا المطابقة بين : (أقفرتِ أنت .... وهن منك أواهل) أكسبت البيت جمالا فوق جمال ... والافتتاحية في جملتها قطعة من الفن الرفيع ، بل القصيدة كلها ؛ إذ هي في مدح القاضي الأنطاكي ، وسبق التنويه بالجانب الذاتي منها في عرضنا للسياق الخامس عشر . وافتتاحيتها تقتضينا وقفة نلمس من خلالها براعة المتنبي في اصطناع حديث الأطلال والشوق

والصبابة وهذه هي الافتتاحية بجملتها ، وقد أطال فيها طلباً للتفنن وإظهاراً البراعة الفنية والمقدرة التعبيرية بين يدي الممدوح يقول :

لك يا منازل في القلوب منازل   أقفرت أنت وهنّ منك أواهل
يعلمن ذاك وما علمت وإنما   أولاكما ببُكَى عليه العاقل
وأنا الذي اجتلب المنية طرفه   فمن المطالَب والقتيل القاتل
تخلو الديار من الظباء وعنده   من كل تابعة خيالٌ زائر
اللاء أفتكها الجبان بمقلتي   وأحبها قرباً إليّ الباخل
الراميات لنا وهن نوافرٌ   والخاتلات لنا وهن غوافل
كافأننا عن شبههن من المها   فلهن في غير التراب حبائل
من طاعني ثغر الرجال جآذرٌ   ومن الرماح دمالج وخلاخل
ولذا اسم أغطية العيون جفُونها
من أنّها عمل السيوف عوامل
كم وقفة سجرتك شوقاً بعدما   غري الرقيب بنا ولجّ العاذل
دون التعانق ناحلين كشكلتيْ   نَصْبٍ أدقّهما وضمّ الشاكل
إنعمْ ولذَّ فللأمور أواخر   أبداً إذا كانت لهن أوائل
ما دُمتَ من أرب الحسان فإنما   روق الشباب عليك ظلٌّ زائل
للهو آونة تمرُّ كأنها   قُبَلٌ يُزَوّدُها حبيب راحل
جمح الزمان فما لذيذٌ خالصٌ   مما يشوب ولا سرور كامل

وهكذا نرى أن أبا الطيب قد حلّق بنا في آفاق ساحرة ، وطوّف بنا في أفياء وارفة ، وأخذنا في رحلة خيالية مفعمة بالسرور والحبور حافلة بالأضواء والظلال ، احتشدت فيها الصور ، وتعانقت المعاني ، وتجاذبت الأفكار ، وانصهرت جميعا في بوتقة الصنعة الماهرة

لتخرج لنا تلك الافتتاحية الرائعة .

فبعد المطلع الذي بينا دلالته يقول أبو الطيب مكملا تصويره : إن منازلك في القلوب أيتها الأطلال يعلمن حقيقة ما لك عندهن من إعزاز ومودة وأنت لا تعلمين ، وما أولى القلوب العاقلة المعانية بأن يُبكى عليها ويُرثى لها من تلك التي لا تعقل ولا تدري ولا تحس !! ثم يلتفت في سياق تعبيري جميل إلى نفسه فيؤكد أنه هو الذي جلب حتفه بنفسه ، أو إن أردنا الدقة قلنا اجتلب حتفه بطرفه الذي أرسله على الحسناوات الفاتنات فاستبين لبه وصَرَعْنَ فؤاده ، فمن يُطالب إذاً وهو القاتل والقتيل والجاني والمجني عليه ؟!! ، ثم إن ديار الأحبة أو أطلالها ربما خلت من الظباء وأطلائها وفي قلبه من طيوف أحبته أرسال متتابعات ، ووفود غاديات رائحات لا تفارق وجدانه ، ولا تغيب عن خاطره . وهؤلاء الآسرات الفاتنات أكثرها فتنة لي المبتعدة النافرة ، وأحبها إلى نفسي العصية الباخلة ، وهن ترميننا بألحاظهن وهن نافرات ، وتأسرننا بسحر جمالهن وهن غافلات ، لا يقصدننا ولا يدرين بما فعلن بنا ، وكأنهن يعاقبن الأوادم وبني البشر على صيد المها بأن يصدن قلوبهم ويستولين على ألبابهم ، إنهن يحاربننا ويصوبن الأسلحة إلى نحورنا ، وما تلك الأسلحة سوى الدمالج والخلاخل ، ثم تأتي فريدة أبي الطيب التصويرية الرائعة إذ يعقد في براعة صلة متوهمة بين تسمية أغطية العيون بالجفون وإطلاق تلك التسمية على أغمدة السيوف بأن فعل عيون الفاتنات الجميلات في قلوب المحبين يشبه فعل السيوف في الفتك بالخصوم فساغت التسمية وصح الإطلاق !!

وسنثبت الافتتاحية ونتأمل صنيع أبي الطيب فيها . يقول :

كدعواك كل يدعي صحة العقل
ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل
لهنك أولى لائم بملامة   وأحوج ممن تعذلين إلى العذل
تقولين ما في آلناس مثلك عاشقٌ
جِدي مثل مــن أحببته تجدي مثلــي
محب كنى بالبيض عن مرهفاته
وبالحســن في أجسامهن عن الصقل
وبالسُّمر عن سمر القنا غير أنني
جناها أحبائي وأطــرافها رُسلـــي
عدمت فؤاداً لم تبت فيه فضـــلة
لغير الثنايــتا الـغُـرِّ والحدق النجل
فما حرمت حسناء بالهجر غبطـة
ولا بلَّـغتـها من شكا الهجر بالوصل
ذريني أنل ما لا يُنَـال من الـعـــلا
فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تــريدين لقيان المعالي رخيصـــة
ولا بدَّ دون الشهد من إبـــر النحل
حذرت علينا الموت والخيل تلتقي
ولم تعلمي عن أي عاقبـــة تُجلـــي

والطريف في هذه الافتتاحية هو المطارحة الغراميــة التي عقدها

ويستطرد أبو الطيب فيذكر أنه كثيراً ما تعرض لمواقف الْتَقَى فيها بمن يهوى مقتربا منها ، وقد رصده الرقباء ، وثرثر حول علاقتهما الوشاة ، وكان اقتراب ذينك العاشقين قريباً جدا ، وقد بلغ بهما النحول مبلغه حتى صارا في وقفتهما تلك يشبهان شكلتي النصب (أي الفتحتين في حال النصب والتنوين) اللتين أجاد الشاكل صنعهما وضمهما إلى بعضهما في تناسق وتساوق !!

ويقترب بنا شاعرنا البارع من نهاية الافتتاحية فيسوق نصائحه للمحب الواله قائلا له : تنعم وتلذذ وخذ حظك من المتع والطيبات فلكل ذي بداية نهاية ، ما دمت في عمر الشباب ، وما دام للحسناوات فيك أرب لأن الشباب عنك زائل ولك مفارق ، وما أشبه متع الشباب ولهوه وسروره بقبلٍ يتزود بها الحبيب الراحل من حبيبه ، فلتأخذ حظك من تلك المتع ولتحذر غدرات الدهر ومفاجآته وتكديره الصفو وتبديده السرور!! .

~ كدعواك كلٌّ يدَّعي صحة العقل

ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

وهو مطلع قصيدة مدح بها أبو الطيب أحد القادة الشجعان ، ومزج في افتتاحيتها الغزل بالفخر مزجا رائعا ، وكشف عن ولوعه بالفروسة والبطولة وحب المغامرة . والمطلع مبتكر فريد في معناه ، والمطارحة الغرامية فيه طريفة ؛ إذ تؤذن بما يليها من عتاب ، وما يودُّ شاعرنا أن يؤكده من صواب وجهته ، وحسن تقديره للعواقب ،

الشاعر مع مَنْ يهوى ، وجعل منها مدخلا للبث والكشف عما يتوق إليه ، والتنويه بشجاعته ، وقد أضفت هذه المطارحة على الأداء الشعري عذوبة وطلاوة ، على الرغم مما تنطوي عليه من حقائق منطقية ، برع الشاعر في إلباسها غلالة من التصوير البديع ، والخيال المحلق ، الذي استوحى صوره من أودية الصبابة والغرام ، في حين جاء محتواه داخلا في باب الفخر والفروسة .

٣) **نمط موضوعي** يعد مدخلا مباشراً لموضوع القصيدة ، وتكون سمته الوضوح والطرافة ، وهذا النمط من المطالع والافتتاحيات كثير في شعر أبي الطيب عامة وله حضوره في شعره الوجداني . ومن أمثلته المطالع التالية :

~ **لكل امـرىءٍ من دهره ما تعوّدا**
وعادات سيف الدولة الطعن في العدا
وأن يُكْذِب الإرجاف عنه بضده
ويُمسـي بما تنـوي أعاديه أسعدا

وهو مطلع إحدى سيفياته ، وهو يُشعِر بموضوع القصيدة ويمهد لما سيذكره الشاعر من بسالة الممدوح وفتكه بخصومه وتمكنه منهم .

~ **دروعٌ لملك الروم تلك الرسائل**
يردُّ بها عن نفسه ويُشاغل

وهو مطلع إحدى السيفيات ، وقد ذكر الشراح أن أبا الطيب قال هذه القصيدة وقد وفد على سيف الدولة رسول ملك الروم في سفارة

وقد جعل أبو الطيب الافتتاحية مدخلا طبعيا لموضوعه بل هي جزء لا يتجزّأ منه .

- **قفا تريا ودقي فهاتا المخايل ولا تخشيا خلفا لما أنا قائل**

وهو مطلع إحدى قصائد عهد الصبا ، وقد تناولناها في السياق الثالث عشر ، ويمهد هذا المطلع لموضوعها ؛ إذ يؤكد أبو الطيب لصاحبيه أن ما أخبرهما به من بُعْدِ همته ، وإصراره على بلوغ أرفع المنازل ، وأعلى الرتب ـ متحقق بلا ريب ، وقد بدت أماراته ، وظهرت دلائله .

وقد يأتي أبو الطيب بالمطلع ممهدا لموضوع القصيدة ، ويجنح به إلى الغرابة ، ويتصنع التكلف في العبارة ؛ رغبة في الإغراب والطرافة . ومن أمثلة ذلك المطلعان التاليان :

- **أقل فعالي بله أكثره مجد وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جد**

وهو مطلع إحدى مدحياته ، وافتتاحيتها تعبير عن الفخر بالفروسة وحب الخطار بالنفس ، وهو حديث ردده أبو الطيب في مواقف ومناسبات كثيرة ، وفي معنى المطلع غرابة ؛ لذا انقسم الشراح في تفسيره ، وذهبوا مذاهب شتى . حكى العكبري عن الواحديّ قال : معنى المصراع الأول من هذا البيت : إني لا أفعل شيئا إلا ومغزاي المجد ، وإياه أطلب ، ولو صرح بالأقل لقال : نومي وأكلي وشربي للمجد ، ولو صرّح بالأكثر لقال : تغريري بنفسي ، وركوبي المهالك وشهودي الحرب كله مجد ، أي لأجل المجد وتحصيله . يقول إذا عرفت كون الأقل مجداً أغناك ذاك عن تعرف الأكثر . وقوله " ذا

الجد " معناه : أن الجدّ في طلب المجد جد معجل ؛ لأن استعمال الجد في الأمور جَدّ ، لأنه يستمر عادة باستمرار الجد في الأمور .

وقال أبو الفتح : أي فلو لم يكن عندي غير هذا الجد في أمري وترك التواني لقد كان جدا لي ، وذا الجد الذي أنا عليه من أمري فيه حظ نلت ما أطلبه أم لم أنله .

أمّا المطلع الآخر الذي يميل إلى الغرابة فهو قوله :

ضيف ألمَّ برأسي غير محتشم

والسيف أحسن فعلا منه باللمم

وهو مطلع إحدى قصائد عهد الصبا ، يقول : إن هذا الضيف وهو الشيب قد نزل برأسي دفعة واحدة من غير تراخ ومهلة . قال الواحدي : وذلك أن الشيب يبيضه ، وهو أقبح ألوان الشعر ، ولذلك حسُن تغييره بالحمرة ، والسيف يكسبه حمرة إذا قطع اللحم ، على ان ظاهر قوله : .. أحسن فعلا منه يوجب أن الشعر المقطوع بالسيف أحسن من الشعر الأبيض ، لأن السيف إذا أصاب الشعر قطعه ، وإنما يكسبه حمرة إذا قطع اللحم .

٤) نمط فيه بث وشكوى ومغالبة للشدائد وإظهار للتجلُّد .

ومن أمثلته :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر

وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

وهو مطلع قصيدة مدحية في افتتاحيتها حديث عن شجاعة أبي الطيب وتمرسه بالآفات ، وتوقِّيه للمجد ، ونفوره من الخمول

والانزواء ، وإيثاره الخطار بالنفس ، وإثـارة الصخب والضجيج من حوله . وقد سبق الحديث عن تلك القصيدة في السياق العاشر .

~ **فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تـهب اللئام**

وهو مطلع إحدى مدائح أبي الطيب ، وفي الافتتاحية شكوى من سوء أخلاق الناس في عصره ومجتمعه ، وتردّي أكثرهم فيما يصمهم بالصغار والوضاعة ، وبيان كراهية شاعرنا لتلك النقائص ، وترفعه عن تلك الدنيئات ... ، وقد سبق عرض ذلك في السياق الرابع والعشرين .

~ **ملومكما يجلُّ عن الملام ووقْـع فعالـه الكلام**

وهو مطلـع قصيدته التي وصف فيها الحمى ، وسبق عرضها وتحليلها في السياق التاسع والعشرين .

~ **بمَ التعلل لا أهل ولا وطن**

ولا نديم ولا كأس ولا سكن

وهو مطلع قصيدة عتاب وفخر قالها أبو الطيب عندما بلغه أن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة ، وسبق تناول ما يتصل بالشعر الذاتي منها في السياق الثاني والثلاثين . إلا أن افتتاحيتها تعد قطعة من الفن الرفيع ، أبدعها المتنبي من ذوب فؤاده ، وعُصارة فكره ، فجاءت على الرغم مما فيها من مسحة الشكوى والألم ـ نشيد اعتزاز وثقة بالذات ، وصلابة في مواجهة الشدائد ، وعصارة خبرة بالحياة واعتبار بأحداثها ، ودراية بأحوالها ؛ إذ سرورها لا يدوم ، والبكاء

على الفائت من متاعها عبث لا يليق بأولى الهمم والعزائم ، وما أدخل الضيم على أرباب الولوع بمتاع الحياة وزخارفها إلا جهلهم بحقائقها واغترارهم بأحابيلها وأشراكها ، فيسكبون الدموع على ما يفوتهم منها ظنا منهم أن فيه سعادتهم وسرورهم ، وقد يكون في عاقبة الأمر شرا تخلصوا منه ، ومكروها رحل عنهم ... ، والافتتاحية بهذه الأفكار التي بثها أبو الطيب في ثناياها أبلغ تمهيد ، وأعظم توطئة لما ضمنه القصيدة بعد من عتاب لسيف الدولة ، على نحو ما أسلفنا البيان . وهذه هي الافتتاحية بأكملها :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن

أريد من زمني ذا أن يبلغني ... ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

لا تلق دهرك إلا غير مكترث ... ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يدوم سرور ما سررت به ... ولا يردُّ عليك الفائت الحزن

مما أضرَّ بأهل العشق أنهم ... هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم ... في إثر كل قبيح وجهه حسن

تحملوا حملتكم كل ناجية ... فكل بين علىَّ اليوم مؤتمن

ما في هوادجكم من مهجتي عوض ... إن مِتُّ شوقاً ولا فيها لها ثمن

يا من نعيت على بعدٍ بمجلسه

....

٥) نمط فيه إغراب وتعقيد وتراكب في عبارته ، وغموض في معانيه ودلالته . ويبدو من سياقات هذه المطالع أن أبا الطيب

أتى بها على هذا النحو لأسباب متعددة ، منها : أن نزعة التأمل التي كانت طابع الاتجاه الذهني لديه اقتضته تعمقا في المعنى ، واستشفافا للحقيقة الكامنة وراء الظواهر ، فكان ذلك يقوده في بعض الأحيان إلى الإغراب ، وكزازة العبارة ؛ إذ الفكرة ذاتها تتسم بشيء من الخفاء ، ولا تكون واضحة جلية . وقد يكون سبب الغرابة في المطلع ناتجا عن رغبة شاعرنا في التباصر بالغريب النادر ، أو التعمية على بعض مناوئيه ، وشغلهم بالنادر غير المألوف الذي يعتاص عليهم ، فيعتصرون عقولهم في تأويله ، ومحاولة الاهتداء إلى كنه معناه ، وربما كان ذلك مقصوداً من المتنبي ، ومما يؤيده قوله :

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسخر الخلق جراها ويختصم

ومن أمثلة المطالع والافتتاحيات التي تدخل في ذلك النمط ما يلي :

~ عذيري من عذارى من أمور

سكنَّ جوانحي بدل القصور

وهو مطلع إحدى قصائده القصار ذكر شراح الديوان أنه قالها يصف مسيره في البوادي ، ويهجو رجلا اسمه " ابن كروَّس " ، وهي في تصنيفنا من شعر الفخر الشخصي الذي يباهي فيه أبو الطيب بمغامراته وركوبه المخاطر والأهوال . ومعناه : من يلتمس لي العذر في أمر تلك الآمال الكبار التي استولت على قلبي ، وأسرت لُبِّي ، وسكنت جوانحي ، والرغبة من شاعرنا في التجنيس اللفظي

والتورية واضحة ، وهي التي جلبت على عبارته الغموض ، ومعنى عذيري : من يعذرني ، أيْ يقبل عذري . والعذارى : الفتيات اللاتي لم يتزوجن ، وورّى بهن هنا عن الأمور العظام التي لم يسبقه أحد إلى الولوع بها ، أو معاناة أثرها ، وقوله سكنَّ جوانحي بدل القصور ترشيح للتورية ، وقد استطرد في البيت التالي فأكمل السياق المجازي قائلا :

ومبتسمات هيجاوات عصر عن الأسياف ليس عن الثغور

ومن ذلك النمط الذي فيه غموض وإغراب أيضا هذا المطلع :

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زمُّوا لا الجمالا

وهو مطلع قصيدة مدح بها أبو الطيب "بدر بن عمار" ، وكان شاعرنا محبا له ، معجبا بشخصه . والافتتاحية طريفة فيها مزجٌ بديع بين الغزل المصنوع المتقن الصنعة والشكوى من كثرة الأسفار وابتعاد الأحبة ... ، وسبق تناولنا للقصيدة في السياق الرابع عشر ، وواضح من افتتاحيتها الغزلية رغبة الشاعر في محاكاة الشعراء القدامى في معانيهم وأخيلتهم وتصويرهم ، ونستعرضها هنا لنتبين حقيقة ذلك يقول :

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زموا لاالجمالا

تولوا بغتةً فكأن بينا تهيبني ففاجأني اغتيالا

فكان مَسيرُ عِيسِهِمُ ذميلا وسير الدَّمع إثْرهم انسيالا

كأن العيس كانت فوق جفني مُناخاتٍ فلما ثُرنَ سالا

وحَجَّبت النوى الظبيات عني فساعدتْ البراقع والحجالا

لبسْنَ الوَشْيَ لا مُتجمِّلات ولكن كي يصُنَّ به الجمالا
وضَفَّرن الغدائر لا لحُسن ولكن خفن في الشعر الضلالا
بجسمي من برتُه فلو أصارت
وشاحي ثُقْب لؤلؤة لجالا
ولولا أنني في غير نوم لبتُّ أظُنُّني منّي خيالا
بدت قمراً ومالت خَوْطَ بانٍ وفاحتْ عنبراً ورنت غزالا
كأن الحزن مشغوفٌ بقلبي فساعةَ هجرها يجد الوصالا

والمطلع كما لمسنا غريب غير واضح الدلالة ؛ لذا انقسم الشراح حول تفسيره ، يقول أبو البقاء في معناه : لما رحلوا إنما ارتحل بقائي فكأن بقائي شاء ارتحالا لا هم شاءوه ، وكأنهم زموا صبري للسير لا جمالهم ؛ لأني فقدت الصبر لما ارتحلوا ، وإنما نفى الارتحال عنهم لأن ارتحال بقائه أهمُّ وأعظم ، فكأنَّ ارتحالهم عند ارتحال بقائه ليس ارتحالا لأنهم ربما عادوا ، والبقاء إذا ارتحل لم يعد ، ومسير صبره أعظم من مسير الجِمال ، فلم يعتد بسير جمالهم مع سير صبره .

وقال ابن القطاع : بقائي شاء أي سبق ارتحالهم ، يقال : شاءه وشآه : إذا سبقه ، ولولا ذلك لمت أسفاً ، وهذا على المبالغة . وقيل معناه : بقائي أراد رحيلهم ، فشاء من المشيئة ، فليتني متُّ ، ولم أره يتأسف إذا لم يمت عند رحيلهم . وقيل معناه : بقائي أراد أن يرحل عني وهم لم يشاءوا الرحيل .

ولا ريب أن تراكب العبارة وما فيها من تقديم وتأخير ومعاظلة كانت سببا في اختلاف الشراح في تفسيرها ، وإن كنت أميل إلى

تفسير أبي البقاء ؛ لاقترابه من روح المتنبي ونفاذه إلى جوهر شعره وطبيعة فنه . ومما يلفت النظر في الافتتاحية بعد ذلك المطلع الغامض المبالغة في التصنع ، إذ يزعم الشاعر أن الأحبة قد فارقوه على غير توقع منه ، وكأن البين تهيب أن يجاهره بالأمر ففاجأه مغتالا له على حين غرة منه ، ثم يبالغ في وصف أثر ذلك البين فيزعم أن مسير إبل الأحبة الراحلين كان وسطا لا إسراع فيه في حين كان مسير دموعه أسفا على فراقهم انسكابا متسارعا !! والأبيات بعدُ مليئة بالتصنع وفيها طرافة وجدة في التصوير مما يؤكد ما لاحظناه من رغبة الشاعر في التأنق وتوليد المعاني ، وابتكار الصور التي لم يسبق إليها .

~ مَلامُ النوى في ظلمها غايةُ الظلم

لعل بها مثل الذي بي من السقم

وهو مطلع إحدى مدحيات أبي الطيب ، ويروى : " ملامي النوى .. " يقول : إن لوم النوى في إحداث الفراق بيننا واتهامها بالظلم هو ظلم في واقع الأمر ؛ فقد تكون النوى عاشقة لها مثلي ، وقد ألمَّ بها من الشوق والسقم مثل ما أصابني فاستأثرت بالحبيبة وسبقتني للظفر بها .. فكيف تُلام ؟ ولِمَ تُظْلَم ويستنكر صنيعها ؟! والافتتاحية بعد هذا المطلع فيها أيضا غزل مصطنع ، ينم عن رغبة في الإغراب والطرافة وتوليد المعاني .

ولنتأمل صنيع شاعرنا فيها لتتضح لنا تلك الظاهرة يقول :

ملام النوى في ظلمها غاية الظلم

لعل بها مثل الذي بي من السقم

فلو لم تَغَرْ لم تزو عني لقاءكم
ولو لم تُرِدْكم لم تكن فيكم خصمي
أمنعمة بالعودة الظبية التي
بغير ولي كان نائلها الوسمي
ترشفت فاها سُحرة فكأنني
ترشّفت حرَّ الوجد من بارد الظلم
فتاةٌ تساوى عقدها وكلامها
ومبسمها الدرّيّ في الحُسن والنَّظم
ونكهتها والمندلي وقرقف
معتقة صهباء في الريح والطعم
جفتني كأني لست أنطق قومها
وأطعنهم والشهب في صورة الدُّهم

فهو يؤكد بعد المطلع ما طرحه فيه ، إذ يستدل من إبعاد النوى حبيبته أنها فعلت ذلك غيرة منه ، فهي تنافسه في حبها وتنصب نفسها خصما له ، ثم يتساءل في عبارة رقيقة أتعود تلك الحسناء فتنعم بالوصال بعد البعاد ، وتتواصل غيوثها بعد أن هطلت مرة واحدة ثم انقطع ما كنت أتوقعه من فيوضها ، لقد ذاق شاعرنا شيئا من حسنها فزاده بها تعلقها ، وكأنه اقتبس ما زاده شوقا وأُواما ، ثم وصف تكامل حسنها واتساق خَلْقِها ، عِقْداً وثغراً وحديثاً وشذاً عطراً ... ثم أنهى افتتاحيته بذكر جفائها ، وتخلص منه إلى الفخر في براعة واقتدار على نحو ما أسلفنا البيان في السياق الثاني والعشرين .

~ أحـقُّ عـافٍ بـدمعك الـهمم   أحـدث شيء عـهداً بها الـقِدم

وهو مطلع إحدى مدحيات أبي الطيب ، ويعدُّ مدخلا وتمهيداً للقصيدة ، ومتوائماً مع ما بثه شاعرنا فيها من الأفكار ، وما شكا منه من أحوال أهل زمانه ، وسوء ما هم عليه من طباع وأخلاق ، والافتتاحية تسير على النسق التالي :

أحق عاف بدمعك الهمم   أحدث شيء عهدا بها القدم
وإنما الناس بالملوك وما   تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ   ولا عُهودٌ لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أمم   تُرعَى بعبدٍ كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلبسه   وكان يُبرى بظفره القلم

ويتضح من سياق الافتتاحية مقدار تجديد أبي الطيب لمعاني شعره وابتكاراته في تلك الافتتاحيات التي أثراها بأفكار لم يُسْبَق إليها ، ومعاني وبدائه لا نظير لها في شعر غيره ؛ إذ يقرر أنه لا يشغل نفسه ببكاء الأطلال التي اندثرت بقدر ما يعنى ببكاء الهمم التي درست والعزائم التي غاضت ، وأهل المروءة الذين غدوا أثراً بعد عين !! ويربط شاعرنا ذلك الواقع المؤلم بتسلط فئة من الأعاجم على مقاليد الأمور ، وتحكمهم في مصائر العرب الخلص ، أرباب الهمم والعزائم والمُثُل والمكرمات ، وإذا كان الملوك المحكمون ذووا القول النافذ والأمر المطاع بهذه الوضاعة فكيف ينتظر أن يكون في سواد الناس مروءة أو صيانة لمكارم الأخلاق ؟! ولو أن هؤلاء الأعاجم كانوا من ذوي البيوتات لهان الخطب وخف المصاب ، ولكنهم في

الأصل عبيد مسترقون ، مرنوا في خدمة ساداتهم ، وكانت حياتهم خشنة قاسية فصاروا ذوى ترف وتنعم ففسد حالهم ، وعاثوا في الأرض فسادا !!

~ أنا لائمي إن كنت وقت اللوائم

علمت بما بي بين تلك المعالم

وهو مطلع قصيدة مدحية ، وفيه غرابة ناشئة من رغبة الشاعر في الإتيان بمعنى فيه مبالغة وابتكار ، إذ يصور الحيرة والتدله عند رؤية بقايا ديار الأحبة ، فيقول أنه أولى باللوم من غيره لو أنه أدرك شيئا مما حوله عندما وقف بين معالم تلك الديار !! والافتتاحية تصنع كلها وتدل دلالة واضحة على رغبة الشاعر في توليد المعاني ، والتأنق في صوغها على غير مثال سبق .

* * *

وهكذا نرى أن جزئية واحدة من جزئيات إبداع أبي الطيب قادتنا إلى هذا الفيض من البراعة وحسن التأتي ، وأعطتنا دليلا لا يقبل النقض على أن شعر أبي الطيب وإبداعاته ليست مما يتأتى فهمه عفو الخاطر، بل تتطلب تفرسا وتأملا ، وهي نتاج عبقرية حاذقة ، عاشت للشعر ، وحشدت قدراتها لذلك الفن العجيب ، فاستحق به شاعرنا تلك المكانة ، وبلغ به في سجل الخالدين أسمى موضع وأرفع منزلة .

صدق المعاناة وعمق التجربة :

وهي سمة مميزة لكثير من قصائد أبي الطيب ذات الطابع الوجداني وهو أمر منتظر في معالجة الشاعر لمثل تلك الجوانب

التي تتصل بشعوره وذاته ودخيلة نفسه ، إذ قد تصطبغ بعض معالجاته الأخرى بشيء من التكلف ، أو تغلب عليها الصنعة والافتعال ، أما في هذا الجانب الذاتي فلا موضع لشيء من ذلك ، ولو فعله الشاعر لانكشف أمره ، ولما خفي على الناقد البصير افتعاله بل لم تلفت تجربته منذ البداية الأنظار أو تستحوذ على اهتمام الذواقين .

ولعل القصيدة التي أثبتناها في السياق الأول تعد أصدق شاهد على عمق التجربة وصدق معاناة الشاعر لها ؛ إذ يعبر فيها أبو الطيب عن موقف مصيري تعرض له ، وأقدم على ركوب أخطاره ، وكان انكشاف تدبيره للهروب كفيلا بأن يعرض حياته للخطر ، لذا عندما نجحت خطته ، وتجاوز نطاق الطلب ، وأحس الأمان والنجاة ــ شدا متغنيا منتشيا مصوراً فرحته الغامرة ، وكأنه وُلِد من جديد ، ومن ثم عبرت قصيدته تلك عن خلجات نفسه ، فأطلق لشاعريته العنان متباهيا مختالا ، بعد أن عانت قيثارته أمدا طويلا من الألحان الحزينة ، والنغمات المبكية .

ولنتأمل تعبير الشاعر عن السرور والحبور بعد حكاية ما سلكه مع غلمانه من دروب وعرة مستخفين عن أعين المترصّدين حتى ابتعدوا وأيقنوا النجاة ، وأناخوا إبلهم ليأخذوا قسطا من الراحة بعد أن تجشموا في رحلتهم المتاعب وتعرضوا للهلاك يقول :

فلما أنخنا ركزنا الرماح فوق مكارمنا والعلا
وبِتْنا نقبّلُ أسيافنا ونمسحها من دماء العِدا

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنّي الفتى
وأني وفيت وأني أبيت وأني عتوت على من عتا
ولا كل من قال قولا وفى ولا كلُّ من سِيمَ خسْفاً أبى
....

وهذه تجربة أخرى نلمس عمقها وصدق معاناة الشاعر لوقع ما يبثه فيها ، وهي القصيدة التي مطلعها :

أود من الأيام ما لا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده

ففيها بث وشكوى وتصوير للمعاناة ، والملفت للنظر أن أبا الطيب كان على يقين من أن معاناته تلك لا سبيل إلى إنهائها أو التخلص من تبعاتها وأثقالها ، لا لأن ذلك مستحيل أو بعيد المنال بل لأن الشاعر لا يقبل أن يتصف بصفات يتطلبها ذلك البديل ، فكأنه يختار المعاناة قاصدا متعمداً ؛ إذ لا يرى أنه يستطيع أن يقبل غير تلك السبيل التي سلكها ، أو ذلك النهج الذي انتهجه !! يقول بعد المطلع الذي تقدم :

وأتعب خلق الله من زاد همه
وقصَّر عما تشتهي النفس وُجده
فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبيَّ ماله
مدى ينتهي بي في مرادٍ أحدُّه

يرى جسمه يُكسى شفوفا تربه فيختار أن يكسى دروعا تهده !!

فأي معاناة أقسى من تلك المعاناة ، وأي صدق في الإحساس والشعور أبين وأوضح من هذا الصدق ؟! .

وهذه قصيدة أخرى يتأكد لنا من خلال تفرسها تلك الخاصة - خاصة صدق المعاناة وعمق التجربة - وهي القصيدة التي مطلعها :

عيدٌ بأية حال عدت ياعيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد

وسبق التنويه بالقصيدة في السياق الثامن وفي مبحث المطالع ، وهي القصيدة التي قالها أبو الطيب عشية الخروج من مصر متخفيا ، وفيها يشكو سوء حاله وضيقه بمقامه في مصر ويهجو كافورا . ومما يتصل منها بصدق المعاناة وعمق التجربة فضلا عن المطلع قوله بعده :

أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدا دونها بيد

فهو يؤكد في صراحة وبلا مواربة كراهيته لذلك العيد لأنه يطالعه في وقت ليس وقت سرور أو حبور ، بل وقت معاناة وكرب ، ثم يتابع تعبيره المتألم ، ونسقه المُعاني فيقول :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
شيئاً تتيمه عين ولا جيد
يا ساقيي أخمر في كئوسكما
أم في كئوسكما همٌ وتسهيد
أصخرة أنا ما لي لا تحركني
هذي المدام ولا هذي الأغاريد

مـاذا لقيت من الدنيا وأعجبها
أني بمـا أنا باكٍ منه محســود

أريت كيف ضاقت الدنيا في عيني شاعرنا ، واسودت أمـام ناظريـه ، فلم ير فيها شيئا يدعو للرضا ، وقد جرَّب كل ملهياتها ومنسـياتها فلـم تفلح في إلهائه أو نسيانه ، إنه يعاني ما لا مزيد عليه ، ومـن عجـائب المفارقات أن الآخرين له حاسدون ، وهم يحسدونه على ما يشكو منـه ويبكي من تبعاته وويلاته !! .

جِـدَّةُ الـمعنـى وتـفـرُّدُه :

وهي سمة أخرى من سمات المحتوى في الشـعر الذاتـي عنـد أبـي الطيب وهي من أبرز ما يميز أداءه الشـعري ، إذ يحـرص فـي كثـير من معاجاته الشعرية أن يستحوذ على إعجاب سامعيه ومحبـي شـعره بالطريف المبتكر ، والجديد غير المسبوق من الاستشفافات والمعاني.

وهذه النوعيـة يصعـب حصرهـا ، ويطـول بنـا القـول لـو حاولنـا استقصاءها ، فحسبنا التدليل عليهـا والإشـارة إلـى ألـوان منهـا ، وسأكتفي بإثبات البيت أو الأبيات التي تعبر عن ذلك :

~ **أزل حسد الحساد عني بكبتهم فأنت الذي صيرتهم لي حسـدأ**
~ **أجزني إذا أنشدت شعرا فإنما بشعري أتاك المادحون مـرددا**

ودع كل صوت غير صوتي فإنمـــا

أنـا الطائر المحكيُّ والآخـر الصدى

~ ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوًّا له ما من صـــداقتـــه بـــــدُّ

~ وأرحـم أقـوامـا مـن الـعـيِّ والـغـبـا

وأعذر في بغضي لأنـهـم ضــــدُّ

~ أذا الجود أعط الناس ما أنت مالك

ولا تعطـــينَّ الناس مـا أنا قائـــل

~ وإنــي لمن قـــوم كأن نفوســــــنـــا

بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

~ ومن عرف الأيام معرفتي بهـــــا

وبالناس روَّى رمحه غير راحـــم

فليـس بمرحوم إذا ظفروا بـــــه

ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

وقد يكون المعنى مطروحاً متداولاً في تجارب الشعراء الســابقين ولكن أبا الطيب يعرضه معرضا جديدا ، ويتناولـه مـن زاويـة تجعلـه يبدو جديدا غيرمسبوق . فقد أكثر الشعراء الشكوى من ابتعاد الأحبة ونزول البين ، وصرم الودّ ، ولكن من منهم صنع صنيع أبي الطيـب في قـولـه :

فيا ليت ما بيني وبين أحبتي

من البعـد ما بيني وبين المصائب !!

إنها بلا ريب العبقرية التي تلهم صاحبها في كل حين الجديد المبتكر والطريف غير المسبوق .

المفارقات المعنوية :

وهي من أبرز ملامح المحتوى الشعري عند أبي الطيب ، وتدل على عمق المعنى ودقة التأمل ، وأعني بها عقد المقارنة بين المتقابلات ، واستحضار الشبيه إلى جانب الشبيه مع وضوح الفرق بينهما وتباينهما ؛ مما يعكس التناقض وعدم المعقولية ، وعبثية الواقع المعاش ، وينتج عن ذلك كله التشكيك في المبدأ القِيَمِيِّ الذي يحكم ذلك الواقع ، ويبرز التناقض ، وعدم المعقولية ، وقد يصحب ذلك التقابل المعنوي تقابلٌ لفظيٌّ كما سنري فتكتمل المفارقة لفظا ومعنى . وهذا النمط كثير في شعر أبي الطيب ومر بنا منه نماذج شتى ، أعود لعرض بعضها في هذا المقام لتتضح للقاريء حقيقتها :

في السياق السابع مر بنا قول أبي الطيب وهو يشكو سوء حاله وبؤس طالعه إذ يقول :

أودُّ من الأيام ما لا تودُّه — وأشكو إليها بيننا وهي جنده

يباعدن حبا يجتمعن ووصله — فكيف بحب يجتمعن وصده

أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه — فما طلبي منها حبيبا ترده

وواضح من الأبيات المفارقات التي وقع صاحبنا تحت تأثيرها ، وعدم استطاعته حيالها فكاكا أو مخرجا . فهو يود شيئا والأيام لا تريد ما يوده ، ويكشو إليها البين وهي صانعته وفاعلته ، وهي تباعد الحبيب الواصل فكيف يطلب إليها أن تقرّب الهاجر النافر ، ومن شأنها ألا

يدوم فيها وصال أو مودة لمتحابين ومطلبه ومناه أن ترد عليه حبيبه الذي ابتعد ...، كلها إذاً مفارقات فيها تناقض يعكس سوء الحال وإدبار السرور ، وتكالب الأعباء والمحزنات . وفي القصيدة عينها نراه يقول :

وأتعب خلق الله من زاد همه

وقصَّر عما تشتهي النفس وجده

والمفارقة واضحة بين زيادة الهم من جانب وعدم تحصيل ما تشتهي النفس من جانب آخر ، ويقول فيها أيضا مصوراً إيثاره ما يتعب ويضني على ما يلذ ويمتع :

يرى جسمه يكسى شفوفا تربُّه

فيختار أن يكسى دروعاً تهدُّه !!

وفي مرثية والدة سيف الدولة نرى الظاهرة ماثلة إذ يقول :

نعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

ونرتبط السوابق مقربات وما ينجين من خبب الليالي

ومر بنا في الاختيار العشرين قوله :

أبديتِ مثل الذي أبديتُ من جزعٍ

ولم تجني الذي أجننتُ من ألم

وقوله منها :

لُمْ الليالي التي أخنت على جدتي

برقَّة الحال واعذرني ولا تلم

ويقول في تلك القصيدة :

رِدِي حياض الردى يا نفس واتَّركي

حياض خوف الردى للشاء والنعم

والملفت للنظر أن المتنبي في هذا البيت أتى أمراً عجباً ، إذ جعل لخوف الردى حياضاً ليحقق المشاكلة التعبيرية من جانب وتتم له المفارقة المعنوية من الجانب الآخر ، فاستعارة الحياض للردى تصوير تداوله الشعراء العرب القدامى كثيراً ، أمَّا أن تكون هناك حياض لخوف الردى فهي صورة لا وجود لها إلا في خيال المتنبي ، وهو مدفوعٌ إليها دفعاً كما أشرت لغرض المشاكلة اللفظية ، وإتمام المفارقة المعنوية .

وفي السياق التاسع والعشرين وهو قصيدة الحمى نرى من تلك الظاهرة ألواناً عديدة مثل قوله :

فإني أستريح بذا وهذا وأتعب بالإناخة والمقام

وقوله :

يحب العاقلون على التصافي وحبُّ الجاهلين على الوسام

وقوله :

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تخب بي المطي ولا أمامي

وملني الفراش وكان جنبي يمل لقاءه في كل عام

قليل عائدي سقم فؤادي كثير حاسدي صعب مرامي

وقوله في وصف إلمام الحمى :

بذلت لها المطارف والحشايــا فعافتها وباتت في عظامــي

يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسـعه بأنــواع السـقام

أراقب وقتها من غير شـــوق مراقبة المشوق المســتهام

وفي السياق الثلاثين وهي القصيدة التــي قالهـا قبيل خروجـه مـن مصر يصف حاله ويرثي صديقه فاتكا مر بنا مـن تلـك النوعيـة قـول أبي الطيب :

من لا تشابهه الأحياء في شيم

أمسى تشابهه الأموات في الرمم

وقوله :

سبحان خالق نفسي كي لذّتها

فيما النفوس تراه غاية الألــــمِ

وقوله :

أتـى الزمان بنـــوه في شبيبته

فســرّهم وأتينـاه علــى الهــــرم

خواص الأسلوب والتّعبير

يدور البحث في هذا القسم من دراسة شعر الوجدان عند أبي الطيب حول ملامح التعبير الشعري وجمالياته ، بعد أن أخذت الخواص الدلالية والمضمونية من اهتمامنا قدراً كبيراً . وسنعرض لهذه الخواص الأسلوبية عبر جزئيات محددة رأينا أن إلقاء الضوء عليها يمكن أن يعطي القاريء انطباعا مقارباً عن طبيعة النزعة الفنية عند أبي الطيب وما يميزها ويرسم أهم ملامحها ، ولن يتسع المجال للإفاضة فحسبنا الإشارات الدالة ، واللمحات الكاشفة .

التعبير الموحي :

وهو من أبرز ما يميز الصياغة الشعرية عند أبي الطيب ، والتعبير الموحي هو ذلك التعبير الذي يحمل دفعة أو " شحنة " عاطفية كبيرة إن ساغ هذا التعبير ، ويكون نابعاً من قوة وقع التجربة الشعورية على وجدان الشاعر ، ومن ثم ينعكس ذلك على عباراته ، فتأتي حارة ملتهبة ، تتوقد وتتوهج ، حتى يصطلي بلهيبها المتلقي فيعايش التجربة وينفعل بها ، ويشاطر الشاعر إحساساته ويتعاطف معه ، ويترتب على ذلك التواصل بين الأديب المرسل ، والمتذوق المتلقي ، فيكون الإعجاب ، ويحدث الأثر الفني المطلوب ، وتكتمل رسالة الأدب ، وتتحق أهدافه ، في ترقية المشاعر ، وتسامي النفوس وبخاصة عندما تكون المعاني التي يعبر عنها الشاعر تعالج أدواء في المجتمع البشري ، كأن تحارب الظلم ، أو تعلي من مكارم الأخلاق ، أو تشيد بقائد عظيم ، أو عالم أريب ، أو تدعو إلى إنصاف مظلوم

... أو غير ذلك مما تستهدفه الآداب الراقية ، والتجارب الأدبية الواعدة . ولا ريب أن أكثر ما عرضنا له من شعر الشخصية عند أبي الطيب يدخل في تلك الأبواب ، إذ إنه لا يعالج شأنا ذاتيا بحتاً، أو يقتصر على عالم الشاعر الخاص ، وإلا لما أوليناه هذا الجهد ، ولا حاز إعجابنا ، ولا لفت نظرنا ، ولكنه يدور في أعمه الأغلب حول معان عليا ، ومثاليات سامية ، ويرسم صورة محببة للشخصية المتأبية ، التي ترفض الوضاعة ، وتتوق لمعالي الخلال ، وسامق الأخلاق ، وتبحث عمن يتصف بصفات النبل ، وتنفر وتحقر من يتصف بخصال اللؤم ، ويتردى في وهاد الدناءة ، وتثور على الأوضاع المعكوسة ، وارتفاع الوضعاء ، واحتلال بعض الأدعياء سدة الحكم ، وصولجان الأمر والنهي ، وما يجره ذلك على الدولة الإسلامية من ضعف وتضعضع وتشتت وتوزع ، فيطمع فيها أعداؤها ، ويصير أمرها إلى وبال !! .

هذا مجمل ما يستشف من شعر الشخصية عند أبي الطيب وما يُستهدَف منه عند إنعام النظر . وهذا ما كان يدفعه إلى أن تعتمل تلك الأوضاع في وجدانه فيجيء تصويره لها قويا مؤثراً . ولنتأمل بعض تلك التعبيرات الموحية لتتضح لنا ملامحها .

مر بنا في السياق الثاني قول أبي الطيب :

فيا ليت ما بيني وبين أحبتي   من البعد ما بيني وبين المصائب

وإيحاؤه بالمعاناة والحسرة وسوء الحظ لا يحتاج إلى أن نبدئ فيه القول ونعيد . وكذا قوله في القصيدة عينها :

إليك فإني لست ممن إذا اتقى

عضاض الأفاعي نام فوق العقارب

وهو يوحي بالضيق ، وافتقاد الحيلة ، وإيثاره نزول الضرر به طالما كان البديل منه عاراً يصمه ، أو نقيصة تحط من قدره .

وفي السياق الثالث نلمس قوة الإيحاء في التساؤل الذي ساقة في المصراع الثاني من قوله :

خليلي إني لا أري غير شاعر

فَلِمْ منهم الدعوى ومِنِّي القصائدُ

وكذا قوله في القصيدة عينها :

أهمُّ بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد

وحيدٌ من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

ومن هذه التعبيرات الموحية في السياق الثامن نرى مثل قوله :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئا تتيمه عينٌ ولا جيد

وإيحاؤه باليأس وفقدان الأمل ماثلٌ تكاد تنطق به العبارة ، وكذا قوله في النص نفسه :

يا ساقييَّ أخمرٌ في كئوسكما أم في كئوسكما همٌّ وتسهيد

وقوله :

أصخرة أنا مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الأغاريد

وفي قصيدة أخرى نرى قول أبي الطيب :

واحر قلباه ممن قلبه شبم .....

وقوله :

ما لي أكتم حبا قد برى جسدي

وتدَّعي حب سيف الدولة الأمـم

وفي رثاء فاتك يقول :

من لا تشابهه الأحياء فـي شيم

أمسى تشابهه الأموات في الرمم !!

ويقول منها :

سبحان خالق نفسي كيف لذَّتُـها

فيمـا النفوس تراه غاية الألـم

البديع المطبـوع :

وهي خاصية تعبيرية واضحة في شعر أبي الطيب ، فصنعته تأتي في الأعم الأغلب طبعية لا تكلف فيها ولا تعَمُّل ، فشغله الشاغل هو المعنى ، والذي يستغرقه حقا هو الفكرة ، ثم تأتي بعد ذلك العبارة خادمة لهذه وتلك ، وقد أشرنا في حديثنا عن المفارقات المعنوية إلى أنها قد ترد مصحوبة بألفاظ متقابلة فتتعمق دلالتها ، ومن أمثلة ذلك :

لك يا منازل في القلوب منازل   أقفرت أنت وهن منك أواهل

والمجانسة واضحة في المصراع الأول ، وكذا المطابقة في المصراع الثاني . ويقول في القصيدة عينها :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

وفي قصيدة أخرى يقول :

ردي حيا ض الردي .... حياض خوف الردى ...

ويقول منها :

أبديت مثل الذي أبديت من جزع

ولم تجني الذي أجننت من ألم

ويقول أيضا :

لُمِ الليالي التي أخنت على جدتي

برقة الحال واعذرني ولا تلُمِ

ويقول في قصيدة أخرى :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه

وقوله منها :

إذا صلتُ لم أترك مصالا لصائل

وإن قلت لم أترك مقالا لقائل

وأشباه هذا في شعر المتنبي أكثر من أن يُحصى فحسبنا الإشارة إليه ، ومعرفة طابعه .

الخيال والصُورة :

ومن خلال الحديث عن الخيال والصورة تتجلى لنا عبقرية أبي الطيب وكنه شاعريته ، وطبيعة فنه ، إذ كان افتتانه في التصوير ، وتحليقه في آفاق الخيال ، وتطويفه بسامع شعره في أجواء ساحرة ، وعوالم لم يسبق لأحد غيره من الشعراء أن حام حولها ، أو اقترب من ودیانها ـ كان صنيعه ذلك مصدر دهشة النقاد واستغرابهم .

وكما وقفنا عند بعض الظواهر من خلال ما سبق لنا استعراضه من مختارات شعره الذاتي سأقف بك ـ أيها القاريء ـ على ألوان من

إبداعات أبي الطيب فيما يتصل بالخيال والصورة .

مرَّ بنا في الاختيار الرابع قوله :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم

فأنت الذي صيَّرتهم لي حُسَّدا

والمعنى في هذا البيت طريف وجيد ولا تجَـوُّز فيـه ، ولكـن عندمـا يريد أبو الطيب أن يبيِّن مبلغ غنائه ، وحاجته إلى التأييد المعنوي فقط يجعل سبيله إلى ذلك التصوير الدقيق والتجسيم للمعاني ، وجعلها تبدو في صورة محسة تُرى وتُشاهد !! وقد جعل ثقة سيف الدولة بـه وحسن رأيه في قدراته وإمكاناته شدًّا لزنده ، وتقوية لعضلات ساعده ليضرب في قوة ، ويبطش بلا هوادة ، ويُخيِّـل فـي المصـراع الثـاني أنه ستكون منه إصابات مصميات لخصومه بمجرد هذا التأييد ، فكأنه والحال هذه قد ضرب بسيف يقطع الرؤوس وهو في غمده ، ويحـوز النصر دو أن يسلّ !! ، ثم يتابع التصوير البارع فيؤكد لسـيف الدولـة أنه رجُلُـه الوفي وساعده الذي يعتمد عليه في الملمـات ، وهـو قميـن بأن يُـخْشـى بأسه ، وينهزم أعداؤه وكائدوه ، فصور نفسـه بالإضافـة للممدوح كالسيف الذي أجيد صنعه ، وأحسن اختيار معدنه وصنعته ، فأتى رائع المنظر إذا تقلده صاحبـه ، ماضيـا بـاتراً عندمـا يُعملـه فـي نحور الأعداء !! ثم يقول بعد ذلك :

وما الدهر إلا من رواة قلائـــــدي

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

أجـــزني إذا أُنشـدِتَ شعراً فـإنـما

بشعري أتاك المادحـون مـــرددا

ودع كل صوت غير صوتي فإنمـا

أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

فهو في البيت الأول منهـا يصور الدهر راويا لشعره الـذي بلـغ الغايـة حسـنا وروعـة ، ثـم تـأمل ــ أيهـا القـاريء ــ هـذا الأسـلوب المؤكـد أسلوب القصر ، إذ يخيل إلينا أن الدهر لا عمل له ، ولا شاغل يشغله إلا أن يروى شعره ، ويردد قلائده ، ويذيعها ليستمتع بجمالها القاصي والداني والقريب والبعيـد !! وفـي البيـت الثـاني منهـا عـرض معنـى بديعا طريفا لم يسبق إليه ، ثـم أكـده فـي البيـت الثـالث بتشـبيه يقـرّب معناه ويؤكد وجاهته ، ولا يدع أمام السـامع سـوى القناعـة والتسـليم بما يطلبه من الأمير ويدعيه من حق ؛ فهذا التشبيه البليغ والبديـع فـي الوقت ذاته يبين أن شـاعرنا هـو مصـدر الإبـداع الأول ، والآخـرون إنما يقلدونه ويترسمون خطاه ، كالطـائر ذي الصـوت المشـجي يغـرّد فيتردد صدى صوته العذب في البقاع التي حوله .

ويقول بعد ذلك في تلك القصيدة :

تركت السُّرَي خلفي لمن قل مالـه

وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا

وفيه المبالغة التي تصور ضخامة ما حصله مـن ممدوحـه مـن الـثراء الذي لم يعد معه بحاجـة إلـى أن يقصـد غـيره أو يرحـل طلبـا لعطـاء سواه ، وما حاجته لذلك وقد استكمل كل مظاهر الترف والنعمة حتـى

اتخذ لخيله ما يشبه النعال من الذهب !! ثم يتابع التصوير لتلك المعاني الفريدة المصورة تصويرا رائعا فيقول :

وقـيَّدتُ نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

وفي هذا البيت الصورة الخيالية " قيدت نفسي" وهي تفيد اللزوم وعدم التحول ، وقوله في ذراك يوحي برفعة الممدوح ومكانته السامقة ، وكأنه قمة يتطاول من يريد النظر إليها ، وقد استطاع الشاعر أن يجد له مكانا على أحد جنباتها ، ولم لا يفعل ؟ هل هناك عاقل يجد أمامه فرصة لأن يعيش في ظلال جواد كريم ولا يسارع باغتنام ذلك والتمسك به !! .

وفي السياق التاسع نرى التجسيم البديع في قوله متحدثا عن الدهر وما يلقاه من شروره ونحوسه :

عدُوِّي كل شيء فيك حتى لخلت الأُكـم موغرة الصدور

فقد مثل الأكم عدوا حاقدا موغر الصدر ، يتربص به المهالك .

وفي الاختيار العاشر يقول :

*** أطاعن خيلا من فوارسها الدهر ***

وهو معنى ألِفْنا أن نراه كثيرا في شعر أبي الطيب بيد أنه هنا ساقه من خلال معرض تصويري معبر ، إذ يخيل إلينا أنه يحارب قوى هائلة ، وكتيبة ضخمة يشنها عليه الدهر بجبروته وسطوته ..

ويقول أيضا في سياق تلك القصيدة :

وأقدمت إقدام الأتـيِّ كأن لي

سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر

ففي المصراع الأول شبه إقدامه في ملاقاة أعدائه وكائديه بالسيل الجارف الذي لا يصمد له شيء ، ثم بالغ — بعْدُ — في تركيب الصورة وتعميقها بأن خيّل أن عدم إبقائه على نفسه ، وركوبه الأخطار يوحي لمن يعاينه أن لهذا الرجل نفساً أخرى أو روحاً بديلة يثق إن أزهقت الأولي أن تقوم الأخرى مقامها ، أو أن النفس الأولى الظاهرة المخاطرة لها ثأر عند الأخرى البديلة المستخفية !! ثم يأتي تصويره العجيب للشخصية المحببة لديه ، الشخصية الطموح التي لا يقف طموحها عند حد ، ولا تقنع بما دون القمم ، بأنها تحدث من حولها ضجيجا ودويا يصم الآذان ، ويلقي الرعب في القلوب ، حتى ليحاول من يحيط بما تحدثه من ضخب ودويٍّ أن يسد أذنيه جميعا فيضع أنامله كلها رغبة في الاحتجاب من ذلك الصوت الهائل !!

وفي السياق الثالث عشر مر بنا قوله :

*** قفا تريا ودقي فهاتا المخايل ***

وهو يصور ما أخبر به صاحبيه من اشتهار أمره وتحقق رفعته بأول الغيث الذي ينزل ثم يتتابع وتعم آثاره وفيوضه . وفي تلك القصيدة يقول :

وما زلت طوداً لا تزول مناكبي

إلى أن بدت للضيم فيَّ زلازل

إذ صور نفسه في حلمه واتزانه بالجبل الأشم في سكونه ورسوخه ، إلا أنه يثور ويصخب إذا تعرض للضيم أو أريد به شيء من ذلك!!.

ومن الخيال المحلق الذي ينم عن شاعرية فياضة قوله في السياق الرابع عشر :

كـأن الحزن مشغوف بقلبي فساعة هجرها يجد الوصالا

والصورة تبدو لأول نظرة كأنها تشبيه ساذج محدد الأطـراف ،إلا أننـا عند إنعام النظر نراها مبنية على صورة مغرقة في الخيال والـتركيب وليست " كأن " فيه للتشبيه وحسب ، ولكنها أفادت التخييل الذي قصـد الشاعر أن يجعله مدخلا لصورته التـي تخيلهـا مـن أن الحـزن محـب لقلبه ، ولا يجد لهواه مجالا إلا عند هجران الحبية له ، فساعة تهجـره يحدث الوصال بين الحزن وبيـن قلبـه ، ويـا لهـا مـن مفارقـة معنويـة وتصويرية عجيبة تلك التي يعبر عنها أبو الطيب في تصويره ذاك !!

ويقول في القصيدة عينها :

على قلق كأن الريح تحتى أوجهها يمينا أو شمالا

وهـي شـبيهة بـالصورة التـي أسلفنا بيانهـا ، وفيهـا أيضـا المطلــع ذو الصورة المعقدة الغريبة وهو قوله :

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زموا لا الجمالا

فانظر كيف خيّل لنا أن بقاءه هو الذي ارتحل لا الأحبـة ، وأنهـم مـا اقتادوا وأمسكوا بأزمة الجمال بل اقتادوا حسن الصبر !!

وفي السياق الحادي والعشرين يقول :

ولو برز الزمانُ إليَّ شخصا لخضَّب شعر مفرقه حُسامي

وفيه مبالغة معبرة قربها وجود حرف الامتناع " لـو " ، ثم يقول بعده :

وما بلغت مشيتها الليالي ولا سارت وفي يدها زمامي

فالأحداث والنوائب لن تبلغ من ضرّه ما تريد ، والليالي لن تُخضعه أو تجعله ينقاد لها ، ويأتمر بأمرها ، ومن ثم صورها بصورة من يحاول

أن يقبض على زمام جواد عصيٍّ ؛ ليقوده ويتحكم فيه ، وشاعرنا لن يقبل ذلك ولن يسمح به ، وفي البيت تمثيل جميل عبر من خلاله أبو الطيب عن معناه ، وعرضه عرضا قويا مقنعا .

وفي السياق الرابع والعشرين يقول :

ودهـر ناسه ناس صـغار   وإن كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم   ولكن معدن الذهب الرغام

أرانب غير أنهـم ملـوكٌ   مفتحـة عيونـهم نيـام

فانظر كيف ساق في البيت الثاني منها المعنى ثم أيَّده بالدليل المقنع المبني على تشبيه متضمن ، فهو لا يُشبه أهل زمنه لمجرد أنه يعيش بينهم ، كما أن موضع الذهب التراب ، وبينهما بون بعيد . ثم شبههم بالأرانب على جهة السخرية ، وهم مع ذلك يتسمون بأسماء الملوك ويتقلدون حلاهم وشاراتهم . ثم يستطرد قائلا :

بأجسام يحر القتل فيها   وما أعداؤها إلا الطعام

إذ يصور ما يعيش فيه أولئك الحكام الأدعياء من ترف وبذخ مفسد وإقبال على شهوات الحس ، ونهمهم للطعام بأن من يفعل ذلك إنما يعادي نفسه ، ويدمر جسمه ، وعدوه هو طعامه الذي أسرف فيه ، وزاده الذي عكف عليه في جشع ودون ارعواء . وفي السياق نفسه يقول :

وخيل لا يخرُّ لها طعينٌ   كأن قنا فوارسها ثمام

يسوق هنا صورة ساخرة لخيول هؤلاء الأدعياء التي لا تستخدم في حروب حقيقية ، وإنما تستخدم للزينة والتباهي بالثراء ، وكأن رماح

فرسانها أعواد نبات ضعيفة لا تصرع ولا تفتك ، والسياق كله سخرية وتشنيع على أولئك الملوك الذي أفسدهم الترف ، وشُغِلوا عن مهامهم الجسام بتوافه الأمور ، وبالمتاع الزائل الذي لا يكسب مجدا ولا يبقي ذكرا !! . وفي ختام القصيدة يسوق أبو الطيب طائفة من الأقوال الحكيمة ، استغرقت عددا من الأبيات ، يستوقفنا منها قوله :

ومن خبر الغواني فالغواني   ضياءٌ في بواطنه ظلام

والبيت على الرغم من تفرده في سياقه ، وافتقاد المبرر المنطقي لوجوده في تلك القصيدة ، سوى أنه نتاج فكر مستبصر ساقه الشاعر ضمن مجموعة من التأملات الحكمية ، فمعناه غير مسبوق ، ويلخص كيد النساء وأحابيلهم ، وحقاً لقد صدق أبو الطيب فالغواني يتميزن بجمال الهيئة ، وحسن الرواء ، إلا أن من يبتلى بالتعلق بهن يذقنه فنون العذاب ، هم إذاً صور مستملحة ، تغري الرجال بأن يحوّموا حولها ، ويقتربوا من حماها ، ثم ما يلبث من يقع في حبائلهن أن تتكشف له حقيقة أولئك الغانيات ، ويصطلي بنيران كيدهن ، وأفانين تمنعهن وهجرهن !!

الفصل الرابع

شعر أبي الطيب وشاعريته
بين سهام النقد
و هالات الإكبار و الإعجاب

لم يثر شاعر من شعرائنا العرب القدامى خصومة نقدية من حوله كالتي أثارها المتنبي ، ولم يتعرض شاعر لسهام النقاد والحساد والمتنقصين مثلما تعرض ، ومن نافلة القول أن نذكر هنا أن طبيعة شخصية المتنبي المتعالية ، وترفعه المعروف على كثيرين من معاصريه ومنافسيه كان سببا أساسيا في اكتساب شاعرنا عداوات شتى وضغائن لا تكاد تحصى .

فإذا نحينا الخصومة بسبب العداء الشخصي والنفور الذي أحاط بمسلك الشاعر رأينا جانبا فنيا دقيقا كان سببا في الانقسام حول شعر المتنبي ، والاضطراب في تقويمه والحكم عليه ، فلم يكن مذهبه الشعري مسايرا للمألوف من شعر سابقيه الذائعي الشهرة كأبي تمام والبحتري ، ولعل مقولة أبي العلاء المعري عن هؤلاء الثلاثة تؤكد أن فكرة الموازنة بينهم كانت مطروحة على الساحة في القرن الخامس الهجري ، فقد حُكِيَ عن أبي العلاء أنه لما سئل عن هؤلاء الشعراء الثلاثة قال : " أبوتمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري " (١) . وعندما يوضع أبو الطيب المتنبي مع مثل هؤلاء الشعراء الذين كان يُشار إليهم بالبنان فلا غرابة أن تختلط المعايير ويختل الميزان ؛ إذ لم يكن المتنبي يعالج الشعر على نحو ما كان السابقون له من الشعراء يعالجونه ، بل اختلف

(١) وفيات الأعيان ٢٣/٦ .

عنهم اختلافا بيّنا من جوانب عديدة من أهمها :

١) أن أبا تمام والبحتري استفرغا جهدهما في مدح الولاة والقادة والخلفاء ، ورحل كل منهما بشعره ، حتى قيل عن البحتري إنه لم ينبغ ولم يشتهر أمره إلا بعد رحلة شاقة اضطر في بدايتها أن يمدح " باعة البصل والباذنجان (١) " !! ، وكان أبو تمام قد تقلب به الدهر ، في بلاد الشام أولا ، ثم في مصر ، وأخيراً لمع نجمه في بغداد حتى توثقت صلته بالمعتصم الخليفة العباسي ، وسجل حروبه وانتصاراته ، كما قصد كثيرين من ولاة الثغور ، ونال عطاياهم .

أما أبو الطيب المتنبي فلم يبذل شعره لكل من لقيه ، بل ترفع وتأبّى على كثيرين ، ولم يكن يقصد بشعره إلا من يقدر شخصه ، ويعجب بأخلاقه ومسلكه ، ويرى فيه خصالا خليقة بأن تمدح وتسجل ، وتذكر وتخلد ، وهذا فارق جوهري وأساسي بين طبيعة بواعث الشعر ومثيرات الشاعرية عند المتنبي وعند المشهورين من سابقيه .

٢) سار أبو تمام والبحتري سيرة الشعراء السابقين من حيث نمط الشعر ومعانيه وأفكاره ، ومن حيث بناء القصيدة ... ، وقد اختلف المتنبي عنهما في تلك الجوانب اختلافا جوهريا : فلم يحرص كما حرصا على المقدمات التقليدية بألوانها ورسومها ، بل تحرر في الأعم الأغلب من تلك التقاليد والرسوم ، واختط لنفسه مذهبا فنيا متميزا ، لم يحد فيه عن القديم عامة ، ولم يضع نفسه في إسار التقاليد المتوارثة للقصيدة ، بل تحرر في مسيرته الشعرية شكلا ومضمونا ... ، فهو من حيث

---

(١) المرجع السابق ٦/٢٢ .

المضمون لم يعرف في شعره النفاق ، أو الممالأة أو إضفاء النعوت على من لا يستحقها ، ولم يحسن حوك المدائح التي تقال لكل ممدوح ، وتنشد في كل محفل ، وتراق في كل بقعة بل تخيَّر من يقصدهم ، وأعطى كلا منهم ما يستحق ، حتى عندما قصد كافورا الإخشيدي في مصر ومدحه أول الأمر كان – في تقديري – صادقا مع نفسه ؛ إذ علق على الممدوح آمالا كباراً ، وكان قد سمع عن حنكته ودهائه ، وعلو همته ، فلما خبر ما عنده ، وعاين سلبياته ومكره هجاه فكان صادقا مع نفسه أيضا في الهجاء ، أما صلته بسيف الدولة ومدائحه له فكانت عن إعزاز وإكبار ، وتقدير وإعجاب ؛ لذا لم يهج سيف الدولة بعد أن فارقه ولا عابه أو انتقصه ، بل قصارى ما صنع أن عاتبه ولامه وحَمَّله مسئولية تصرم ما بينهما من أواصر ، وأنه الذي اضطره إلى أن يرحل عنه وينزل لدى سواه . ويختلف هذا تماما عما حكي عن البحتري من أنه هجا كثيرين ممن سبق له مدحهم ونيل جوائزهم عندما أُبعدوا عن السلطة ، وغضب عليهم الحكام ، ولما سئل عن ذلك أجاب بقوله : " نكون مع الرجل ما كان الله معه فإذا تخلى عنه انقلبنا عليه " !!

٣) إن مدخل الخلط والاضطراب في الحكم على شعر المتنبي يكمن في تلك النظرة الضيقة التي انطلق منها بعض النقاد في تقويم شعره ، إذ تشبث بعضهم بهنات لم يخل منها شعر ، ولا عُصِم منها شاعر ، أو بعض مواضع غموض أو كزازة في التعبير كان من الواجب على من عابوها أن يعرفوا سبب اضطرار الشاعر إليها عندما يصوغ معنى فريدا أو فكرة عميقة لم يسبق لأحد طرحها أو التعبير عنها ، فكانت عبارته

في مثل تلك المواطن تبدو بعيدة الغور ، معتاصة إلى حد ما .

وكما أخطأ أولئك المتحاملون المتصيدون للأخطاء أخطأ فريق آخر من النقاد ممن تعقبوا شعر أبي الطيب إذ اجتزأوا بيتا أو أبياتا من شعره وأخرجوها عن سياقها ، وحكموا عليها حكما جائراً ، وبعضهم جعل شغله الشاغل النظر في المعاني الجزئية لبعض الأبيات محاولا البحث عن مصدرها في أقوال الشعراء أو الحكماء السابقين ، ولم يحاول أكثرهم أن ينظر في شعره جملة أو ينظر إلى قصيدة مكتملة من قصائده وهذا ابن وكيع التنيسي ينحو في نقده لشعر أبي الطيب ذلك المنحى ويعلق على ذلك الدكتور إحسان عباس مبينا فساد ذلك التوجُّه وأنه " كان ضلالا بعيدا في تاريخ النقد الأدبي ، واستهلاكا لجهود كان من الممكن أن تثمر فيما هو أجدى وأجدر ؛ ذلك أن الانهماك في تبيان السرقة قد حجب عن أعين النقاد أموراً هامة ... ، وهل من الممكن أن نبحث من أين جاء المتنبي بقوله :

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدركٌ أو محاربٌ لا ينام

ونحن نرى أن هذا تعبير عن مذهب في الحياة ، مستقر في نفسه ، شاغل للبه ، فهو يملك عليه وجدانه ، ذلك أننا إن ذهبنا نبحث عن مصدر هذا المعنى فكأننا نقول إن نفس الشاعر لا تصلح أن تكون منبعه الطبيعي ، وكأننا نحرم تجربته من أن تتجسد طواعية واختياراً في لون من ألوان التعبير ، دون إلمام بما قاله الآخرون ، وإذا سلمنا بأن اتساع دائرة المشاركة في المعاني قد جعل معاني الشعر الحقيقية ــ كما يزعم ابن وكيع ــ هي التي تداولها الشعراء فيما بينهم في ألوان الصياغة ــ فإن

انصراف الجهد إلى تعقبها هو قصر النقد على البيت والبيتين ، أو على جزئيات بأعيانها ، وهو نزع للمعنى من سياق القصيدة ، وصرف النظر عن قيمته في ذلك السياق ، وإبعاد للنقد عن كل ما من شأنه أن يقرّبه من تصور أو أثر في العمل الشعري الكامل ، وليس عمل الناقد في هذا المقام إلا كعمل من يتناول أوراق الزهرة فيأخذ بنزعها واحدة إثر واحدة ... ولكنه لا يدرك شيئا من جمال الزهرة حال تناسق أوراقها " (١) .

٤) تصادم المتنبي مع العديد من الشعراء والرواة واللغويين وكان أغلب النقاد من صفوف تلك الطوائف ، كما تصادم مع العديد من الولاة وأرباب السلطة ، وكان هو بطبعه ملولا لا يستقر على حال ، وكان بعيد الهمة عظيم الطموح ، فلم يكن يركن إلى الخنوع للمدوحين أو الرضوخ لمشيئتهم وخبر اشتراطه على سيف الدولة في بداية اتصاله به أن ينشده من جلوس يؤكد ذلك ويجليه ، وكان المتنبي يعرف من نفسه ذلك الطبع ويدرك غرابته ، وسوء ما يترتب عليه من خصومة مع الممدوحين ، وفي خبر حكاه البغدادي يقول المتنبي عن نفسه إنني " ملَقًّى من هؤلاء الملوك : أقصد الواحد بعد الواحد ، وأملّكهم شيئاً يبقى ببقاء النّيرين ، ويعطونني عرضاً فانيا ، ولي ضجرات واختيارات فيعوقونني عن مرادي ، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه !! " (٢)

لم يكن غريبا على أبي الطيب أن يلقى من تجريح بعض النقاد وتحاملهم ما لقي ، وما اشتهر شاعر أو أديب بمثل شهرته أو قريب منها إلا ناله من ذوي السلطان ما نال المتنبي أو يزيد ؛ لأن هذه الشخصيات

---

(١) تاريخ النقد الأدبي /٢٠١ـ٢٠٢ . (٢) خزانة الأدب ٢ /٢٥٣

الفذة ، والعقول النوابغ لم تلق من أهل عصرها احتراما أو تقديراً بسبب لغيرة والحسد ، وحال هؤلاء النوابغ المميزون أن يحيوا " على صفيح ساخن " ـ إن سوّغنا التعبير ـ وهم يدفعون ضريبة النبوغ والشهرة من أعراضهم وإبداعهم ثمنا فادحا !! .

لقد سحب المتنبي البساط من تحت أقدام الشعراء والنقاد على السواء إذ لم يكن شاعراً من أوساط الشعراء ، أو مادحا مستجديا كما كان شأن الأم الأغلب من معاصريه وأيضا من كثير من سابقيه ومن أتوا بعده ، ممن أراقوا ماء وجوههم بأبواب السلاطين ، كان المتنبي شيئا مختلفا أبعد الاختلاف ، كان رجلا يشار إليه بالبنان ، ولا يقل شأنه عن كثيرين من أرباب السلطان في عصر ، إن لم يفقهم شهرة ونباهة وارتفاع قدر ، وكان من هذا المنطلق قمينا أن يوضع في موضعه الصحيح ، ويُنظَر إليه ويدرس نتاجه وفكره كما يدرس فكر الزعماء والثوار والمصلحين .

لم يسلم أبو الطيب من مكائد السياسة في عصره ، وكان بحكم طبيعته وتطلعاته خائضا غمارها معانيا أمواجها وتياراتها ، ثم لم يلبث أن جرفته تساراتها وأعاصيرها ، وكان عليه أن يختط لنفسه مساراً يقوده إلى شاطيء آمن ، بيد إنه أسرف في الاغترار بنفسه ، فأوردها موارد التهلكة ، فكانت نهايته مدويّة كما كانت حياته محاطة بالصخب والدويّ ، ولقد صدق مع نفسه أولا وآخرا فهو القائل في النهج الذي يرضاه الأباة من أمثاله لأنفسهم :

وتركك في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وقد سبّب المتنبي للنقد الأدبي أزمة ، على حد تعبير الدكتور

إحسان عباس (١) " وظل يسيطر على تصور النقاد : إما وحده وإما مقترنا بأبي تمام والبحتري ، وإما مقترنا بقدامى الفحول من جاهليين وإسلاميين ....، وحين نقول إن المتنبي سر تلك الأزمة لا نعني أنه صنعها عامدا . ولكنها حدثت بسببه من ناحيتين أولاهما : أنه لم يأت بعده من يخلفه في وقفته الأدبية الشاهرة ... ، وأما الناحية الثانية : فهي أن ما حققه المتنبي كان خطير النتائج ، يشبه الورطة المنطقية لثلاثة أمور :

= عودته إلى النزعة البدوية في الروح ، وإلى البداوة في الأسلوب ، وكانت هذه إحدى طرقه لليقظة العربية .

= تمثيل أقصى ما بلغه عصره من عمق فكري تجريبي أو فلسفي تجريدي .

= محو الفارق بين الشعر والخطابة بتساوٍ عجيب دون تغليب أحدهما على الآخر . وتتفاوت هذه العناصر في ظهورها في قصائده ، ولكنك حين تقرأ مثل قوله يستعطف سيف الدولة على بني كلاب تحسُّ بها مجتمعة في تساندٍ لا يختلُّ :

ترفق أيها المولى عليهم ... فإن الرفق بالجاني عتاب
وكمْ ذنبٍ مولِّده دلال ... وكم بُعدٍ مولِّده اقتراب
وجُرمٍ جرَّه سفهاء قومٍ ... وحلَّ بغير جارمه العذاب

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب / ٣٦٢، ٣٦٣ .

بدأت الخصومة النقدية حول شعر أبي الطيب وشاعريته منذ وقت مبكر ؛ إذ عُرفت في حياته في النصف الأول من القرن الرابع الهجري من مخالطيه ومعايشيه ، وامتدت بقية القرن الرابع وطوال القرن الخامس ، وظل الرجل موضع اهتمام النقاد حتى القرن السابع الهجري ... ، ومن أبرز خصومه ممن اتصلت حياته منهم بسبب أبو فراس الحمداني الأمير والشاعر المشهور وابن عم سيف الدولة ، وكانت خصومته له بدافع المنافسة وحسده المتنبي على ما بلغه لدى سيف الدولة من حظوة ، ومنهم أيضاً ابن سكّرة الهاشمي ، وابن حجاج البغدادي وهما من صنائع الوزير المهلبي وقد تناولا المتنبي بالهجاء والتجريح بإيعاز من المهلبي ، وقد اشتبك المتنبي في المهاجاة مع ابن سكرة ، وأهمل أمر ابن حجاج اطّراحا واحتقارا ، ومنهم ابن لكنك البصري صاحب مقولة أن المتنبي كان ابن سقّاء بالكوفة ، ومنهم الصاحب بن عباد الذي وضع رسالة عنوانها " الكشف عن مساويء المتنبي " ، ومنهم ابن وكيع التنيسي ، الذي وضع كتابا سماه " المنصف " تناول فيه سرقات المتنبي ومنهم السيد المرتضي ، وأبو سعيد العميدي صاحب ديوان الإنشاء بمصر وقت نزول المتنبي بها ، وقد وضع رسالة في " الإبانة عن سرقات المتنبي " ، ومن أدباء العصر الحديث الشيخ سيد المرصفي ، وكان يؤكد لتلاميذه كما يحكي " طه حسين " (١) أن " مسلم بن الوليد وحبيب بن أوس وأبا الطيب المتنبي وأبا العلاء المعري قوم تكلفوا البديع ، وأخضعوا المعنى للفظ ، وتعمقوا في درس

---

(١) مقدمة ذكرى أبي العلاء . صفحة / ب .

مذاهب الفلاسفة ولم يخل كلامهم من يونانية تباعد بينهم وبين مذاهب العرب البادين ، فدرسهم خطل ، والعناية بهم حنق والإعراض عنهم إلى الشعراء المطبوعين إصابةٌ وتوفيقٌ !! " .

وممن اعترف له بالفضل : أبو العباس النامي أحد شعراء سيف الدولة قبل اتصال المتنبي به ، ومع ذلك كان مقدرا له عارفا فضله ، روي عنه أنه قال : كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي ، وكنت أشتهي أن أكون سبقته إلى معنيين قالهما ، ما سُبِق إليهما . أحدهما قوله :

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله :

في جحفل ستر العيون غباره فكأنَّما يبصرن بالآذان

ومنهم أيضا أبو الفتح عثمان بن جِنِّي عالم اللغة المشهور ، وصاحب كتاب الخصائص ، وشارح شعر أبي الطيب ومفسر غريبه ومشكله ، وكان المتنبي إذا استغلق معنى من معاني شعره وسئل عنه يقول : اسألوا الشارح ، يعني أبا الفتح ، ومنهم القاضي الجرجاني صاحب الوساطة ، ومنهم ابن العميد ، وممن جاء بعد عصر أبي الطيب ابن رشيق القيرواني ، وأبو منصور الثعالبي ، وأبو العلاء المعري ، الذي اختار جانبا من شعر المتنبي سماه " معجز أحمد " ، وشرح ديوانه شرحا سماه " اللامع العزيزي " ، ومنهم الواحدي أحد شراح ديوان المتنبي ، وكذا الخطيب التبريزي وهو ممن شرح ديوانه كذلك ، وياقوت

الحموي ، ومجد الدين العكبري صاحب التبيان في شرح الديوان ، وهو من أشهر شراح ديوانه ، وشرحه متداول لاختصاره وقرب تناوله ، وابن الأثير صاحب المثل السائر ، وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، والبديعي الدمشقي صاحب " الصبح المنبي " .

ومن أنصار أبي الطيب ومحبيه من المحدثين رب السيف والقلم الشاعر محمود سامي البارودي ، والسيد توفيق البكري ، واليازجيان ، وأمير الشعراء أحمد شوقي ... وغير هؤلاء كثير سنستشهد ببعض أقوالهم وآرائهم في شعر المتنبي وشاعريته بعد قليل .

* * *

كان أبرز ما وجّه لشعر المتنبي من نقد لدى القدماء عائدا إلى غرابة توجهه الشعري ، ومباينته لمألوف ما درج عليه الشعراء الذين سبقوه ، وأعان هو على نفسه بتعاليه وترفعه فخاصمه قومٌ ظلما ، ووجهوا إليه سهام التجريح والتحقير ، وكان حالهم معه كما قيل :

وعين الرضا عن كل عيب غضيضة

ولكنَّ عين السخط تبدي المساويا

فحالت تلك الضغائن والإحن دون الإنصاف ، ووضعت على العيون غلالة كثيفة حجبت عنها الرؤية ، وطبعتآراء العائبين بطابع التكلف ، وباعدتهم من الموضوعية ، بيد أن المنصفين من القدامى قد توسطوا في الأمر ، وعدلوا في الحكم ، وذكروا ما لأبي الطيب وما عليه ، ومن أبرز هؤلاء القاضي الجرجاني صاحب الوساطة وأول من أنصف المتنبي ووقف وقفة دقيقة وموضوعية في وجه المتحاملين عليه

ومنهم كذلك أبو منصور الثعالبي صاحب اليتيمة الذي عرض مآخذ العلماء عليه ، وبسط القول في محاسن شعره ، ويطول بنا القول ، ويضيق المقام عن عرض حجج هؤلاء وهؤلاء ، فحسبنا في هذه الصفحات استعراض مقتطفات من نتاج المعركة النقدية حول شعر أبي الطيب وشاعريته ، والوقوف على تقويم النقاد لشعره عامة ووجدانياته على جهة الخصوص بحسبانها تمثل تياراً رئيساً ساريا في أشعاره كلها إذ كان المتنبي حريصا على أن يصطحب سامع شعره ، ومتذوق فنه إلى أفياء نفسه ودروب عالمه الخاص ، يبوح له بأسراره ، ويكاشفه بأعمق ما يحس ويرجو ، ويأمل ويتمنى ، وكثيراً ما كان ضيفه إلى هذا العالم الخاص يشهد صخب المضيف وهياجه ، وثورته وسخطه ، فيرثي له ويرق لحاله ، ومن ثم يكون التواصل الروحي ، ويتعمق الإكبار والإعجاب !! .

= وممن أنصفه ووقف منه موقفاً محايداً الثعالبي صاحب اليتيمة ؛ إذ أبرز محاسنه وميزاته ، وحكى ما وُجّه له ولشعره من انتقادات ، وكان منصفا غير متحامل ولا مضطغن ، يقول ملخصا ميزاته :

" هو نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر ، ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب إليه ، المشهور به ، إذ هو الذي جذب بضبعه ، ورفع من قدره ... ، وألقى عليه شعاع سعادته حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر ، وسافر كلامه في البدو والحضر ، وكادت الليالي تنشده والأيام تحفظه ... ، وقد أُلِّفت الكتب في تفسير (شعره) ، وحل مشكله وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه ، وتكلم

الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه ... ، وتفرقوا فرقا في مدحه والقدح فيه ... والتعصب له وعليه . وذلك أول دليل على وفور فضله ...، وتفرده عن أهل زمانه ، ... ، فالكامل من عُدَّت سقطاته ، والسعيد من حُسبت هفواته :

* ومازالت الأملاك تُهجَى وتمدح *

وأنا مورد في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه في الشعر وطرائقه ، وتفصيل الكلام في نقد شعره، والتنبيه على عيونه وعيوبه ، والإشارة إلى غرره وعرره ، وترتيب المختار من قلائده وبدائعه ... ، ويتميز هذا الباب به عن سائر أبواب الكتاب كتميزه عن أصحابها بعلو الشأن في شعر الزمان ، والقبول التام عند أكثر الخاص والعام " (١)

ثم أفاض الثعالبي بعد ذلك في الحديث عن أخذ الأدباء معاني شعره وحلها في كتاباتهم ، وعن سرقات الشعراء منه ، وعن سرقاته من غيره وعن معايب شعره ومقابحه ... ، ثم تحدث عن محاسن شعره ، وحسن مطالعه ، وحسن الخروج والتخلص ، والنسيب بالأعرابيات ، وحسن التشبيه ، والمدح الموجه ... ، ومخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة الصديق ، وعن حسن التقسيم ، وإرسال المثل ، والإيجاع في الهجاء ، وعن إبراز المعاني اللطيفة في معارض الألفاظ الرشيقة ... ، وهو في هذه الجوانب كلها يورد الشواهد ، ويسرد أقوال الرواة والنقاد ،

---

(١) يتيمة الدهر ١/١١٠ ، ١١١ .

ويناقش كلامهم ، ويعلق تعليقات قوية تدل على بصر بالشعر ، ومعرفة واعية بمرامي كلام العرب ، ومألوف بيانهم ، وكان الثعالبي موضوعيا منصفا في أكثر ما أورد ، ملتزما الجادة ، بعيدا عن الغلو في المدح أو القدح .

= وممن أنصف المتنبي وأبرز ميزات شعره ابن رشيق القيرواني صاحب العمدة الذي يقول (١) : " وليس من المولدين أشهر اسما من الحسن أبي نواس ، ثم حبيب والبحتري ... ، ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس ... ، وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع " .

ويقول عنه ابن الأثير في المثل السائر(٢) " ولمّا تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التي ما ضلّ صاحبها وما غوى ــ وجدته أقساما خمسة : خُمْسٌ في الغاية التي انفرد بها دون غيره ، وخمس من جيد الشعر يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها، وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها ، فهي التي ألبسته لباس الملام ، وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوام " لقد كان ظهور أبي الطيب " مصدر حيرة كبيرة للذوق والنقد معا ،

---

(١) العمدة ١/ ٦٤ .   (٢) ٢/٤٧١ .

فها هو (ذا) شاعر يجمع بين القديم والحديث ويجيء بالجزالة والقوة والبيان على خير ما كان يجيء به القدماء ، ويغوص على معاني الحياة الإنسانية غوصاً بعيداً ، ويضمن شعره فلسفة حياة وثقافة تنتمي إلى القرن الرابع ، كذبت المقاييس ! أين ما كانوا يتحدثون به من ميل إلى أبي تمام أو نزوع إلى البحتري ؟ إنهم أمام طريقة جديدة قديمة ، لا ينفع معها ما اعتمدوه من مقاييس (عمود الشعر) " (١)

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب /٢٥٢ .

موقف المحدثين من شعره وشاعريته :

وكما أحدث أبو الطيب معركة نقدية صاخبة حول شعره وشاعريته في عصره وبعد عصره بعدة قرون عاد يستهوي النقاد بالدرس والتمحيص في العصر الحديث ؛ إذ بدأت الدراسات من حوله تترى وتتعمق وعلى الأخص في منتصف ثلاثينات هذا القرن عنما احتُفل بذكراه بعد ألف عام من وفاته ، " وما فتنة العرب بأبي الطيب ألف عام إلاّ لما علموا من أمر نبوغه ، وما أحسوا من سحر إبداعه . قال الذهبي : ليس في العالم أشعر منه ، وأما مثله فقليل !!" (١)

وقد شارك في إحياء تلك الذكرى نخبة من كبار النقاد وأصحاب الأقلام في مقدمتهم كل من : الدكتور عبد الوهاب عزام الذي وضع كتابا بعنوان " ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام " ، والأستاذ محمود شاكر بكتابه " المتنبي ، والدكتور طه حسين في كتاب " مع المتنبي " ، ووضع كتاب وباحثون أقل شهرة مؤلفات ، وسطروا مقالات شاركوا بها في إبراز ميزات شعر المتنبي ، وخصوصيات فنه وتميزه .

وهكذا قُدّر لشاعرنا أن يظل ملء الأسماع والأبصار ، وأن تشتجر الأقلام حوله من جديد ، وإن يكن محبوه ومقدو شعره وشاعريته يفوقون عائبيه ؛ لاختفاء باعث الحسد والمنافسة ، والاطضغان على الشاعر من أهل عصره لترفعه وتعاليه .

---

(١) مع أبي الطيب /١٣ .

ولا يزال شعر أبي الطيب حتى وقتنا الحاضر يوحي للدارسين والنقاد والذواقين بالمزيد والمزيد من القيم الفنية التي تحفزهم لتسجيلها وإبرازها ، ولفت الأنظار إليها ، وهكذا دائما الفن الأصيل ، والتجارب الإنسانية الصادقة لا يخفت عطاؤها ، ولا يخمد بريقها بل يزداد على مر السنين أَلَقاً ، وعلى امتداد الأحقاب سحرا وتأثيراً .

ويجمل بنا في هذا المقام أن نسجل أبرز ما علق به نقادنا وكتابنا في العصر الحديث على شعر أبي الطيب وشاعريته ، من منطلق مقاييس النقد الحديث ، وكيف وضعوا هذا الشاعر العظيم موضعه اللائق به بين أعلام الشعراء العرب القدامى منهم والمحدثين ، وإلام انتهت بهم الموازنة بينه وبين كبار الشعراء ومشاهيرهم ، وسأكتفي باقتباس فقرات موجزة مما قالوه ؛ حتى لا تتفرق بنا السبل ، ويتشعب الحديث .

لعل من أبرز من وضع يده على بعض أسرار شاعرية أبي الطيب وفَكَّ طلسماتها من المحدثين الدكتور عبد الوهاب عزام . ولنتأمل في هذا المقام ما سطره في معرض بيان أسباب تميز معالجات أبي الطيب الشعرية بقوله (١) : " لا ريب أن أبا الطيب يمتاز عن الشعراء بموضوعات أكثر الكلام فيها ، وافتن في تصوير معانيها حتى عدت من موضوعات شعره على حين يلمُّ بها الشعراء الآخرون إلماما لا يستوعبون إستيعابه ، ولا يكلفون كلفه ، ولا يتعمقون تعمقه . هذه الموضوعات ترجع إلى الإباء والترفع عن الدنايا والطموح إلى المعالي

---

(١) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام /٤٠٧ وما بعدها .

والإقدام ، ويجمعها " عِظَم النفس " ، وإلى الحكمة الاجتماعية والأخلاقية أولع بهذه الموضوعات فكررها في قضائد المدح ، وخص بها قصائد منها :

كم قتيل كما قتلت شهيد لبياض الطلى وورد الخدود

قفا تريا ودقي فهاتا المخايل ولا تخشيا خلفاً لما أنا قائل

... ثم أشار ذكر مطالع اثنتا عشرة قصيدة ، ستأتي كلها ضمن ما تناولناه في دراستنا هذه من سياقات وجدانيات أبي الطيب ثم عقب الأستاذ عزام بقوله :

" هذه اثنتا عشرة قصيدة لم يمدح بها ولكن نظمها لنفث ما في صدره ، والإعراب عن عواطفه وآرائه ، وقد ضُمِّنت من سموّ النفس وعلوّ الهمة ، والحكمة ما لا أعرفه لشاعر في الجاهلية والإسلام " .

ثم يقول معقبا على هذا اللون من شعر المتنبي :

" ليس لأبي الطيب ضريب في هذا الضرب من الشعر ، وإني أسأل من يرتاب في هذا : إذا أردت أن تربي الشباب العربي على الأخلاق التي تمكنهم من الثبات على زلازل هذا العصر ، واجتهدت أن ترويهم شعر شاعر يتخذونه أسوة فهل تجد بين امريء القيس وأحمد شوقي من يسامي أبا الطيب في هذا الشأن ؟ " (١)

ويقول في موضع ثالث : " والشاعر (يقصد المتنبي) لاعتداده بنفسه ، واقتداره على البيان صاغ كثيراً من أقواله صيغة عامة ، وأجراه مجرى

---

(١) المرجع السابق /٤١٠

الأمثـال ، فكثر فـي شـعره المثـل ومـا يشـبهه مـن القواعـد الخلقيـة والاجتماعية كقوله :

مصائب قوم عند قوم فوائـد ــ وربمـا صحت الأجسـام بـالعلل ــ وخير جليس في الزمان كتاب ــ وتأبى الطباع على الناقل ــ ولكن طبـع النفس للنفس قائد ــ إذا عظم المطلوب قلَّ المساعد ــ أنا الغريق فما خوفي من البلل ــ ليس التكحل في العينين كالكحل ... ، وقد ألف الصاحب بن عباد رسالة لفخر الدولة بن بويه جمع فيها من شعر أبي الطيب زها ٣٧٠ بيتاً تجري مجـرى الأمثـال وقـال فـي مقدمتهـا : " وهـذا الشـاعر مـع تميزه وبراعته وتبريزه في صناعته له في الأمثال خصوصا مذهـب يسبق بـه أمثاله " . ما اقتصر أبو الطيب على أن ينطق بالحكمة بل صاغها أمثـالا فشاعت وصارت ثروة في الأدب . (١)

" وأهم ما يميز المتنبي ــ كمـا يقـرر الدكتـور عبـد المجيـد ديـاب ــ بروز شخصيته في شعره ، وصدق إيمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسـه ، وصحة تعبيره عن طبائع النفـس ، وشـواغل النـاس ، وأهـواء القلـوب ، وحقائق الوجود ، وأغراض الحياه ؛ لذلك كان شعره في كل عصر مردًّا لكل كاتب ، ، ومثلا لكل خاطب ، وهو من هؤلاء النوادر الذين يعرفون بالبيت الواحد من أشعارهم ، بل بالشطر المنفرد من البيت ؛ لأنه عُرف بأبياته التي سارت مسير الأمثال " (٢) . " على أن المتنبي الحقيقي : إنما هو تلك الصورة التي نرسمها من قراءة حكمه وفهـم علاقتهـا بالزمـان .

---

(١) ذكرى أبي الطيب /٤١٦ .

(٢) أبو الطيب المتنبي لعبد المجيد دياب / ١٨٢ .

أدرك الناس صحتها فتداولتها ألسن الزمان في كل مكان ، وأصبحت على مرور الأيام أمثالا يرددها الخاص والعام .... ، والمتنبي في مقدمة شعراء الحكم والأمثال ؛ إذ لا تخلو قصيدة له من حكمة ومثل بل حكم وأمثال ... وهي على وفرتها أقوى صياغة ، وأقرب في دلالتها إلى قلوب الأمم العربية وهواها ؛ لأن حكمه توافق مشاعرهم ، إذ توحي بالقوة ، واسترجاع الحقوق ، ودفع المظالم ، ولا ترى في هذا السبيل ملاينة ولا مسالمة ، ولا تجنح إلى مهادنة وصفح ، تدعو إلى محاربة الطغاة ، والفتك بالأعداء ، وطلب الحق بالقنا ، وإيثار العز في الجحيم على الذل جنان الخلد ، وتوسيد الأمور لأهلها ، ومحاربة الدخلاء ، ووقف الأجانب عند حدهم ، وإنزال الناس منازلهم .. " (١) "

وقد لاحظ الدكتور عبد المجيد دياب أن شعر المتنبي في وصف حروب سيف الدولة وكذا شعره في الرثاء والشكوى أرقى من شعره في المدح وشعره في السرور عامة ، وتساءل عن سبب ذلك واقترح لجواب فقال : " لعل نوع الشعر الذي يشتد اتصاله بنفس المتنبي يجود ويغزر ، وقد كان المتنبي فارسا تعجبه الفروسية والبطولة ، فإذا قال في ذلك فإنه يستخرج القول من أعماق قلبه كما قلنا . وكانت نفسه حزينة ؛ لأنه لم ينل المجد الذي يصبو إليه فحزن جزنا عميقا على الميت ، وهو في حقيقة أمره يحزن على ليلاه ، أما السرور وأما المديح في غير البطولة فصياغته لا تلمس إلا السطح الظاهري من قلبه " (٢)

ومن أمتع ما سطره المحدثون عن شعر المتنبي وشاعريته ما كتبه

---

(١) المرجع السابق / ١٨٥ . ١٨٦ (٢) المرجع السابق / ١١١

الأستاذ عباس محمود العقاد في مجموعة مقالات نشرت في البلاغ في حقبة مبكرة من حياته ثم جمعت بعد ذلك في كتاب مطالعات في الكتب والحياة فكانت من أدق وأقوى وأصدق ما كتب عن شاعرنا العظيم في العصر الحديث ، وبدا فيها العقاد عملاقا كالعهد به دائما فيما يكتب ويحلل ويقرر ويستنتج !! . ها هو ذا يتأمل ظاهرة التصغير ويرصد ولوع المتنبي بها فيقول (١) :

" كان المتنبي يستعظم نفسه على الشعر أو على التكسب بالمدائح والزلفى من الملوك والأمراء ، وكان يرى أنه خُلِق لما هو أجلُّ وأرفع من ذلك وهو المُلك والقيادة ، فلا يبالي أن يطول على ذوي السلطان بهذا الاعتقاد في قصائده التي يمدحهم بها ، كما قال في تهنئة كافور بدار بناها فوضع نفسه موضع النِّدّ الذي يهنئه تهنئة النظير للنظير :

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يَدَّنِي من البعداء

ثم كشف هذا المطلع ووضحه في ختام القصيدة فقال :

وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يرى من الشعراء

ويتساءل العقاد : لماذا ظن المتنبي بنفسه ذلك الظن ؟؟ ويجيب : إن الرجل كان له نصيب من العظمة التي يصبو إليها ، كان يشعر شعور عظماء الأعمال ، ويقيس الأمور بمقاييسهم ، ويُلْزِم نفسه الجِدَّ الذي يلتزمونه في حركاتهم وسكناتهم ، وتساوره المطامع التي تساورهم " (٢)

---

(١) مطالعات في الكتب والحياة /١٢٤ . (٢) المرجع السابق /١٢٦

وعن اشتهار المتنبي وأسبابه يقول العقاد : " رُزِقَ المتنبي من الشهرة واشتغال الناس بأمره حظًا لم يرزقه أحدٌ قبله ولا بعده من شعراء العرب ، رُزِقَهُ في حياته وبعد مماته ؛ فأما في حياته فقد سار شعره كل مسير ، ورُويت قصائده في كل أرض فيها لافظ بالعربية ، واشتدَّ التعصب له والتعصب عليه بين المتأدبين وغيرهم ، حتى بلغ الأمر بالفريقين حد الهوس والجنون " . وقد صارت شهرة المتنبي كما يذكر العقاد(١) كالقَدَر الذي لا يغالب ، ولا تنجح فيه حيلة غير التسليم على رغمٍ ، والصبر على مضض ، وقد انبسطت له دولة في الأدب لا يكون الذي يحاول الخروج منها إلا كمن يحاول الخروج من أرض ربه وسمائه !! ... ، ولعمري إنه لَفَتْحٌ في الأدب لم يسمع بمثله في فتوح شعرائنا العرب من أقدمين ومحدثين ، ومُلْكٌ شمل رقعة العربية في عهدٍ تنازع فيه هذه الرقعة عشرات الولاة والمالكين !! ... ، أما بعد الممات فقد ذهب المختلَف فيه وبقي الخلاف على أشدُّه ، أُغرم الناس بديوان المتنبي فتناولوه حفظا ونقلا وأمعنوا فيه تقريظا ونقدا ... ، حتى صار للمتنبي وحده أدبٌ خاص قائم بنفسه في ديوان آداب العرب ، وكُتِب عنه ما يوازي كل ما كُتب عن شعرائهم في عصر كامل من عصورهم " .

ويتساءل العقاد عن سر هذا الحظ العظيم من الشهرة الذي لقيه المتنبي ويؤكد أن مرجع تلك الشهرة الواسعة هو عظمة المتنبي الشعرية التي لا شك فيها ولا مراء ، ثم يذكر سببا آخر في تلك الشهرة وهو

---

(١) المرجع /١٣٢

الحسد الذي حمله كثيرون للمتنبي والحسد " هو ناشر كل فضيلة المتنبـي، ومفشي ما في قريحته من طيب ، بما أشعل فيها من نـار . هـو المحنـة التي عرفها المتنبي فشكاها مرَّ الشكوى ، والنعمة التي لـم يعرفهـا ففاتـه أن يشكرها ويشيد بفضلها !! " (١) ويستدل على ذلـك بـأن المتنبـي سـمَّى ابنه محسداً وما هو مـن الأسـماء المطروقـة ولا المحبوبـة ، فيدلنـا ذلـك على ما لقيه الرجل من محنة الحسد ونكاية المنافسين .

وتحت عنوان (شهرة المتنبي ـ حدُّ الشاعر العظيم) يقول العقاد : " كان المتنبي شاعراً من شعراء العرب العظـام ، وحـدُّ الشـاعر العظيـم عندي هو أن تتجلى في شعره صورة كاملة للطبيعـة بجمالهـا وجلالهـا ، وعلانيتها وأسرارها ، أو أن يستخلص من مجموعة كلامه فلسفة للحيـاة ، ومذهب في حقائقها وفروضها ، أيًا كـان المذهـب ، وأيًـا كـانت الغايـة الملحوظة فيه . فإذا جمع الشاعر بين الأمرين فذلك هو الشاعر الأعظـم ثم يستطرد العقاد فيبين أن المتنبي لم يكن ممن شُـغِفـوا بمحاسن الطبيعة وأسرارها ولكنه كان ممن يقبلون بجملتهم علـى جهـاد الحيـاة فـي وسـط المعمعة ، فيحصون عليها هزائمها وانتصاراتها ، ويكتبون لهـا حسـناتها وسيئاتها (٢) .

وأخيراً يخصص العقاد مقالا يتحدث فيه عن فـن المتنبـي فيقـول مـا ملخصـه (٣) : " أمـا إن كـان الفـن هـو صقـل العبـارة وتوشـية الكـلام ، ولطافة المدخل ، وحسن الاحتيال ، ودقة المذهب .... ــ فليس المتنبـي من رجال الفن في مرتبة تذكر ، وليس لــه مـن حذق الصناعـة نصيـبٌ

---

(١) المطالعات /١٣٣ . (٢) المرجع السابق / ١٤١ (٣) المرجع نفسه /١٧٩

يـعدُّ ويُؤثـر . وأمـا إن كان الفن يتسع لـمـا تتسع له الحياة مـن اختـلاف العبارات والإشارات ، وتنوع الصيغ واللـهـجـات ، ويحـوي مـن قوالـب النظم مـا تحويه النفوس الشاعرة من أفـانين الشـعور ، ومشـارب الـذوق فليدخل المتنبي عالم الـفـنّ في مقدمة الداخلين ، وليكـنْ ثَـمَّ علـى طليعـة أمثاله من الصـانعين والفنانين : يدخـل من بـاب المتانة والصلابة ، لا من باب الجمال والزينة !! "

* * *

وممن كانت له في شعر أبي الطيب نظرات فاحصة جديـرة بالتنويـه الأستاذ محمـد كمـال حلمـي الـذي وضـع عـن المتنبـي كتابـا نشـر سـنة ١٩٢١م . وبعد أن ساق المؤلف آراء خصوم المتنبي وأنصاره ذكر أن ذلك الشاعر العظيم دعا محبي شعره إلى أن ينقدوه ، ويتأملوا روعة فنه عندما قال مخاطبا أحد ممدوحيه :

إنـي نثرت عليك درًّا فانـتـقـد   كـثـر الـمـقـلَّـد فاحذر التقليدا !!

ثم طرح تساؤلا جاء فيه : هل شعره حـيٌّ في جملته ؟؟ وأجاب قائلا : " قد يجوز أن يكون في شعر أحد الشعراء بعض العيوب ، ومع ذلك فـإن هذا الشعر يعيش في جملته ، وتتناقله الأفواه ، ويسير في الناس . وقلمـا يخلو شعر من عيب لفظي أو معنوي أو لغوي أو بياني أو عروضـي أو غير ذلك . وقد ترى بعض الشـعر سـليما مـن العيـوب بريئـاً مـن العلـل ولكن ليس له من حظ الوجـود إلا أنـه مدفـونٌ فـي بطـن الكتـب !! فهـلا تسائل نفسك أمام هذا الفرض الغريب : كيف يعيش علـيـل ويمـوت سـليم ؟! فهل من سبب لذلك ؟ نعم . هنالك سبب لا يصعب الاهتداء إليه بقليل

من التفكير . إن العلة لا تقتل الإنسان ، فقد يعيش العليل رغم أدوائه ما دامت فيه حياة ، وما دامت الروح متصلة ببدنه ، سارية في أجزائه . فإذا ما أزهقت تلك الروح وفارقت جسم الإنسان لم تغن عنها سلامة الأعضاء ، ولا قوة البدن . هذا ما يقال عن الإنسان وهو نفس ما يقال عن الشعر أيضا ، فالعنصر الأول الواجب توافره في الشعر إنما هو الروح ، ولا حياة للشعر بدونها . فإذا ثبت أن الشعر حيٌّ سار في الناس، وبقي فيهم على الرغم من تشوهاته وعاهاته ، حتى ولو كان يمشي مشية العرج ، وأما إذا ولد الشعر ميتا فلا تحاول استبقاءه ، وقلْ عليه العفاء !! . تنظر لبعض الشعر فكأنه خلاء قفر ، أو طلل بال ، أو منزل خرب ، لا تشعر فيه بدبيب الحركة ، ولا تحس منه بأثر من آثار الحياة ، بينما ترى شعراً آخر وكأنه الربع المأهول ، والبيت المقصود المعمور ، تعرفه بحركة سكانه ، وتكاد تسمع منه نغماتهم التي تتردد بين جوانبه . والفرق بين الشعرين أن الأول ميت بلا روح ، وأما الثاني فقد أعاره صاحبه بعضا من نفسه ، ووهبه جزءاً من روحه الحساسة ، فإذا مات الشاعر بقيت روحه تتلألأ في شعره يعرفه بها الناس ، ويذكرونه كلما أشرقت عليهم من خلال أقواله . ومن النوع الثاني كان غالب شعر أبي الطيب كما أظن ، ولولا ذلك ما سار فيالناس مسيره الغريب " (١) .

وممن اعترف للمتنبي بالفضل اليازجي في " العرف الطيب " ؛ إذ حلل شعره في مراحله المختلفة تحليلا دقيقا نقتطف منه قوله : " وما

---

(١) أبو الطيب المتنبي حياته وخلقه وشعره وأسلوبه / ١٥٥ ، ١٥٦ .

أحسب المتنبي إلا كان في صدر أمره يتوخى طريق أبي تمام إعجاباً به واستعظاماً لأمره ... ، إلا أن المتنبي لم يكن في طبعه من أهل هذا المذهب ، ولا في سجيته قبول هذا المسلك ... ، ولذلك كان هذا في أوائل شعره ، وقبل أن تستوسق ملكته ، وتستقل طريقته أكثر وأظهر ، فكان ينحو نحو أبي تمام في الحوم حول موارد الإغراب ، والتنقيب عن الوحشي من كلم الجاهلية ... ، ومن تفقد أوائل ديوانه رآها كذلك ألوانا تبعا لمقامات الكلام ، ومراتب المخاطبين ، وكلما أمعن فيما وراء ذلك وجد هذا التلون فيه أحفى آثاراً ، وأقل عروضاً إلى أن استقلت طريقته ، وأقلع عن موقف التقليد ... ؛ ولهذا ترى شعره في أبي العشائر مثلا أسهل أسلوبا ، وأظهر أغراضاً من بعض شعره في سيف الدولة ، مع أنه ولا شك كان أيام اتصاله بسيف الدولة أغزر مادة ، وأقدر على التصرف بأزمّة الكلام .. ؛ وذلك أنه عند اتصاله بسيف الدولة وقف منه بباب حافل بالشعراء والعلماء ، ولذلك لم يكن للكتتبي بدٌّ من حشد القريحة في مدائح سيف الدولة ، وغلإكثار من التحري والتنطس في ألفاظه ومعانيه ، والإمعان في الاحتفال إلى ما وراء طبعه ، حتى تنقلب قريحته صنعة ، وبادرته تكلفا .... ، ثم إذا أنتقلت إلى شعره في كافور وجدته قد عاد إلى السهولة والرشاقة فأشبه شعره في أبي العشائر ومن قبله " (١)

لم يسلم أبو الطيب في العصر الحديث من سهام النقد وقسوة بعض الأقلام عليه ، ومن عجيب ما رأيته من ذلك ما ذهب إليه الدكتور عباس

---

(١) العرف الطيب ٦٦٥ : ٦٧١ نقلا عن المرجع السابق هامش ١٦١، ١٦٢ .

حسن في كتاب له بعنوان " المتنبي وشوقي وإمارة الشعر " فبعد أن قرر في بداية حديثه عن شعر المتنبي وشاعريته أطرافا من أحداث حياته ، وأحوال عصره ، وأسفاره وتطوافه ... ، انتهى إلى تقرير نتيجتين ، إحداهما : أن المتنبي عاش حقبة تاريخية مليئة بالاضطرابات والثورات، والأخرى أنه خبر حياة البدو والحضر ، وتنقل بين أهم المدن في عصره ... ، ثم يتساءل عن الذي سجله المتنبي من تلك الأحداث والمشاهد التي رآها ، ويجيب على التساؤل بأن المتنبي لم يصور من عصره شيئاً ذا بال ، ولم يكن شعره سوى في أبواب المديح والرثاء والهجاء .. ، ثم يقول (١) : " هذا هو التراث المنحدر إلينا من المتنبي ، وكله من الشعر الذاتي (الشخصي) قليل النفع ، ضئيل القيمة إذ لا يكاد يمتد أثره لغير قائله وبعض من هم على شاكلته ، ولا ينجح في إثارة وجدان غير وجدانهم " ... ، وهو – لعمري – اتهام ظالم ، وحكم جانبه الصواب ؛ لأن الشاعر ليس من مهامه أن يرصد الواقع الذي يعيشه بتفصيلاته ، ولكنه ينفعل بأشياء معينة فيه يعيش تجربتها ، ويعاني أثقالها ، ويتخذ منها موقفا ، إما بالرضا والإعجاب ، فيسجل ذلك في شعره وفنه ، وإما بالكراهية والمقت فيتخذ منه موقفاً آخر قد يطوي عليه نفسه ، ويلمح إليه من بعيد ، وبخاصة إن كان سيفتح عليه أبواب المعاناة الحياتية ، وقد يصر على المجاهرة بإنكاره إن لم يستطع أن يكتمه ، ويداريه ... ، ومن هذه النوعية الأخيرة شاعرنا أبو الطيب المتنبي الذي كان شجاعا في إبداء رأيه صريحاً مدويا ، سواء فيمن

---

(١) المتنبي وشوقي وإمارة الشعر / ٢٩ .

مدحهم وأثنى على نبلهم ومروءتهم ، أو فيمن هجاهم وأبغضهم وشنع عليهم ، وحسبه أن كان صادقاً مع نفسه وفنه ، وحسبه أنه لم يبذل شعره لكل من طلبه أو جهد في الظفر به .

وأما أن المتنبي لم يصور بعض أحداث عصره ؛ فلأنه " ليس مؤرخاً يصف ما أمامه من حوادث ، بل هو شاعر يمس منها الجانب الذي يراه أجدر بالوصف والحديث ، فله فلسفة خاصة ، وقد بيّن المتنبي غلبة الأعاجم وسخطه عليهم ، ووصف الناس في معاملاتهم وطبائعهم .... ، وكان هو ممثلا لأكبر ثورة ، فشعره كله يمثلها بجميع عناصرها ثورة بناءة تهدم لتبني ، تنقد وتهاجم وتضع أسس الإصلاح والتغيير ، وكفانا بها ثورة تغني عن آلاف المشاهد التسجيلية الخارجة عن النفس " (١) .

* * *

وجُمّاع القول في الخصومة النقدية حول المتنبي أن الرجل كان أكبر من أن يفلح المتعصبون عليه المتنقصون له أن يغضوا من شأنه أو يستطيعوا أن ينزلوه من عليائه ، أو يطامنوا من شهرته وذيوع صوته ، كما لم يستطع محبوه المتعصبون له أن يكشفوا أسرار براعته ، وسر نبوغه وتميزه ، فبقي المتنبي شامخا متربعا على ذروة المجد الأدبي ، وكان موضع تقدير وإعجاب من كثيرين من الذواقين ، بل لقد اقترب بعضهم من فهم طبيعة شعره وسر تميزه ، كالذي حكي عن القاضي الفاضل ونقلناه عنه فيما تقدم عندما سئل عن سر اشتغال الناس بشعر المتنبي فقال : " إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس " (٢) .

---

(١) الصنعة الفنية في شعر المتنبي / ١٧٢ .

(٢) المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين / ٢٩٨ .

المصادر والمراجع

١) الإبانة عن سرقات المتنبي

أبو سعيد محمد بن أحمد العميدي دار المعارف ١٩٦١م

٢) البداية والنهاية ابن الأثير دار الفكر العربي

٣) أبو الطيب المتنبي عبد المجيد دياب

ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م

٤) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين

د/ مصطفى الشكعة ط عالم الكتب ١٩٨٣م

٥) أبو الطيب المتنبي حياته وخلقه وشعره وأسلوبه

محمد كمال حلمي مطبعة الشباب ١٣٩٣هـ ـ ١٩٢١م

٦) التبيان في شرح الديوان أبو البقاء العكبري (بدون)

٧) تاريخ الخلفاء

السيوطي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (بدون)

٨) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري

آدم متز ترجمة أبو ريدة ط الثالثة ١٩٦٥م

٩) خزانة الأدب عبد القادر البغدادي تحقيق عبد السلام هارون

ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م

١٠) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام د/ عبد الوهاب عزام

ط مطبعة الجزيرة بغداد ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦م

١١) الرسالة الموضحة محمد بن الحسن الحاتمي

تحقيق محمد يوسف نجم ط دار صادر بيروت ١٩٦٥م

١٢) شرح ديوان المتنبي عبد الرحمن البرقوقي
دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٠م
١٣) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي
يوسف البديعي ط دار المعارف ١٩٦٣م
١٤) الصنعة الفنية في شعر المتنبي
د/ صلاح عبد الحافظ دار المعارف ١٩٨٣م
١٥) العمدة في محاسن الشعر ونقده
ابن رشيق القيرواني القاهرة ١٩٦٣م
١٦) الكشف عن مساويء المتنبي
الصاحب بن عباد دار المعارف ١٩٦١م
١٧) المتنبي محمود محمد شاكر ط مطبعة المدني القاهرة
١٨) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث
د/ محمد عبد الرحمن شعيب دار المعارف ١٩٦٤م
١٩) المتنبي زكي المحاسني دار المعارف ١٩٦١م
٢٠) المتنبي وشوقي وإمارة الشعر
عباس حسن ط دار المعارف الثانية .
٢١) المتنبي في دراسات المستشرقبن الفرنسيين
د/ حسن الأمراني ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٤م .
٢٢) المثل السائر ابن الأثير
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد بيروت ١٩٩٥م
٢٣) مطالعات في الكتب والحياة عباس محمود العقاد

٢٤) مع أبي الطيب د/ عبد الله الطيب

ط جامعة الخرطوم ١٩٧٥م

٢٥) مع المتنبي د/ طـه حسين دار المعارف التاسعة .

٢٦) معجز أحمد أبو العلاء المعري

تحقيق عبد المجيد دياب ط دار المعارف .

٢٧) النجوم الزاهرة ابن تغري بردي ط دار الكتب .

٢٨) الوساطة بين المتنبي وخصومه القاضي الجرجاني

تحقيق محمد أبو الفضل والبجاوي ط مطبعة الحلبي

٢٩) وفيات الأعيان ابن خلكان دار الثقافة بيرون

٣٠) يتيمة الدهـر أبو منصور الثعالبي

دار الكتب العلمية ١٩٧٩م

الـفـهـرس

الموضوع — الصفحة

مقـدمـة — ٧

تمـهـيـد — ١٩

الفصل الأول

وجدانيات أبي الطيب من سياقات شعره — ٤٧ ـ ١٧٣.

السياق الأول ٤٧ ، الثاني ٥٣ ، الثالث ٥٦ ، الرابع ٥٩ ، الخامس ٦٢ السادس ٦٦ ، السابع ٦٨ ، الثامن ٧١ ، التاسع ٧٤ ، العاشر ٧٨ ، الحادي عشر ٨١ ، الثاني عشر ٨٣ ، الثالث عشر ٨٦ ، الرابع عشر ٩٠، الخامس عشر ٩٣ ، السادس عشر ٩٥ ، السابع عشر ٩٨ ، الثامن عشر ١٠١ ، التاسع عشر ١١١ ، العشرون ١١٣ ، الحادي والعشرون ١٧١ ، الثاني والعشرون ١١٩ ، الثالث والعشرون ١٢٠ ، الرابع والعشرون ١٢٣ ، الخامس والعشرون ١٢٩ ، السادس والعشرون ١٣٢ ، السابع والعشرون ١٣٥ ، الثامن والعشرون ١٣٨ ، التاسع والعشرون ١٤٠ ، الثلاثون ١٥٢ ، الحادي والثلاثون ١٥٨ ، الثاني والثلاثون ١٦٢ ، الثالث والثلاثون ١٦٦ ، الرابع والثلاثون ١٦٨ .

الفصل الثاني : الوجدانيات دلالاتها وبواعثها

١٧١ـ ١٩٩

الثقة بالنفس وتأكيد الذات — ١٧٦

الإباء وسمو الهمة — ١٨٠

استخلاص العبرة والحكمة — ١٨٣

شكوى الظلم والحرمان — ١٨٨

الاستعلاء والمطاولة — ١٩١

الفصل الثالث سمات الأداء الفني

٢٠١ـ٢٥٧

اختياراته للمطالع والافتتاحيات ٢٠٣

أنماط الافتتاحيات ٢٠٤

١ـ نمط حكمي فلسفي ٢٠٤

٢ـ نمط غزلي ٢١٣

٣ـ نمط موضوعي ٢١٩

٤ـ نمط فيه بث وشكوى ومغالبة للشدائد وإظهار التجلد ٢٢١

٥ـ نمط فيه إغراب وتعقيد وتراكب في عباراته ٢٢٣

صدق المعاناه وعمق التجربة ٢٣٠

جدة المعنى وتفرده ٢٣٤

المفارقات المعنوية ٢٣٦

خواص الأسلوب والتعبير ٢٤٠

التعبير الموحى ٢٤٠

البديع المطبوع ٢٤٣

الخيال والصورة ٢٤٤

الفصل الرابع : شعر أبي الطيب وشاعريته بين سهام النقد وهالات الإكباروالإعجاب

٢٥٤ ـ ٢٨١

موقف المحدثين من شعره وشاعريته ٢٦٩

المصادر والمراجع ٢٨٢

الفهرس ٢٨٥

~~~~~~
~~~~~~